الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد التاسع

تتمة سورة النور

وفي الحديث «يؤتى بوال نقص من الحدّ سوطا ، فيقول : رحمة لعبادك ، فيقال له : أأنت أرحم بهم مني ، فيؤمر به إلى النار. ويؤتى بمن زاد سوطا فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به إلى النار «1»» وعن أبى هريرة : إقامة حدّ بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة «2». وعلى الإمام أن ينصب للحدود رجلا عالما بصيرا يعقل كيف يضرب. والرجل يجلد قائما على مجرّده «3» ليس عليه إلا إزاره ، ضربا وسطا لا مبرحا ولا هينا ، مفرّقا على الأعضاء كلها لا يستثنى منها إلا ثلاثة : الوجه ، والرأس ، والفرج. وفي لفظ الجلد : إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم. والمرأة تجلد قاعدة ، ولا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو ، وبهذه الآية استشهد أبو حنيفة على أن الجلد حدّ غير المحصن بلا تغريب. وما احتج به الشافعي على وجوب التغريب من قوله صلى اللّه عليه وسلم «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام «4»» وما يروى عن الصحابة : أنهم جلدوا ونفوا «5» : منسوخ عنده وعند أصحابه بالآية. أو محمول على وجه التعزير والتأديب من غير وجوب. وقول الشافعي في تغريب الحرّ واحد ، وله في العبد ثلاثة أقاويل : يغرب سنة كالحرّ ، ويغرب نصف سنة كما يجلد خمسين جلدة ، ولا يغرب كما قال أبو حنيفة. وبهذه الآية نسخ الحبس الأذى في قوله تعالى : فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ، وقوله تعالى فَآذُوهُما. قيل : تسميته عذابا دليل على أنه عقوبة. ويجوز أن يسمى عذابا، لأنه يمنع من المعاودة كما سمى نكالا.

الطائفة : الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة ، وأقلها ثلاثة أو أربعة ، وهي صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول الشيء. وعن ابن عباس في تفسيرها : أربعة إلى أربعين رجلا من المصدقين باللّه. وعن الحسن : عشرة. وعن قتادة : ثلاثة فصاعدا. وعن عكرمة : رجلان فصاعدا. وعن مجاهد : الواحد فما فوقه. وفضل قول ابن عباس ، لأن الأربعة هي الجماعة التي يثبت بها هذا الحد والصحيح أن هذه الكبيرة من أمّهات الكبائر ، ولهذا قرنها اللّه بالشرك وقتل النفس في قوله

(1). لم أجده بهذا اللفظ وعند أبى يعلى من رواية عمرو بن ضرار عن حذيفة مرفوعا «يؤتى بالذي ضرب فوق الحد فيقول له اللّه تعالى : عبدى ، لم ضربته فوق الحد؟ فيقول غضبا لك. فيقول : أكان غضبك أشد من غضبي. ويؤتى بالذي قصر فيقول عبدى لم قصرت؟ فيقول : رحمته. فيقول أكانت رحمتك أشد من رحمتي. ثم يؤمر بهما جميعا إلى النار»

(2). أخرجه النسائي من طريق أبى زرعة عنه موقوفا وأخرجه النسائي أيضا وابن حبان وأحمد وابن ماجة والطبرانى من هذا الوجه مرفوعا. وقال «أربعين صباحا» ولأحمد «ثلاثين أو أربعين صباحا» وفي الباب عن ابن عمر ، أخرجه ابن ماجة بلفظ «إقامة حد من حدود اللّه تعالى خير من مطر أربعين ليلة»

(3). قوله «على مجرده» في الصحاح : فلان حسن المجرد ، أى : المعرى اه ، أى : المكشوف عن الثياب. (ع)

(4). أخرجه مسلم وأصحاب السنن من حديث عبادة بن الصامت في أثناء حديث

(5). أخرجه الترمذي والحاكم من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما أن النبي صلى اللّه عليه وسلم ضرب وغرب ، وأن أبا بكر ضرب وغرب ، وأن عمر ضرب وغرب.

وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً ، وقال : وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلًا وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «يا معشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال : ثلاث في الدنيا ، وثلاث في الآخرة. فأما اللاتي في الدنيا : فيذهب البهاء ويورث الفقر ، وينقص العمر. وأما اللاتي في الآخرة : فيوجب السخطة ، وسوء الحساب ، والخلود في النار» «1» ولذلك وفي اللّه فيه عقد المائة بكماله ، بخلاف حد القذف وشرب الخمر. وشرع فيه القتلة الهولة وهي الرجم ، ونهى المؤمنين عن الرأفة على المجلود فيه ، وأمر بشهادة الطائفة للتشهير ، فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير ، والواحد والاثنان ليسوا بتلك المثابة ، واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح ، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل. ويشهد له قول ابن عباس رضى اللّه عنهما : إلى أربعين رجلا من المصدقين باللّه.

[سورة النور (24) : آية 3]

الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلاَّ زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)

الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنى والتقحب ، لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء واللاتي على خلاف صفته ، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله ، أو في مشركة. والفاسقة الخبيثة المسافحة. كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين. ونكاح المؤمن الممدوح عند اللّه الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنى : محرّم عليه محظور لما فيه من التشبه بالفساق ، وحضور موقع التهمة ، والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة وأنواع المفاسد. ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرّض لاقتراف الآثام ، فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب ، وقد نبه على ذلك بقوله وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ وقيل : كان بالمدينة موسرات من بغايا المشركين ، فرغب فقراء المهاجرين في نكاحهنّ ، فاستأذنوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فنزلت. وعن عائشة رضى اللّه عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة ، ليس له أن يتزوجها لهذه الآية ،

(1). أخرجه البيهقي في الشعب في السابع والثلاثين وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية في ترجمة أبى وائل عن حذيفة ، بلفظ «يا معشر الناس» وفي آخره : ثم تلا أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ قال أبو نعيم : تفرد به مسلمة بن على الحسنى عن أبى عبد الرحمن الكوفي عن الأعمش وهو ضعيف ، وقال البيهقي : مسلمة متروك. وعبد الرحمن مجهول ، وأخرجه الثعلبي من رواية معاوية بن يحيى عن الأعمش فيحتمل أن يكون هو أبو عبد الرحمن المذكور. وفي الباب عن أنس أخرجه الخطيب وابن الجوزي من طريقه وفي إسناده كعب بن عمرو بن جعفر وهو غير ثقة. ورواه الواحدي في الوسيط غالبا من طريق أبى الدنيا الأشج عن على مرفوعا والأشج ادعى أنه سمع من على بعد الثلاثمائة فسمع منه أبو بكر المفيد وغيره وأخباره معروفة.

وإذا باشرها كان زانيا. وقد أجازه ابن عباس رضى اللّه عنهما وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه سئل عن ذلك؟ فقال : أوله سفاح وآخره نكاح. والحرام لا يحرم الحلال. وقيل : المراد بالنكاح الوطء ، وليس بقول لأمرين ، أحدهما : أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد. والثاني : فساد المعنى وأداؤه إلى قولك : الزاني لا يزنى إلا بزانية والزانية لا يزنى بها إلا زان. وقيل : كان نكاح الزانية محرّما في أول الإسلام ثم نسخ ، والناسخ قوله : وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ. وقيل الإجماع ، وروى ذلك عن سعيد بن المسيب رضى اللّه عنه. فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى ومعنى الثانية؟ قلت : معنى الأولى صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف ولكن في الفواجر. ومعنى الثانية : صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة ، وهما معنيان مختلفان «1». فإن قلت : كيف قدمت الزانية على الزاني أولا ، ثم قدم عليها ثانيا؟ قلت : سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا ، والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن ، فلما كانت أصلا وأولا في ذلك بدأ بذكرها. وأمّا الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه ، لأنه هو الراغب والخاطب ، ومنه يبدأ الطلب.

(1). قال محمود : «إن قلت أى فرق بين الجملتين في المعنى؟ قلت : معنى الأولى صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف ، ولكن في الفواجر ومعنى الثانية صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان» قال أحمد : وليس فيما ذكره إيضاح إطباق الجملتين. ونحن نوضحه فنقول : الأقسام أربعة : الزاني لا يرغب إلا في زانية. الزانية لا ترغب إلا في زان. العفيف لا يرغب إلا في عفيفة. العفيفة لا ترغب إلا في عفيف. وهذه الأقسام الأربعة مختلفة المعاني ، وحاصرة للقسمة فنقول : اختصرت الآية من هذه الأربعة قسمين ، واقتصرت على قسمين أحرى من المسكوت عنهما ، فجاءت مختصرة جامعة ، فالقسم الأول صريح في القسم الأول ويفهم الثالث ، والقسم الثاني صريح في القسم الثاني ويفهم الرابع ، والقسم الثالث والرابع متلازمان ، من حيث أن المقتضى لانحصار رغبة العفيف في العفيفة هو اجتماعهما في العفة ، وذلك بعينه مقتض لانحصار رغبتها فيه ، ثم يقصر التعبير عن وصف الزناة والأعفاء بما لا يقل عن ذكر الزناة وجودا وسلبا ، فان معنى الأول الزانية لا ينكحها عفيف ، ومعنى الثاني : العفيفة لا ينكحها زان. والسر في ذلك أن الكلام في أحكامهم ، فذكر الأعفاء بسلب نقائصهم ، حتى لا يخرج بالكلام عما هو المقصود منه ، ثم بينه في إسناد النكاح في هذين القسمين المذكور دون الإناث ، بخلاف قوله الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فانه جعل لكل واحد منهما ثم استقلالا ، وقدم الزانية على الزاني. والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنا ، والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الايماض والاطماع ، والكلام الثاني في نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة ، والأصل في النكاح الذكور وهم المبتدءون بالخطبة ، فلم يسند إلا لهم لهذا - وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفاء من الذكور والإناث من مناكحة الزناة ذكورا وإناثا ، زجرا لهم عن الفاحشة - ولذلك قرن الزنا والشرك. ومن ثم كره مالك رحمه اللّه مناكحة المشهورين بالفاحشة ، وقد نقل بعض أصحابه الإجماع في المذهب على أن للمرأة أو لمن قام من أوليائها فسخ نكاح الفاسق. ومالك أبعد الناس من اعتبار الكفاءة إلا في الدين. وأما في النسب ، فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى فاستعظمه وتلا يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ. [.....]

وعن عمرو بن عبيد رضي اللّه عنه : لا ينكح ، بالجزم على النهى. والمرفوع فيه أيضا معنى النهى ، ولكن أبلغ وآكد ، كما أن «رحمك اللّه ، ويرحمك» أبلغ من «ليرحمك» ويجوز أن يكون خبرا محضا على معنى : أن عادتهم جارية على ذلك ، وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصوّن عنها. وقرئ : وحرم ، بفتح الحاء «1».

[سورة النور (24) : الآيات 4 إلى 5]

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (4) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

القذف يكون بالزنى وبغيره ، والذي دل على أن المراد قذفهن بالزنى شيئان ، أحدهما : ذكر المحصنات عقيب الزواني. والثاني : اشتراط أربعة شهداء ، لأنّ القذف بغير الزنى يكفى فيه شاهدان ، والقذف بالزنى أن يقول الحرّ العاقل البالغ لمحصنة : يا زانية ، أو لمحصن : يا زانى ، يا ابن الزاني ، يا ابن الزانية ، يا ولد الزنا ، لست لأبيك ، لست لرشدة. والقذف بغير الزنا أن يقول : يا آكل الربا ، يا شارب الخمر ، يا يهودى ، يا مجوسي، يا فاسق ، يا خبيث ، يا ماص بظر أمّه : فعليه التعزير ، ولا يبلغ به أدنى حد العبيد وهو أربعون ، بل ينقص منه. وقال أبو يوسف : يجوز أن يبلغ به تسعة وسبعون. وقال : للإمام أن يعزر إلى المائة. وشروط إحصان القذف خمسة : الحرية ، والبلوغ ، والعقل ، والإسلام ، والعفة. وقرئ : بأربعة شهداء ، بالتنوين. وشهداء : صفة. فإن قلت : كيف يشهدون مجتمعين أو متفرّقين؟ قلت : الواجب عند أبى حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم أن يحضروا في مجلس واحد ، وإن جاءوا متفرقين كانوا قذفة. وعند الشافعي رضى الله عنه : يجوز أن يحضروا متفرّقين. فإن قلت : هل يجوز أن يكون زوج المقذوفة واحدا منهم؟ قلت : يجوز عند أبى حنيفة خلافا للشافعي. فإن قلت : كيف يجلد القاذف؟ قلت : كما جلد الزاني ، إلا أنه لا ينزع عنه من ثيابه إلا ما ينزع عن المرأة من الحشو والفرو. والقاذفة أيضا كالزانية ، وأشدّ الضرب ضرب التعزير ، ثم ضرب الزنا ، ثم ضرب شرب الخمر ، ثم ضرب القاذف. قالوا : لأنّ سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب ، إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وردعا عن هتكها. فإن قلت : فإذا لم يكن المقذوف محصنا؟ قلت : يعزر القاذف ولا يحدّ ، إلا أن يكون المقذوف معروفا بما قذف به فلا حدّ ولا تعزير. ردّ شهادة القاذف معلق عند أبى حنيفة رضى الله عنه باستيفاء الحد ، فإذا شهد قبل الحد أو قبل تمام استيفائه قبلت شهادته ، فإذا استوفى لم تقبل شهادته أبدا وإن تاب وكان من الأبرار الأتقياء.

(1). قوله «بفتح الحاء» لعله : بفتح الحاء والراء. (ع)

وعند الشافعي رضى الله عنه : يتعلق ردّ شهادته بنفس القذف ، فإذا تاب عن القذف بأن رجع عنه ، عاد مقبول الشهادة. وكلاهما متمسك بالآية ، فأبو حنيفة رضى الله عنه جعل جزاء الشرط الذي هو الرمي : الجلد ، وردّ الشهادة عقيب الجلد على التأبيد ، فكانوا مردودى الشهادة عنده في أبدهم وهو مدة حياتهم ، وجعل قوله وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ كلاما مستأنفا غير داخل في حيز جزاء الشرط ، كأنه حكاية حال الرامين عند الله بعد انقضاء الجملة الشرطية.

وإِلَّا الَّذِينَ تابُوا استثناء من الفاسقين. ويدل عليه قوله فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ والشافعي رضى الله عنه جعل جزاء الشرط الجملتين أيضا. غير أنه صرف الأبد إلى مدة كونه قاذفا ، وهي تنتهي بالتوبة والرجوع عن القذف وجعل الاستثناء متعلقا بالجملة الثانية. وحق المستثنى عنده أن يكون مجرورا بدلا من «هم» في «لهم» وحقه عند أبى حنيفة رضى الله عنه أن يكون منصوبا لأنه عن موجب ، والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط ، كأنه قيل : ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردّوا شهادتهم وفسقوهم أى : فاجمعوا لهم الجلد والردّ والتفسيق ، إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فإنّ الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين. فإن قلت. الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع ، والقاذف من المسلمين يتوب عن القذف فلا تقبل شهادته عند أبى حنيفة رضى الله عنه ، كأن القذف مع الكفر أهون من القذف مع الإسلام؟ قلت : المسلمون لا يعبئون بسب الكفار ، لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل ، فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف مسلم مثله ، فشدّد على القاذف من المسلمين ردعا وكفا عن إلحاق الشنار «1». فإن قلت : هل للمقذوف أو للإمام أن يعفو عن حدّ القاذف؟ قلت : لهما ذلك قبل أن يشهد الشهود ويثبت الحدّ ، والمقذوف مندوب إلى أن لا يرافع القاذف ولا يطالبه بالحدّ. ويحسن من الإمام أن يحمل المقذوف على كظم الغيظ ويقول له : أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحدّ : فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعفو لأنه خالص حق الله ، ولهذا لم يصح أن يصالح عنه بمال. فإن قلت : هل يورث الحدّ؟ قلت: عند أبى حنيفة رضى الله عنه لا يورث ، لقوله صلى الله عليه وسلم «الحدّ لا يورث» وعند الشافعي رضى الله عنه يورث ، وإذا تاب القاذف قبل أن يثبت الحدّ سقط.

وقيل : نزلت هذه الآية في حسان بن ثابت رضى الله عنه حين تاب مما قال في عائشة رضى الله عنها.

(1). قوله «الشنار» في الصحاح «الشنار» العيب والعار. (ع)

[سورة النور (24) : الآيات 6 إلى 9]

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ (7) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (8) وَالْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9)

قاذف امرأته إذا كان مسلما حرا بالغا عاقلا ، غير محدود في القذف ، والمرأة بهذه الصفة مع العفة : صح اللعان بينهما ، إذا قذفها بصريح الزنى. وهو أن يقول لها : يا زانية ، أو : زنيت ، أو رأيتك تزنين. وإذا كان الزوج عبدا ، أو محدودا في قذف ، والمرأة محصنة : حدّ كما في قذف الأجنبيات ، وما لم ترافعه إلى الإمام لم يجب اللعان. واللعان : أن يبدأ الرجل فيشهد أربع شهادات باللّه إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنى ، ويقول في الخامسة : أن لعنة اللّه عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى. وتقول المرأة أربع مرات : أشهد باللّه إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى ، ثم تقول في الخامسة : أن غضب اللّه عليها إن كان من الصادقين فيما رمانى به من الزنى. وعند الشافعي رضى اللّه عنه : يقام الرجل قائما حتى يشهد والمرأة قاعدة ، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد ، ويأمر الإمام من يضع يده على فيه ويقول له : إنى أخاف إن لم تكن صادقا أن تبوء بلعنة اللّه ، وقال : اللعان بمكة بين المقام والبيت ، وبالمدينة على المنبر ، وببيت المقدس في مسجده ، ولعان المشرك في الكنيسة وحيث يعظم ، وإذا لم يكن له دين ففي مساجدنا إلا في المسجد الحرام ، لقوله تعالى إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ ثم يفرق القاضي بينهما ، ولا تقع الفرقة بينهما إلا بتفريقه عند أبى حنيفة وأصحابه رضى اللّه عنهم ، إلا عند زفر ، فإن الفرقة تقع باللعان. وعن عثمان البتى : لا فرقة أصلا. وعند الشافعي رضى اللّه عنه تقع بلمان الزوج ، وتكون هذه الفرقة في حكم التطليقة البائنة عند أبى حنيفة ومحمد رضى اللّه عنهما ولا يتأبد حكمها ، فإذا أكذب الرجل نفسه بعد ذلك فحدّ جاز أن يتزوجها. وعند أبى يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رضى اللّه عنهم : هي فرقة بغير طلاق توجب تحريما مؤبدا ، ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه.

وروى أن آية القذف لما نزلت «1» قرأها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على المنبر ، فقام عاصم بن عدى الأنصارى رضى اللّه عنه فقال : جعلني اللّه فداك ،

(1). وفي الخازن : سبب نزول هذه الآية ما روى عن سهل بن سعد الساعدي أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم ابن عدى فقال لعاصم أرأيت لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل سل لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وفيه أيضا عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى اللّه عليه وسلم بشريك ابن سحماء فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : البينة أو حدّ في ظهرك ، فقال يا رسول اللّه إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ، فجعل النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : البينة أو حد في ظهرك فنزل جبريل بقوله تعالى وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ - الآية.

إن وجد رجل مع امرأته رجلا فأخبر جلد ثمانين وردّت شهادته أبدا وفسق ، وإن ضربه بالسيف قتل ، وإن سكت سكت على غيظ ، وإلى أن يجيء بأربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى : اللهم افتح. وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال : ما وراءك؟ قال شر : وجدت على بطن امرأتى خولة - وهي بنت عاصم - شريك بن سحماء ، فقال : هذا واللّه سؤالى ، ما أسرع ما ابتليت به! فرجعا ، فأخبر عاصم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكلم خولة فقالت : لا أدرى ، ألغيرة أدركته؟

أم بخلا على الطعام - وكان شريك نزيلهم - وقال هلال : لقد رأيته على بطنها. فنزلت ، ولا عن بينهما. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عند قوله وقولها : أنّ لعنة اللّه عليه ، إن غضب اللّه عليها : آمين ، وقال القوم : آمين ، وقال لها : إن كنت ألممت بذنب فاعترفى به ، فالرجم أهون عليك من غضب اللّه ، إن غضبه هو النار. وقال : تحينوا بها الولادة فإن جاءت به أصيهب أثيبج «1» يضرب إلى السواد فهو لشريك ، وإن جاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين فهو لغير الذي رميت به» قال ابن عباس رضى اللّه عنهما : فجاءت بأشبه خلق اللّه لشريك. فقال صلى اللّه عليه وسلم : «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن». وقرئ : ولم تكن ، بالتاء ، لأنّ الشهداء جماعة. أو لأنهم في معنى الأنفس التي هي بدل. ووجه من قرأ أربع أن ينتصب ، لأنه في حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذي هو فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ وهي مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره : فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات باللّه. وقرئ أن لعنة اللّه ، وأن غضب اللّه : على تخفيف أن ورفع ما بعدها. وقرئ : أن غضب

(1). قوله «فان جاءت به أصيهب أثيبج» في الصحاح «الصهبة» الشقرة في شعر الرأس والرجل أصهب. وفيه : ثبج كل شيء وسطه. والأثبج : العريض الثبج ويقال الناتئ الثبج اه وما في الحديث تصغيرهما. وفيه أيضا «الخدلجة» بتشديد اللام المرأة الممتلئة الذراعين والساقين. (ع)

(2). قوله «و قرئ بنصب الخامستين» في النسفي : أنه لا خلاف في رفع الخامسة الأولى على المشهور. (ع)

(3). قوله «بخلابتها» في الصحاح «الخلابة» الخديعة باللسان. (ع)

ولذلك كانت مقدّمة في آية الجلد. ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم لخولة «فالرجم أهون عليك من غضب الله».

[سورة النور (24) : آية 10]

وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)

الفضل : التفضل ، وجواب «لولا» متروك ، وتركه دال على أمر عظيم لا يكتنه ، ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به.

[سورة النور (24) : آية 11]

إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ (11)

الإفك : أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وقيل : هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك.

وأصله : الأفك ، وهو القلب ، لأنه قول مأفوك عن وجهه. والمراد : ما أفك به على عائشة رضى الله عنها. والعصبة : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، وكذلك العصابة. واعصوصبوا : اجتمعوا ، وهم عبد الله بن أبىّ رأس النفاق ، وزيد بن رفاعة ، وحسان بن ثابت ، ومسطح ابن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ، ومن ساعدهم. وقرئ : كبره بالضم والكسر ، وهو عظمه «1». والذي تولاه عبد الله ، لإمعانه في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهازه الفرص ، وطلبه سبيلا إلى الغميزة.

أى يصيب كل خائض في حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه. والعذاب العظيم لعبد الله ، لأنّ معظم الشرّ كان منه. يحكى أن صفوان رضى الله عنه مرّ بهودجها عليه وهو في ملأ من قومه فقال : من هذه؟ فقالوا : عائشة رضى الله عنها ، فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها.

والخطاب في قوله هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لمن ساءه ذلك من المؤمنين ، وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأبى بكر ، وعائشة ، وصفوان بن المعطل رضى الله عنهم. ومعنى كونه خيرا لهم : أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة ، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها ، وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه ، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة ، وفوائد دينية ، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها.

(1). قوله «و هو عظمه» في الصحاح : عظم الشيء : أكثره ومعظمه. (ع)

[سورة النور (24) : آية 12]

لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ (12)

بِأَنْفُسِهِمْ أى بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات ، كقوله وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ «1» وذلك نحو ما يروى أن أبا أيوب الأنصارى قال لأم أيوب : ألا ترين ما يقال؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سوءا؟ قال : لا. قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة رضى اللّه عنها ما خنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك «2». فإن قلت : هلا قيل : لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم؟

ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت : ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ الإيمان ، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدّق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول غائب ولا طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه ، أن يبنى الأمر فيها على الظنّ لا على الشك. وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير : هذا إِفْكٌ مُبِينٌ هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته. كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال. وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بأخوات.

[سورة النور (24) : آية 13]

لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ (13)

(1). قال محمود : «معناه ظنوا بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات ، كقوله تعالى : ولا تلمزوا أنفسكم» قال أحمد : والسر في هذا التعبير : تعطيف المؤمن على أخيه وتوبيخه على أن يذكره بسوء ، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة ، ولا شيء أشنع من ذلك ، واللّه أعلم.
(2). عاد كلامه. قال : ونقل أن أبا أيوب الأنصارى قال لامرأته : ألا ترين مقالة الناس؟ قالت له : لو كنت بدل صفوان أكنت تخون في حرمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سوءا؟ قال : لا. قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنته ، وصفوان خير منك وعائشة خير منى» قال أحمد : ولقد ألهمت بنور الايمان إلى هذا السر الذي انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس ، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان ، ونفسها منزلة عائشة ، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة ، حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بطريق الأولى رضى اللّه عنها. ويحتمل واللّه أعلم خلاف ما قاله الزمخشري : وهو أن يكون التعبير بالأنفس حقيقة ، والمقصود إلزام سيئ الظن بنفسه ، لأنه لم يعتد بوازع الايمان في حق غيره ، وألغاه واعتبره في حق نفسه ، وادعى لها البراءة قبل معرفته بحكم الهوى لا بحكم الهدى ، واللّه أعلم.

جعل اللّه التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب : ثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها ، والذين رموا عائشة رضى اللّه عنها لم تكن لهم بينة على قولهم ، فقامت عليهم الحجة وكانوا عِنْدَ اللَّهِ أى في حكمه وشريعته كاذبين. وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا في دفعه وإنكاره ، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع : من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة ، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين ، فكيف بأمّ المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق حرمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وحبيبة حبيب اللّه؟

[سورة النور (24) : الآيات 14 إلى 15]

وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15)

لو لا الأولى للتحضيض ، وهذه لامتناع الشيء لوجود غيره. والمعنى : ولولا أنى قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ، وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة ، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك. يقال : أفاض في الحديث ، واندفع ، وهضب ، وخاض إِذْ ظرف لمسكم ، أو لأفضتم تَلَقَّوْنَهُ يأخذه بعضكم من بعض. يقال : تلقى القول وتلقنه وتلقفه. ومنه قوله تعالى فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ وقرئ على الأصل : تتلقونه. وإذ تلقونه ، بإدغام الذال في التاء «1». وتلقونه ، من لقيه بمعنى لقفه. وتلقونه ، من إلقائه بعضهم على بعض. وتلقونه وتألقونه ، من الولق والألق : وهو الكذب. وتلقونه : محكية عن عائشة رضى اللّه عنها ، وعن سفيان : سمعت أمى تقرأ : إذ تثقفونه «2» ، وكان أبوها يقرأ بحرف عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه. فإن قلت : ما معنى قوله بِأَفْواهِكُمْ والقول لا يكون إلا بالفم؟ قلت : معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ، فيترجم عنه اللسان «3». وهذا الإفك ليس إلا قولا يجرى على ألسنتكم ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب ، كقوله تعالى يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ،

(1). قوله «و إذ تلقونه» لعل رسمه هكذا «و اتلقونه» إلا أن يعتبر ما قبل الإدغام. (ع)
(2). قوله «سمعت أمى تقرأ إذا تثقفونه» وفي نسخة تنقفونه ، بمعنى تتبعونه ، وكلا النسختين قراءة. (ع)

(3). قال محمود : «إن قلت القول لا يكون إلا بالأفواه ، فما فائدة ذكرها؟ قلت : المراد أن هذا القول لم يكن عبارة عن علم قام بالقلب، وإنما هو مجرد قول اللسان» قال أحمد : ويحتمل أن يكون المراد المبالغة ، أو تعريضا بأنه ربما يتمشدق ويقضى تمشدق جازم عالم ، وهذا أشد وأقطع ، وهو السر الذي أنبا عنه قوله تعالى قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ والله أعلم.

أى : تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة موجبة «1». وعن بعضهم أنه جزع عند الموت ، فقيل له ، فقال : أخاف ذنبا لم يكن منى على بال وهو عند الله عظيم. وفي كلام بعضهم : لا تقولنّ لشيء من سيئاتك حقير ، فلعله عند الله نخلة وهو عندك نقير. وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها ، أحدها : تلقى الإفك بألسنتهم ، وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له : ما وراءك؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه. والثاني : التكلم مما لا علم لهم به. والثالث : استصغارهم لذلك و«و عظيمة من العظائم.

[سورة النور (24) : آية 16]

وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (16)

فإن قلت : كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم؟ قلت : للظروف شأن وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها ، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها.

فإن قلت : فأىّ فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا؟ قلت : الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلم به ، فلما كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم. فإن قلت : فما معنى يكون ، والكلام بدونه متلئب «2» لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا؟

قلت : معناه معنى : ينبغي ، ويصح أى : ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا. وما يصح لنا. ونحوه : ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. وسُبْحانَكَ للتعجب من عظم الأمر «3». فإن قلت : ما معنى التعجب في كلمة التسبيح؟ قلت : الأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه ، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيه عليه السلام فاجرة. فإن قلت : كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ، ولم يجز أن تكون فاجرة؟ قلت : لأنّ الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم ،

(1). قوله «و هو عند الله كبيرة موجبة» لعله موجبة للعقاب. (ع)
(2). قوله «و الكلام بدونه متلئب» لعله : محرف ، وأصله مستتب. وفي الصحاح : استتب الأمر : تهيأ واستقام. (ع) [.....]
(3). قال محمود : «معناه التعجب من عظم الأمر ، وأصله أن الإنسان إذا رأى عجيبا من صنائع الله تعالى سبحه ، ثم كثر حتى استعمل عند كل متعجب منه ، ثم أوردها هنا سؤالا على توبيخهم على ترك التعجب فقال :
إن قلت : لم جاز أن تكون زوجة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة ، ولم يكن كفرها متعجبا منه وفجورها متعجب منه؟ قلت : لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويتزلفوا إليهم ، وكفر الزوجة غير مانع ولا منفر بخلاف الكشخنة» قال أحمد : وما أورد عليه أبرد من هذا السؤال ، كأن أحدا يشكل عليه أن ينسب الفاحشة إلى مثل عائشة ، مما ينكره كل عاقل ويتعجب منه كل لبيب ، والله الموفق ،

فيجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم ، ولم يكن الكفر عندهم مما ينفر. وأما الكشخنة «1» فمن أعظم المنفرات.

[سورة النور (24) : الآيات 17 إلى 18]

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18)

أى كراهة أَنْ تَعُودُوا أو في أن تعودوا ، من قولك : وعظت فلانا في كذا فتركه.

وأبدهم ما داموا أحياء مكلفين. وإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فيه تهييج لهم ليتعظوا ، وتذكير بما يوجب ترك العود ، وهو اتصافهم بالإيمان الصادّ عن كل مقبح ، ويبين الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع ، ويعلمكم من الآداب الجميلة ، ويعظكم به من المواعظ الشافية ، والله عالم بكل شيء ، فاعل لما يفعله بدواعى الحكمة.

[سورة النور (24) : آية 19]

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(19)

المعنى : يشيعون الفاحشة عن قصد إلى الإشاعة ، وإرادة ومحبة لها ، وعذاب الدنيا الحدّ ، ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبىّ وحسانا ومسطحا ، وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف ، وكفّ بصره. وقيل : هو المراد بقوله وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما في القلوب من الأسرار والضمائر وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ يعنى أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة ، وهو معاقبة عليها.

[سورة النور (24) : آية 20]

وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (20)

وكرّر المنة بترك المعاجلة بالعقاب ، حاذفا جواب لولا كما حذفه ثمة. وفي هذا التكرير مع حذف الجواب مبالغة عظيمة ، وكذلك في التوّاب والرءوف والرحيم.

[سورة النور (24) : آية 21]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)

الفحشاء والفاحشة : ما أفرط قبحه. قال أبو ذؤيب :

(1). قوله «الكشخنة» كأنها الدياثة. (ع)

ضرائر حرمىّ تفاحش غارها «1»

أى : أفرطت غيرتها. والمنكر : ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه. وقرئ : خطوات ، بفتح الطاء وسكونها. وزكى بالتشديد ، والضمير لله تعالى ، ولولا أنّ الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة ، لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك ، ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها ، وهو سَمِيعٌ لقولهم عَلِيمٌ بضمائرهم وإخلاصهم.

[سورة النور (24) : آية 22]

وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَالْمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22)

وهو من ائتلى إذا حلف : افتعال من الألية. وقيل : من قولهم : ما ألوت جهدا ، إذا لم تدخر منه شيئا. ويشهد للأول قراءة الحسن : ولا يتأل. والمعنى : لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان. أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها ، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح ، وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم ، مع كثرة خطاياهم وذنوبهم ، نزلت في شأن مسطح وكان ابن خالة أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما ، وكان فقيرا من فقراء المهاجرين ، وكان أبو بكر ينفق عليه ، فلما فرط منه ما فرط : آلى أن لا ينفق عليه ، وكفى به داعيا إلى المجاملة وترك الاشتغال بالمكافأة للمسيء. ويروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها على أبى بكر ، فقال : بلى أحب أن يغفر الله لي ، ورجع إلى مسطح نفقته وقال : والله لا أنزعها أبدا. وقرأ أبو حيوة وابن قطيب : أن تؤتوا ، بالتاء على الالتفات. ويعضده قوله أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ.

[سورة النور (24) : آية 23]

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (23)

الْغافِلاتِ السليمات الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر ،

(1) لهن نشيج بالنشيل كأنها ضرائر حرمي تفاحش غارها
الضمير للقدور. والنشيج : الصوت ، كالنئيج. يقال : نشجت القدر ونشج الباكي ، وطعنة ناشجة : تبك دما. والباء للملابسة. والنشيل : اللحم المطبوخ : ينشل من القدر. والضرائر : نسوة الرجل ، لأن كلا منهن تريد ضر الأخرى والحرمي : نسبة إلى الحرم ، كالجسم لغة في حرم مكة. والتفاحش : الافراط في القبح. والغار ، الغيرة ، أو الوجيب والصياح ، وهو أنسب بالتشبيه.

لأنهنّ لم يجربن الأمور ولم يرزن الأحوال ، فلا يفطنّ لما تفطن له المجربات العرافات. قال : ولقد لهوت بطفلة ميّالة بلهاء تطلعني على أسرارها «1»

وكذلك البله من الرجال في قوله عليه الصلاة والسلام «أكثر أهل الجنة البله».

[سورة النور (24) : الآيات 24 إلى 25]

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25)

وقرئ : يشهد ، بالياء. والحق : بالنصب صفة للدين وهو الجزاء ، وبالرفع صفة للّه ، ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة لم تر اللّه تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان اللّه عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف. واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة. كل واحد منها كاف في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها ، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا ، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة ، وبأنّ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله ، حتى يعلموا عند ذلك أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ فأوجز في ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرّر ، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة ، وما ذاك إلا لأمر. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : أنه كان بالبصرة يوم عرفة ، وكان يسأل عن تفسير القرآن ، حتى سئل عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة ، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك.

ولقد برّأ اللّه تعالى أربعة بأربعة : برأ يوسف بلسان الشاهد وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها. وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه. وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها : إنى عبد اللّه. وبرّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر ، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات. فانظر ، كم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم ، وخيرة الأوّلين والآخرين ، وحجة اللّه على العالمين. ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه صلى اللّه عليه وسلم وتقدّم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق ، فليتلق ذلك من آيات الإفك ، وليتأمّل كيف غضب اللّه في حرمته ،

(1). لهوت : تلاهيت ولعبت ، بطفلة - بالفتح - أى : امرأة ناعمة لينة ، يقال : امرأة طفلة الأنامل ، أى : رخصتها لينتها ، ميالة : مختالة ، بلهاء : غافلة لا مكر عندها ولا دهاء ، فلذلك تطلعني على ضمائرها.

وكيف بالغ في نفى التهمة عن حجابه. فإن قلت : إن كانت عائشة هي المرادة فكيف قيل المحصنات «1»؟ قلت: فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد بالمحصنات أزواج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأن يخصصن بأن من قذفهنّ فهذا الوعيد لا حق به ، وإذا أردن وعائشة كبراهنّ منزلة وقربة عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، كانت المرادة أوّلا.

والثاني : أنها أمّ المؤمنين فجمعت إرادة لها ولبناتها من نساء الأمّة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان ، كما قال : قدنى من نصر الخبيبين قدى «2»

أراد عبد اللّه بن الزبير وأشياعه ، وكان أعداؤه يكنونه بخبيب ابنه ، وكان مضعوفا «3» ، وكنيته المشهورة أبو بكر ، إلا أن هذا في الاسم وذاك في الصفة. فإن قلت : ما معنى قوله هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ؟ قلت : معناه ذو الحق

(1). قال محمود : «إن كانت عائشة هي المرادة ، فلم جمع؟ قلت : المراد إما أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى يكون هذا الوعيد لاحقا بقاذفهن ، وإما عائشة وجمعت إرادة لها ولبناتها ، كما قال :
قدنى من نصر الخبيبين قدى
يعنى عبد اللّه بن الزبير وأشياعه وكان يكنى أبا خبيب» قال أحمد : والأظهر أن المراد عموم المحصنات والمقصود بذكرهن على العموم وعيد من وقع في عائشة على أبلغ الوجوه ، لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات ، فما الظن بوعيد من قذف سيدتهن وزوج سيد البشر صلى اللّه عليه وسلم ، على أن تعميم الوعيد أبلغ وأقطع من تخصيصه وهذا معنى قول زليخا ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ فعممت وأرادت يوسف ، تهويلا عليه وإرجافا ، والمعصوم من عصمه اللّه تعالى.
(2) قدنى من نصر الخبيبين قد ليس الامام بالشحيح الملحد
ولا يوتن بالحجاز مفرد إن ير يوما بالقضاء يصطد
أو ينجحر فالجحر شر محكد
لحميد الأرقط. وقيل : لأبى بحدلة يخاطب عبد الملك بن مروان. وقدنى : بمعنى حسبي. وكرر للتوكيد. والخبيبين يروى بصيغة التثنية ، يعنى عبد اللّه بن الزبير وابنه خبيب ، وكانوا إذا ذموه كنوه بأبى خبيب بالتصغير. ويروى بصيغة الجمع ، يعنى : عبد اللّه وشيعته ، كان ادعى الخلافة فقال الشاعر : لا يكون الامام شحيحا أى بخيلا ، ولا ملحدا أى محتكرا أو محاربا في الحرم. والإلحاد : الميل. والوتن بالسكون ، والواتن بالمثناة ، وبالمثلثة : الثابت الدائم ، يوصف به الماء ونحوه. ويروى : يوبر ، والوبر حيوان صغير ذليل لا ذنب له يحبس ويعلف ، ومفرد : يروى بالفاء وبالقاف. وقرد الرجل : سكت من عي. وأفرد : سكن وتماوت. وأقردت الشيء : جمعته وصممته وهو منه. ويصطد : مبنى للمجهول ، وهو يناسب رواية وبر. والانجحار : دخول الجحر. والمحكد. الملجأ والمهرب. وحاشا لابن الزبير أن يكون ملحدا.
(3). قوله «و كان مضعوفا» في الصحاح : أضعفت الشيء فهو مضعوف ، على غير قياس. (ع)

[سورة النور (24) : الآيات 24 إلى 26]

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَالطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)

أى الْخَبِيثاتُ من القول تقال أو تعد لِلْخَبِيثِينَ من الرجال والنساء وَالْخَبِيثُونَ منهم يتعرضون لِلْخَبِيثاتِ من القول ، وكذلك الطيبات والطيبون. وأُولئِكَ إشارة إلى الطيبين ، وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم «1» ، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة والطيب. ويجوز أن يكون أُولئِكَ إشارة إلى أهل البيت ، وأنهم مبرءون مما يقول أهل الإفك ، وأن يراد بالخبيثات والطيبات : النساء ، أى : الخبائث يتزوّجن الخباث ، والخباث الخبائث ، وكذلك أهل الطيب. وذكر الرزق الكريم هاهنا مثله في قوله وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً وعن عائشة : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهنّ امرأة : «2» لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يتزوّجنى ، ولقد تزوّجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى ، ولقد توفى وإنّ رأسه لفي حجري ، ولقد قبر في بيتي ، ولقد حفته الملائكة في بيتي. وإنّ الوحى لينزل عليه في أهله فيتفرقون عنه وإن كان لينزل عليه وأنا معه في لحافه ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة عند طيب ، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما.

[سورة النور (24) : آية 27]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(27)

تستأنسوا فيه وجهان ، أحدهما : أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا؟

(1). قال محمود : تحتمل الآية أمرين ، أحدهما : أن يكون المراد الكلمات الخبيثة للخبيثين ، والمراد : الافك ومن أفاض فيه ، وعكسه في الطيبات والطيبين. الثاني : أن يكون المراد بالخبيثات النساء وبالخبيثين الرجال» قال أحمد : إن كان الأمر على التأويل الثاني ، فهذه الآية تفصيل لما أجمله قوله تعالى الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ وقد بينا أنها مشتملة على هذه الأقسام الأربعة تصريحا وتضمينا ، فجاءت هذه الآية مصرحة بالجميع. وقد اشتملت على فائدة أخرى وهي الاستشهاد على براءة أم المؤمنين بأنها زوجة أطيب الطيبين ، فلا بد وأن تكون طاهرة طيبة مبرأة مما أفكت به ، وهذا التأويل الثاني هو الظاهر ، فان بعد الآية لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وبهذا وعد أزواجه عليه السلام في قوله تعالى نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً واللّه أعلم.

(2). عاد كلامه. قال : ونقل عن عائشة أنها قالت : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة ، فذكرت منهن أنها خلقت طيبة عند طيب»
قال أحمد : وهذا أيضا يحقق ما ذكرته من أن المراد بالطيبات والطيبين : النساء والرجال ، وأن المراد بذلك : إظهار براءة عائشة بأنها زوج أطيب الطيبين ، فيلزم أن تكون طيبة ، وفاء بقوله وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ والله أعلم.

فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم كقوله : لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ وهذا من باب الكناية والإرداف ، «1» لأنّ هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن. فوضع موضع الإذن. والثاني أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف : استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهرا مكشوفا. والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا. ومنه قولهم : استأنس هل ترى أحدا ، واستأنست فلم أر أحدا ، أى : تعرفت واستعلمت. ومنه بيت النابغة : على مستأنس وحد «2»

ويجوز أن يكون من الإنس ، وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان؟ وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه : قلنا يا رسول الله ، ما الاستئناس؟ قال : يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح : يؤذن أهل البيت. والتسليم أن يقول : السلام عليكم ، أأدخل؟ ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا رجع. وعن أبى موسى الأشعرى أنه أتى باب عمر رضى الله عنهما فقال : السلام عليكم أأدخل؟ قالها ثلاثا ثم رجع وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الاستئذان ثلاثا واستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أألج؟ فقال صلى الله عليه وسلم لامرأة يقال لها روضة : قومي إلى هذا فعليه ، فإنه لا يحسن أن يستأذن. قولي له يقول : السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقالها ،

(1). قال محمود : «فيه وجهان ، أحدهما : أنه من الاستئناس الذي هو ضد الاستيحاش ، أى : حتى يؤذن لكم فتستأنسوا ، عبر بالشيء عما هو رادف له. الثاني : أن يكون من الاستعلام من آنس إذا أبصر. والمعنى :
حتى تستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا؟ وذكر أيضا وجها بعيدا ، وهو أن المراد حتى تعلموا هل فيها إنسان أم لا؟» قال أحمد : فيكون على هذا الأخير بنى من الانس استفعل ، والوجه الأول هو البين ، وسر التجوز فيه والعدول إليه عن الحقيقة : ترغيب المخاطبين في الإتيان بالاستئذان بواسطة ذكر فان له فائدة وثمرة تميل النفوس اليها وتنفر من ضدها وهو الاستيحاش الحاصل بتقدير عدم الاستئذان ففيه تنهيض للدواعي على سلوك هذا الأدب ، والله سبحانه وتعالى أعلم.
(2) كأن رحلي وقد زال النهار بنا بذي الجليل على مستأنس وحد
للنابغة ، يصف جمله بأنه كحمار الوحش المسرع خوفا مما رآه. وقال الأصمعي : زال النهار : انتصف ، ولعله لزوال الشمس فيه عن وسط السماء. ويجوز أن المعنى : مضى ولم يبق منه إلا قليل ، كما هو متبادر إسناد الزوال إلى النهار. وبنا : أى علينا. ويجوز أن الباء للملابسة. والجليل. شجر له خوص كخوص النخل. وذو الجليل :
موضعه. والمستأنس : الذي يرفع رأسه ، هل يرى شخصا؟ وقيل : الذي يخاف الأنيس. واستأنست بالشيء : سكن إليه قلبي. واستأنست : استعلت واستبصرت وخفت من الأنيس. والوحد. المنفرد : ووحد كظرف ، فهو وحيد. ووحد كسبب ، ووحد كحذر : انفرد ، أى كان الرجل فوق ذلك الحمار لا فوق الجمل ، لسرعة سيره كالحمار.

فقال : ادخل «1». وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيتا غير بيته : حييتم صباحا ، وحييتم مساء ، ثم يدخل ، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد ، فصدّ الله عن ذلك ، وعلم الأحسن والأجمل. وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به ، وباب الاستئذان من ذلك : بينا أنت في بيتك ، إذا رعف عليك الباب «2». بواحد ، من غير استئذان ولا تحية من تحايى إسلام ولا جاهلية ، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه ، وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أين الأذن الواعية؟ وفي قراءة عبد الله : حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير : إنما هو حتى تستأذنوا ، فأخطأ الكاتب. ولا يعوّل على هذه الرواية. وفي قراءة أبىّ : حتى تستأذنوا ذلِكُمْ الاستئذان والتسليم خَيْرٌ لَكُمْ من تحية الجاهلية والدمور - وهو الدخول بغير إذن - واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك ، كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب. وفي الحديث «من سبقت عينه استئذانه فقد دمر» «3» وروى أنّ رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أأستأذن على أمى؟ قال : نعم ، قال : إنها ليس لها خادم غيرى ، أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال : أتحب أن تراها عريانة قال الرجل : لا. قال : فاستأذن «4» لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى أنزل عليكم. أو قيل لكم هذا إرادة أن تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان.

[سورة النور (24) : آية 28]

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28)

يحتمل فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً من الآذنين فَلا تَدْخُلُوها واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم.

(1). أخرجه ابن أبى شيبة من رواية سفيان السمان : سمعت سعيد بن جبير ولم يسم روضة ، قال فيه : «و قال لخادمه».
(2). قوله «إذا رعف عليك الباب» في الصحاح : رعف الرجل ، إذا خرج الدم من أنفه. ورعف الفرس ، إذا سبق وتقدم ، فكان ما هنا مجاز على وجه التشبيه. (ع)
(3). أخرجه الطبراني من طريق أبى السفر عن يزيد بن شريح عن أبى أمامة بلفظ «من أدخل عينه في بيت من غير إذن أهله فقد دمره ولإبراهيم الحربي في الغريب من حديث ثور بن يزيد عن يزيد بن شريح عن أبى حى المؤذن عن أبى هريرة بلفظ «لا يحل لمسلم أن ينظر في بيت حتى يستأذن فان فمل فقد دمر» قال أبو عبيدة في غريب الحديث : حدثنا هشيم عن منصور بن الحسن بلفظه مرسلا قال قال الكسائي «دمر» بالتخفيف أى دخل بغير إذن. [.....]
(4). أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث عطاء بن يسار «أن رجلا سأل» فذكره مرسلا ، وهو في الموطأ عن صفوان بن سليم عن عطاء. وأورده الطبري من طريق زياد بن سعد عن عطاء مرسلا أيضا وقال ابن أبى شيبة في النكاح : حدثنا ابن عيينة عن زيد بن أسلم فذكره مرسلا

ويحتمل : فإن لم تجدوا فيها أحدا من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها ، وذلك أنّ الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر على عورة ، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط ، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ، ولأنه تصرف في ملك غيرك فلا بدّ من أن يكون برضاه ، وإلا أشبه الغصب والتغلب فَارْجِعُوا أى لا تلحوا في إطلاق الإذن ، ولا تلجوا في تسهيل الحجاب ، ولا تقفوا على الأبواب منتظرين ، لأن هذا مما يجلب الكراهة ويقدح في قلوب الناس خصوصا إذا كانوا ذوى مروءة ومرتاضين بالآداب الحسنة وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى إليها : من قرع الباب بعنف ، والتصبيح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس. وعن أبى عبيد : ما قرعت بابا على عالم قط. وكفى بقصة بنى أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ. فإن قلت : هل يصح أن يكون المعنى : وإن لم يؤذن لكم وأمرتم بالرجوع فامتثلوا ، ولا تدخلوا مع كراهتهم؟ قلت : بعد أن جزم النهى عن الدخول مع فقد الإذن وحده من أهل الدار حاضرين وغائبين ، لم تبق شبهة في كونه منهيا عنه مع انضمام الأمر بالرجوع إلى فقد الإذن. فإن قلت : فإذا عرض أمر في دار : من حريق ، أو هجوم سارق ، أو ظهور منكر يجب إنكاره؟ قلت : ذلك مستثنى بالدليل ، أى : الرجوع أطيب لكم وأطهر ، لما فيه من سلامة الصدور والبعد من الريبة. أو أنفع وأنمى خيرا. ثم أوعد المخاطبين بذلك بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به فموف جزاءه عليه.

[سورة النور (24) : آية 29]

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (29)

استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها : ما ليس بمسكون منها ، وذلك نحو الفنادق وهي الخانات والربط وحوانيت البياعين. والمتاع : المنفعة ، كالاستكنان من الحرّ والبرد ، وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع. ويروى أن أبا بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، إنّ الله تعالى قد أنزل عليك آية في الاستئذان ، وإنا نختلف في تجاراتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن «1»؟ فنزلت. وقيل. الخربات يتبرز فيها. والمتاع : التبرز وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة.

(1). لم أجده

[سورة النور (24) : آية 30]

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ (30)

من للتبعيض ، والمراد غضّ البصر عما يحرم ، والاقتصار به على ما يحلّ. وجوّز الأخفش أن تكون مزيدة ، وأباه سيبويه. فإن قلت : كيف دخلت في غضّ البصر دون حفظ الفروج؟

قلت : دلالة على أن أمر النظر أوسع. ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهنّ وصدورهنّ وثديهنّ وأعضادهنّ وأسوقهنّ وأقدامهنّ وكذلك الجواري المستعرضات ، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين. وأما أمر الفرج فمضيق ، وكفاك فرقا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه ، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه. ويجوز أن يراد - مع حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل - حفظها عن الإبداء. وعن ابن زيد : كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا ، إلا هذا فإنه أراد به الاستتار. ثم أخبر أنه خَبِيرٌ بأفعالهم وأحوالهم ،

[سورة النور (24) : آية 31]

وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)

النساء مأمورات أيضا بغض الأبصار ، ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبى إلى ما تحت سرته إلى ركبته ، وإن اشتهت غضت بصرها رأسا ، ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك.

وغضها بصرها من الأجانب أصلا أولى بها وأحسن. ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة رضى اللّه عنها قالت : كنت عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعنده ميمونة ، فأقبل ابن أم مكتوم - وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب - فدخل علينا فقال : احتجبا ، فقلنا : يا رسول اللّه ، أليس أعمى لا يبصر؟ قال : أفعميا وان أنتما؟ «1» ألستما تبصرانه؟ فإن قلت : لم قدّم غض الأبصار على حفظ الفروج؟ قلت : لأنّ النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشدّ وأكثر ، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه. الزينة : ما تزينت به المرأة من حلىّ أو كحل أو خضاب ، فما كان ظاهرا منها كالخاتم والفتخة «2» والكحل والخضاب. فلا بأس بإبدائه للأجانب ، وما خفى منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط ، فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين. وذكر الزينة دون مواقعها : للمبالغة في الأمر بالتصوّن والتستر ، لأنّ هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء ، وهي الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن ، فنهى عن إبداء الزين نفسها. ليعلم أنّ النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع - بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حله - كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكنا في الحظر ، ثابت القدم في الحرمة ، شاهدا على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين اللّه في الكشف عنها «3» فإن قلت. ما تقول في القراميل «4» ، هل يحل نظر هؤلاء إليها؟ قلت : نعم. فإن قلت : أليس موقعها الظهر ولا يحل لهم النظر إلى ظهرها وبطنها ، وربما ورد الشعر فوقعت القراميل على ما يحاذى ما تحت السرة؟ قلت : الأمر كما قلت ، ولكن أمر القراميل خلاف أمر سائر الحلي ، لأنه لا يقع إلا فوق اللباس ، ويجوز النظر إلى الثوب الواقع على الظهر والبطن للأجانب فضلا عن هؤلاء ، إلا إذا كان يصف لرقته فلا يحل النظر إليه ، فلا يحل النظر إلى القراميل واقعة عليه. فإن قلت : ما المراد بموقع الزينة؟

ذلك العضو كله ، أم المقدار الذي تلابسه الزينة منه؟ قلت : الصحيح أنه العضو كله كما فسرت مواقع الزينة الخفية ، وكذلك مواقع الزينة الظاهرة :

---

(1). أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبراني كلهم من رواية بنهان كاتب أم سلمة عنها. قال النسائي : لا نعلم رواه عن بنهان إلا الزهري وقال إسحاق في مسنده : أخبرنا يحيى بن آدم حدثنا مغول عن يونس عن الزهري عن نهان عن أم سلمة قالت «استأذن ابن أم مكتوم وأنا وزينب عنده - الحديث. ومندل ضعيف خالف في ذكر زينب بدل ميمونة.

(2). قوله «و الفتخة ... الخ» في الصحاح : الفتخة - بالتحريك - حلقة من فضة لا فص فيها ، فإذا كان فيها فص فهو الخاتم ، وربما جعلتها المرأة في أصابع رجليها. وفيه «الإكليل» شبه عصابة تزين بالجوهر ، ويسمي التاج :
إكليلا. (ع)

(3). قال محمود : «المراد النهي عن إبداء مواضع الزينة ، فليس النهى عن إظهار الزينة مقصودا لعينه ، ولكن جعل نفسها كناية عن إبداء مواقعها بطريق الأولى» قال أحمد : وقوله تعالى عقيب ذلك وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ محقق أن إبداء الزينة بعينه مقصودا بالنهى ، لأنه قد نهى عما هو ذريعة إليه خاصة ، إذ الضرب بالأرجل لم يعلل النهى عنه إلا بعلم أن المرأة ذات زينة وإن لم تظهر ، فضلا عن مواضعها ، واللّه أعلم.

(4). قوله «القراميل» في الصحاح : القراميل ، ما تشده المرأة في شعرها. (ع)

الوجه موقع الكحل في عينيه ، والخضاب بالوسمة «1» في حاجبيه وشاربيه ، والغمرة في خديه ، والكف والقدم موقعا الخاتم والفتخة والخضاب بالحناء. فإن قلت : لم سومح مطلقا في الزينة الظاهرة؟ قلت : لأن سترها فيه حرج ، فإن المرأة لا تجد بدّا من مزاولة الأشياء بيديها ، ومن الحاجة إلى كشف وجهها ، خصوصا في الشهادة والمحاكمة والنكاح ، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها ، وخاصة الفقيرات منهنّ ، وهذا

وقرئ : جيوبهن ، بكسر الجيم لأجل الياء. وكذلك بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ قيل في نسائهن : هنّ المؤمنات ، لأنه ليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة أو كتابية. عن ابن عباس رضى اللّه عنهما. والظاهر أنه عنى بنسائهن وما ملكت أيمانهن : من في صحبتهن وخدمتهنّ من الحرائر والإماء والنساء ، كلهنّ سواء في حلّ نظر بعضهن إلى بعض. وقيل : ما ملكت أيمانهنّ هم الذكور والإناث جميعا. وعن عائشة رضى اللّه عنها أنها أباحت النظر إليها لعبدها ، وقالت لذكوان : إنك إذا وضعتني في القبر وخرجت

(1). قوله «و الخضاب بالوسمة» في الصحاح : الوسمة - بكسر السين - العظلم يختضب به ، وتسكينها لغة. وفيه «العظلم» نبت يصبغ به. وفيه أيضا «الغمرة» طلاء يتخذ من الورس. (ع)

(2). قوله «قامت كل واحدة منهن إلى مرطها» في الصحاح «المرط» كساء من صوف أو خز كان يؤتزر به.

وفيه أيضا «مرط مرحل» إزار خز فيه علم. (ع)

(3). أخرجه ابن أبى حاتم من طريق مسلم بن خالد عن عبد اللّه بن عثمان بن خثيم عن صفية عنها وأتم منه.

وأخرجه ابن مردويه من طريق داود بن عبد الرحمن ومن طريق روح بن القاسم. كلاهما عن ابن خثيم. وأخرجه أبو داود مختصرا من وجه آخر عن قرة عن الزهري عن عروة عن عائشة. ونقله البخاري قال قال أحمد بن شبيب : حدثنا أبى عن يونس عن الزهري به : قلت ووصله ابن مردويه من طريق أحمد بن شبيب.

فأنت حر «1». وعن سعيد بن المسيب مثله «2» ، ثم رجع وقال : لا تغرنكم آية النور ، فإن المراد بها الإماء «3». وهذا هو الصحيح ، لأن عبد المرأة بمنزلة الأجنبى منها ، خصيا كان أو فحلا. وعن ميسون بنت بحدل الكلابية : أن معاوية دخل عليها ومعه خصى ، فتقنعت منه ، فقال : هو خصىّ فقالت : يا معاوية ، أترى أن المثلة به تحلل ما حرّم اللّه «4»؟ وعند أبى حنيفة : لا يحل استخدام الخصيان وإمساكهم وبيعهم وشراؤهم ، ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم. فإن قلت : روى أنه أهدى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خصىّ فقبله. قلت: لا يقبل فيما تعم به البلوى إلا حديث مكشوف ، فإن صح فلعله قبله ليعتقه «5» ، أو لسبب من الأسباب. الْإِرْبَةِ الحاجة ، قيل : هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ، ولا حاجة لهم إلى النساء ، لأنهم بله لا يعرفون شيئا من أمرهن. أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم ، أو بهم عنانة. وقرئ غَيْرِ بالنصب على الاستثناء أو الحال ، والجرّ على الوصفية. وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس. ويبين ما بعده أن المراد به الجمع. ونحوه نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا. لَمْ يَظْهَرُوا إما من ظهر على الشيء إذا اطلع عليه ، أى : لا يعرفون ما العورة ولا يميزون بينها وبين غيرها. وإما من ظهر على فلان إذا قوى عليه ، وظهر على القرآن : أخذه وأطاقه ، أى: لم يبلغوا أو ان القدرة على الوطء. وقرئ : عورات ، وهي لغة هذيل. فإن قلت : لم لم يذكر اللّه الأعمام والأخوال؟

(1). هذا ملفق من أثرين ، الأول : أخرجه البيهقي من طريق عمرو بن ميمون عن سليمان بن يسار قال استأذنت على عائشة فقالت : سليمان؟ ادخل. فإنك عبد ما بقي عليك درهم وعلقه البخاري عن سليمان والثاني أخرجه ابن سعد من رواية محمد بن على بن الحسين «أن عائشة رضى اللّه عنها قالت : إذا كفنت ودفنت وحنطت ودلانى ذكوان في حفرتي فهو حر» وأخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج. أخبرنى ابن أبى مليكة أن عائشة رضى اللّه عنها قالت «إذا غيبنى أبو عمرو ودلانى في حفرتي فهو حر».

(2). لم أره

(3). أخرجه ابن أبى شيبة من رواية طارق عن سعيد بن المسيب «لا تغرنكم الآية : إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إنما عنى الإماء دون العبيد»

(4). لم أجده قلت : ذكره المسعودي في مروج الذهب بغير إسناد.

تنبيه : وقع في الكشاف الكلابية. والصواب الكلبية بسكون اللام. والقصة ذكرها غيره ببنت قرظة.

(5). أخرجه ابن سعد أخبرنا محمد بن عمر ، حدثنا يعقوب بن أبى صعصعة عن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة قال «أهدى المقوقس صاحب الاسكندرية إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم سنة سبع من الهجرة. مارية وأختها سيرين ، وألف مثقال ذهب وعشرين ثوبا وبغلة. وحماره عفيرا وخصيا يقال له ما بود. فعرض حاطب على مارية الإسلام فأسلمت هي وأختها ثم أسلم الخصى بعد» وقع ذكر الخصى هذا في عدة أحاديث منها حديث على رضى اللّه عنه.

وقوله «هذا ضعيف ، ولا يقبل فيما تعم به البلوى ، إلا حديث مكشوف إن صح. ولعله قبله ليعتقه» اه. وليس هذا فيما تعم به البلوى في شيء. [.....]

قلت : سئل الشعبي عن ذلك؟ فقال : لئلا يصفها العم عند ابنه ، والخال كذلك. ومعناه : أن سائر القرابات يشترك الأب والابن في المحرمية «1» إلا العم والخال وأبناءهما. فإذا رآها الأب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم ، فيدانى تصوّره لها بالوصف نظره إليها ، وهذا أيضا من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر. كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعقع خلخالها ، فيعلم أنها ذات خلخال. وقيل : كانت تضرب بإحدى رجليها الأخرى ليعلم أنها ذات خلخالين. وإذا نهين عن إظهار صوت الحلي بعد ما نهين عن إظهار الحلي ، علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحلي أبلغ وأبلغ. أوامر اللّه ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها. وإن ضبط نفسه واجتهد ، ولا يخلو من تقصير يقع منه ، فلذلك وصى المؤمنين جميعا بالتوبة والاستغفار ، وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية ، لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة فإن قلت : قد صحت التوبة بالإسلام ، والإسلام يجب ما قبله ، فما معنى هذه التوبة؟ قلت : أراد بها ما يقوله العلماء : إن من أذنب ذنبا ثم تاب عنه ، يلزمه كلما تذكره أن يجدد عنه التوبة ، لأنه يلزمه أن يستمرّ على ندمه وعزمه إلى أن يلقى ربه. وقرئ : أيه المؤمنون ، بضم الهاء ، ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف ، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها.

[سورة النور (24) : آية 32]

وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ(32)
الْأَيامى واليتامى : أصلهما أيائم ويتائم ، فقلبا. والأيم : للرجل والمرأة. وقد آم وآمت وتأيما : إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثيبين. قال : فإن تنكحى أنكح وإن تتأيّمى وإن كنت أفتي منكم أتأيّم «2»
وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «3». «اللهم إنا نعوذ بك من العيمة والغيمة والأيمة والكزم والقرم «4»»، والمراد : أنكحوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر ، ومن كان فيه صلاح من غلمانكم وجواريكم.

(1). قوله «يشترك الأب والابن في المحرمية» الرابط محذوف ، أى : يشترك بها الأب ... الخ. (ع)
(2). آم الرجل - بالمد - والمرأة. وتأيما : إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، يقول لمحبوبته ، إن تتزوجي أتزوج وإن لم تتزوجي لم أتزوج. وجملة «و إن كنت أفتى منكم» اعتراضية. والأفتى الأكثر فتية وشبابا. وعبر بضمير جمع الذكور للتعظيم ، ورفع المضارع في جواب الشرط كما هنا قليل ، ولعله ارتكبه لأجل القافية.
(3). لم أجده
(4). قوله «من العيمة والغيمة والأيمة والكزم والقرم» في الصحاح «العيمة» شهوة اللبن. وفيه : «الغيم» العطش وحر الجوف اه وهو يفيد أن «الغيمة» المرة من ذلك. وفيه «الأيامى» الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء. وآمت المرأة من زوجها تئيم أيمة. وفيه : كزم الشيء بمقدم فيه ، أى : كسره واستخرج ما فيه. وفيه :
قرم الصبى والبهم قرما ، وهو أكل ضعيف في أول ما يأكل. والقرم - بالتحريك - : شدة شهوة اللحم اه. ويروى في الحديث «القذم» بالذال بدل الراء. وفي الصحاح : القذم على وزن الهجف : الشديد. وفيه أيضا : الهجف من النعام ومن الناس. الجافي الثقيل. قال الكميت :
هو الأضبط الهواس فينا شجاعة وفيمن يعاديه الهجف المثقل
ولا يستقيم الوزن إلا بتشديد الفاء. وفيه «الهواس» : الأسد (ع)

وقرئ : من عبيدكم. وهذا الأمر للندب لما علم من أنّ النكاح أمر مندوب إليه «1» ، وقد يكون الوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك ، وعند أصحاب الظواهر : النكاح واجب. ومما يدل على كونه مندوبا إليه قوله صلى اللّه عليه وسلم : «من أحب فطرتي فليستنّ بسنتي وهي النكاح» «2» وعنه عليه الصلاة والسلام «من كان له ما يتزوّج به فلم يتزوج فليس منا» «3». وعنه عليه الصلاة والسلام «إذا تزوّج أحدكم عج «4» شيطانه : يا ويله ، عصم ابن آدم منى ثلثي «5» دينه» وعنه عليه الصلاة والسلام : «يا عياض لا تزوّجن عجوزا ولا عاقرا ، فإنى مكاثر «6»» والأحاديث فيه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم والآثار كثيرة ، وربما كان واجب الترك إذا أدّى إلى معصية أو مفسدة.

(1). قال محمود : «هذا أمر والمراد به الندب ، ثم ذكر أحاديث تدل على ذلك ، وأدرج فيها قوله عليه الصلاة والسلام : من وجد نكاحا فلم ينكح فليس منا» قال أحمد : وهذا بأن يدل على الوجوب أولى ، ولكن قد ورد مثله في ترك السنن كثيرا ، وكأن المراد : من لم يستن بسنتنا ، على أنه قد ورد في الواجب كقوله «من غشنا فليس منا» ومجانبة الغش واجبة «و من شهر السلاح في فتنة فليس منا» ومثله كثير
(2). أخرجه عبد الرزاق من رواية عبيد بن سعيد قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ... فذكره مرسلا وأخرجه أبو يعلى من هذا الوجه فكأنه ظن أن عبيد بن سعيد له صحبة. ولابن عدى من رواية أبى حرة واصل ابن عبد الرحمن عن الحسن عن أبى هريرة بلفظ «من أحب فطرتي فليتبعن سنتي وإن من سنتي النكاح»

(3). أخرجه أبو داود في المراسيل وأحمد وإسحاق والدارمي والطبراني وعبد الرزاق وابن أبى شيبة كلهم من رواية أبى المفلس عن أبى نجيح رفعه «من كان موسرا لأن ينكح فلم ينكح فليس منا» وأخرجه الثعلبي من هذا الوجه ، بلفظ المصنف ، قال ابن راهويه : رواه بعضهم عن ابن جريج عن أبى المفلس عن أبى نجيح عمرو بن عبسة قال.
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو غلط. وليس أبو نجيح هذا عمرو بن عبسة. وقد رواه الحارث بن أبى أسامه في مسنده عن الحكم بن موسى عن الوليد بن مسلم عن ابن جريج حدثني أبو المفلس سمعت أبا نجيح السلمي يقول :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ... فذكر نحوه.
(4). قوله «عج شيطانه» أى : صاح. (ع)
(5). أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط. والثعلبي من رواية صالح مولى التوأمة عن جابر. وعن بعضهم عن أبى هريرة بدل جابر وفي إسناده خالد بن إسماعيل المخزومي وهو متروك
(6). أخرجه الحاكم والثعلبي من رواية معاوية بن يحيى عن يحيى بن جابر عن جبير بن معمر عن عياض بن غنم الأشعرى ومعاوية ضعيف ، وقوله : والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم والآثار كثيرة اه. فمنها حديث أنس رضى الله عنه في الصحيحين «أن أناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله في السر فقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أتزوج النساء ... الحديث» وفيه «لكنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منى» ومنها حديث ابن مسعود رضى الله عنه «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» متفق عليه وقد تقدم في المائدة. وحديث أنس رضى الله عنه : «كان يأمر بالباءة وينهى عن التبتل» وأخرجه ابن حبان وحديث «تزوجوا توالدوا وتناسلوا فانى مباه بكم الأمم» له طرق في السنن وغيرها. وحديث عطية بن بشر في قصة عكاف بن وداعة الهلالي في الحضّ على التزويج. وفيه «إن شراركم عزابكم» رواه إسحاق في مسنده أخبرنا نضية عن معاوية بن يحيى الصدفي أنه حدثه عن سليمان بن موسى عن مكحول عن غضيف بن الحارث عن عطية بن بشر بطوله. رواه الطبراني في مسند الشاميين من رواية ابن عتبة عن برد بن سنان عن مكحول عن عطية بن بشر لم يذكر غضيف وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق عن محمد بن راشد عن مكحول عن أبى ذر فذكر نحوه ومنها حديث أنس رضى الله عنه «من تزوج فقد استكمل نصف الايمان فليتق الله في النصف الثاني» أخرجه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جدا وسيأتى باقيها بعد.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أتى على أمتى مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة والترهب على رؤس الجبال «1»» وفي الحديث «يأتى على الناس زمان لا تنال المعيشة فيه إلا بالمعصية ، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة «2»» فإن قلت : لم خص الصالحين؟ قلت : ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم ، ولأنّ الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم وينزلونهم منزلة الأولاد في الأثرة والمودّة ، فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم. وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك. أو أريد بالصلاح : القيام بحقوق النكاح. ينبغي أن تكون شريطة الله غير منسية في هذا الموعد ونظائره وهي مشيئته «3» ،

---

(1). أخرجه البيهقي والثعلبي من حديث ابن مسعود. وفي إسناده سليمان بن عيسى الخراساني وهو كذاب.
ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات ، لكن له طريق أخرى. أخرجه على بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية عن الحسن بن واقد الحنفي. قال : أظنه من حديث بهز بن حكيم فذكره وهو متصل.
(2). أخرجه على بن معبد في الطاعة والمعصية حدثنا عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يأتى على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق ، ومن حجر إلى حجر ، فإذا كان ذلك حلت العزوبة. قيل كيف تحل العزوبة - فذكر حديثا طويلا» وصله الخطابي في العزلة من طريق السعرى بن يحيى عن الحسن عن أبى الأحوص عن عبد الله. وفي إسناده محمد بن يونس الكديمي وهو ضعيف.
(3). عاد كلامه. قال : «ينبغي أن تكون شريطة الحكمة والمصلحة غير منسية : واستشهد على ذلك بقوله وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ قال أحمد : جنوحه للمعتقد الفاسد يمنع عليه الصواب ، فان معتقده وجوب رعاية المصالح على الله تعالى ، فمن ثم شرط الحكمة والمصلحة محجرا واسعا من فضل الله تعالى ، ثم استشهد على ذلك بما يشهد عليه لا له ، فان قوله تعالى في الآية الأخرى إِنْ شاءَ يقتضى أن وقوع الغنى مشروط بالمشيئة خاصة ، وهذا معتقد أهل الحق ، فطاح اشتراط الحكمة عن محل الاستدلال ، تعالى عن الإيجاب رب الأرباب ، لكن ينبغي التنبه لنكتة تدعو الحاجة إلى التنبيه عليها ، ليعم نفعها ويعظم وقعها إن شاء الله. وذلك أنا إذا بنينا على أن ثم شرطا محذوفا ، لا بد من تقديره ضرورة صدق الخبر ، إذ لو اعتقدنا أن الله تعالى يغنى كل متزوج على الإطلاق مع أنا نشاهد كثيرا ممن استمر به الفقر بعد النكاح بل زاد ، للزم خلف الوعد - تقدس الله وتعالى عن ذلك - فقد ثبت الاضطرار إلى تقدير شرط للجمع بين الوعد والواقع ، فالقدرية يقولون : المراد إن اقتضت الحكمة ذلك ، فكل من لم يغنه الله بأثر التزوج فهو ممن لم تقتض الحكمة إغناءه. وقد أبطلنا أن يكون هذا الشرط هو المقدر ، وحتمنا أن المقدر شرط المشيئة كما ظهر في الآية الأخرى ، وحينئذ فكل من يستغن بالنكاح فذلك لأن الله تعالى لم يشأ غناه. فلقائل أن يقول : إذا كانت المشيئة هي المعتبرة في غنى المتزوج ، فهي أيضا المعتبرة في غنى الأعزب ، فما وجه ربط وعد الغنى بالنكاح ، مع أن حال الناكح منقسم في الغنى على حسب المشيئة ، فمن مستغن به ، ومن فقير كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم ، وليس هذا كاقرار شرط المشيئة في الغفران للموحد العاصي ، فان الوعد ثم له ارتباط بالتوحيد.
وإن ارتبط بالمشيئة أيضا ، من حيث أن غير الموحد لا يغفر الله له حتما ، ولا تستطيع أن تقول : وغير الناكح لا يغنيه الله حتما ، لأن الواقع يأباه. فالجواب - وبالله التوفيق - : أن فائدة ربطه الغنى بالنكاح : أنه قد ركز في الطباع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها ، والغفلة عن المسبب جل وعلا ، حتى غلب الوهم على العقل ، فخيل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتما ، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزما ، وإن كان واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به. فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع بالايذان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينميه ، مع كثرة العيال التي هي سبب في الأوهام لنفاد المال ، وقد يقدر الاملاق مع عدمه الذي هو سبب في الإكثار عند الأوهام والواقع يشهد بذلك فلا مراء ، فدل ذلك قطعا على أن الأسباب التي يتوهمها البشر مرتبطات بمسبباتها ارتباطا لا ينفك ليست على ما يزعمونه ، وإنما يقدر الغنى والفقر مسبب الأسباب ، غير موقوف ، تقدير ذاك إلا على مشيئة خاصة ، وحينئذ لا ينفر العاقل المتيقظ من النكاح ، لأنه استقر عنده أن لا أثر له في الإقتار ، وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إغنائه ولا يؤثر أيضا

الآية أن النكاح لا يمنعهم الغنى من فضل اللّه ، فعبر عن نفى كونه مانعا من الغنى بوجوده معه ، ولا تبطل المانعية ، لا وجود ما يتوهم ممنوعا مع ما يتوهم مانعا ولو في صورة من الصور على أثر ذلك ، فمن هذا الوادي أمثال قوله تعالى فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ فان ظاهر الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة ، وليس ذلك بمراد حقيقة ، ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة ، وبيان أن الصلاة متى قضيت فلا مانع ، فعبر عن نفى المانع بالانتشار بما يفهم تقاضى الانتشار ، مبالغة في تحقيق المعنى عند السامع واللّه أعلم ، فتأمل هذا الفصل واتخذه عضدا حيث الحاجة إليه.

ولا يشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة «1» ، ونحوه : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وقد جاءت الشريطة منصوصة في قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ومن لم ينس هذه الشريطة لم ينتصب معترضا بعزب كان غنيا فأفقره النكاح ، وبفاسق تاب واتقى اللّه وكان له شيء ففنى وأصبح مسكينا.

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «التمسوا الرزق بالنكاح «2»»

(1). قوله «إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة» كأنه مبنى على أنه تعالى يجب عليه فعل الصلاح ، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة : لا يجب على اللّه شيء. (ع) [.....]
(2). أخرجه الثعلبي من رواية مسلم بن خالد وابن مردويه من رواية أبى السائب سلام بن جنادة عن أبى أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعا «تزوجوا النساء فإنهن يأتين بالمال» قال الحاكم تفرد به سلام وهو ثقة : وقال البزاز والدارقطني وغير سلام يرويه مرسلا اه. وهو كما قال. وقد أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى أسامة - فلم يذكر عائشة. وكذلك أخرجه أبو داود في المراسيل عن ابن التوأمة عن أبى أسامة وأخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف في تاريخ جرجان من رواية الحسين بن علوان عن هشام موصولا. والحسين متهم بالكذب «تنبيه» ظن المخرج أن هذا يرد على كلام البزار والدارقطني. وليس كما ظن لأنه قال قد تابعه عبد المؤمن العطار وقال أيضا تابعه عبد اللّه بن ناجية فأما الأول فالمتابع إنما هو الحسين شيخ عبد المؤمن وقد قلنا إنه لا يسوى شيئا. وأما الثاني فإنما رواه ابن ناجية عن أبى السائب نفسه فظهر تفرد أبى السائب بوصله من بين الثقات. وأما الحسين بن علوان فلا تفيد متابعته شيئا لوهنه.

وشكا إليه رجل الحاجة فقال «1» : «عليك بالباءة «2»» وعن عمر رضى اللّه عنه : عجبت لمن لا يطلب الغنى بالباءة «3». ولقد كان عندنا رجل رازح الحال ، ثم رأيته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت ، فسألته؟ فقال : كنت في أول أمرى على ما علمت ، وذلك قبل أن أرزق ولدا ، فلما رزقت بكر ولدى تراخيت عن الفقر ، فلما ولد لى الثاني زدت خيرا ، فلما تتاموا ثلاثة صبّ اللّه علىّ الخير صبا ، فأصبحت إلى ما ترى وَاللَّهُ واسِعٌ أى غنىّ ذو سعة لا يرزؤه «4» إغناء الخلائق ، ولكنه عَلِيمٌ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

[سورة النور (24) : آية 33]

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33)

وَلْيَسْتَعْفِفِ وليجتهد في العفة وظلف النفس «5» ، كأن المستعف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه لا يَجِدُونَ نِكاحاً أى استطاعة تزوج. ويجوز أن يراد بالنكاح : ما ينكح به من المال حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى ،

(1). أخرجه الثعلبي من رواية الدارقطني عن أبى عجلان «أن رجلا أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فشكى إليه الحاجة. الحديث».
(2). قوله «فقال عليك بالباءة» في الصحاح سمى النكاح باء وباءة ، لأن الرجل يتبوأ من أهله ، أى : يستمكن منها كما يتبوأ من داره، وفيه أيضا «الرازح من الإبل» الهالك هزالا اه ، فان كان مختصا بالإبل فقد يتوسع فيه إلى غيرها. (ع)
(3). رواه هشام بن حسان عن الحسن عن عمر نحوه.
(4). قوله «لا يرزؤه» أى : لا ينقصه. (ع)
(5). قوله «و ظلف النفس» في الصحاح : ظلف نفسه عن الشيء ، أى : منعها. وظلفت نفسي عن كذا بالكسر - : أى كفت. (ع)

ليكون انتظار ذلك وتأميله لطفا لهم في استعفافهم ، وربطا على قلوبهم ، وليظهر بذلك أن فضله أولى بالإعفاء وأدنى من الصلحاء. وما أحسن ما رتب هذه الأوامر : حيث أمر أولا بما يعصم من الفتنة ويبعد من مواقعة المعصية وهو غض البصر ، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها «1» عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ مرفوع على الابتداء. أو منصوب بفعل مضمر يفسره فَكاتِبُوهُمْ كقولك : زيدا

وإن كاتبه على وصيف «2» ، جاز ، لقلة الجهالة ووجب الوسط ، وليس له أن يطأ المكاتبة ، وإذا أدى عتق ، وكان ولاؤه لمولاه ، لأنه جاد عليه بالكسب الذي هو في الأصل له ، وهذا الأمر للندب عند عامة العلماء. وعن الحسن رضى اللّه عنه : ليس ذلك بعزم ، إن شاء كاتب وإن شاء لم يكاتب. وعن عمر رضى الله عنه : هي عزمة من عزمات اللّه. وعن ابن سيرين مثله وهو مذهب داود خَيْراً قدرة على أداء ما يفارقون عليه. وقيل : أمانة وتكسبا. وعن سلمان رضى الله عنه أن مملوكا له ابتغى أن يكاتبه فقال : أعندك مال؟ قال : لا ، قال : أفتأمرنى أن آكل غسالة أيدى الناس وَآتُوهُمْ أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل اللّه لهم من بيت المال ، كقوله تعالى وَفِي الرِّقابِ عند أبى حنيفة وأصحابه رضى اللّه عنهم. فإن قلت: هل يحل لمولاه إذا كان غنيا أن يأخذ ما تصدق به عليه؟

(1). قوله «و عزفها عن الطموح إلى الشهوة» في الصحاح : عزفت نفسي عن الشيء : زهدت فيه وانصرفت عنه. (ع)
(2). قوله «على وصيف» الوصيف : الخادم ، غلاما كان أو جارية ، كذا في الصحاح. (ع)

قلت. نعم. وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع البدل وعجز عن أداء الباقي طاب للمولى ما أخذه ، لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة ، ولكن بسبب عقد المكاتبة كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها أو وهبت له ، ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم في حديث بريرة «هو لها صدقة ولنا هدية» «1» وعند الشافعي رضى اللّه عنه : هو إيجاب على الموالي أن يحطوا لهم من مال الكتابة. وإن لم يفعلوا أجبروا. وعن على رضى اللّه عنه : يحط له الربع. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : يرضخ له من كتابته شيئا. وعن عمر رضى اللّه عنه أنه كاتب عبدا له يكنى أبا أمية ، وهو أوّل عبد كوتب في الإسلام ، فأتاه بأوّل نجم فدفعه إليه عمر رضى اللّه عنه وقال : استعن به على مكاتبتك فقال : لو أخرته إلى آخر نجم؟ قال : أخاف أن لا أدرك ذلك «2». وهذا عند أبى حنيفة رضى اللّه عنه على وجه الندب وقال : إنه عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع. وقيل : معنى وَآتُوهُمْ : أسلفوهم. وقيل : أنفقوا عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا.

وهذا كله مستحب. وروى أنه كان لحويطب بن عبد العزى مملوك يقال له الصبيح : سأل مولاه أن يكاتبه فأبى ، فنزلت. كانت إماء أهل الجاهلية يساعين على مواليهن ، وكان لعبد اللّه بن أبىّ رأس النفاق ست جوار : معاذة ، ومسيكة ، وأميمة ، وعمرة ، وأروى ، وقتيلة : يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم». فنزلت. ويكنى بالفتى والفتاة : عن العبد والأمة. وفي الحديث : «ليقل أحدكم فتاي وفتأتي ، ولا يقل عبدى وأمتى» «4» والبغاء : مصدر البغي. فإن قلت : لم أقحم قوله إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً قلت : لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن ، وآمر الطيعة الموانية للبغاء لا يسمى مكرها ولا أمره إكراها «5».

(1). متفق عليه من حديث عائشة رضى اللّه عنها في أثناء حديث في قصة بريرة وعتقها.
(2). أخرجه ابن أبى شيبة من طريق عكرمة عن ابن عباس إلا قوله «و هو أول عبد كوتب في الإسلام» ذكره في آخره من قول عكرمة. وزاد ثم قرأ وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ ورواه ابن أبى حاتم من طريق وكيع شيخ ابن أبى شيبة كذلك.
(3). أخرجه الثعلبي من طريق مقاتل بهذا وسنده إلى مقاتل في أول الكتاب وهو عند مسلم والبزار مختصر من طريق الأعمش عن أبى سفيان عن جابر. قال «كان لعبد اللّه بن أبىّ جارية يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة وكان يريدهما على الزنى ... الحديث»
(4). تقدم في الكهف.
(5). قال محمود : «إن قلت : لم أقحم قوله إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً؟ قلت : لأن الإكراه لا يكون إلا إذا أردن تحصنا ولا يتصور إلا كذلك ، إذ لولا ذلك لكن مطاوعات» ولم يجب بما بشفى العليل. وعند العبد الفقير إلى اللّه تعالى أن فائدة ذلك - واللّه أعلم : أن يبشع عند المخاطب الوقوع فيه ، لكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة وإن لم يكن زاجر شرعي. ووجه التبشيع عليها : أن مضمون الآية النداء عليه بأن أمته خير منه ، لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة ، وهو يأبى إلا إكراهها عليها. ولو أبرز مكنون هذا المعنى لم يقع الزاجر من النفس موقعه ، وعسى هذه الآية تأخذ بالنفوس الدنية ، فكيف بالنفوس العربية ، واللّه الموفق.

وكلمة إنْ وإيثارها على «إذا» إيذان بأن المساعيات كنّ يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن ، وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حين الشاذ النادر غَفُورٌ رَحِيمٌ لهم أو لهن. أو لهم ولهنّ إن تابوا وأصلحوا. وفي قراءة ابن عباس : لهن غفور رحيم. فإن قلت : لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهنّ ، لأن المكرهة على الزنى بخلاف المكره عليه في أنها غير آثمة. قلت : لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل ، أو بما يخاف منه التلف أو ذهاب العضو ، من ضرب عنيف أو غيره حتى تسلم من الإثم ، وربما قصرت عن الحدّ الذي تعذر فيه فتكون آثمة.

[سورة النور (24) : آية 34]

وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (34)

مُبَيِّناتٍ هي الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت في معاني الأحكام والحدود. ويجوز أن يكون الأصل مبينا فيها فاتسع في الظرف. وقرئ بالكسر ، أى : بينت هي الأحكام والحدود ، جعل الفعل لها على المجاز. أو من «بين» بمعنى تبين. ومنه المثل قد بين الصبح لذي عينين. وَمَثَلًا مِنَ أمثال من قَبْلِكُمْ أى قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم ، يعنى قصة عائشة رضى الله عنها وَمَوْعِظَةً ما وعظ به في الآيات والمثل ، من نحو قوله وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ، لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ، وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ : يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً.

[سورة النور (24) : آية 35]

اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)

نظير قوله اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مع قوله مَثَلُ نُورِهِ ، ويَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ : قولك : زيد كرم وجود ، ثم تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده. والمعنى : ذو نور السماوات ، وصاحب نور السماوات ، ونور السماوات والأرض الحق ، شبهه بالنور في ظهوره وبيانه ، كقوله تعالى اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ : أى من الباطل إلى الحق.

وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين : إما للدلالة على سعة إشراقه وفشوّ إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض. وإما أن يراد أهل السماوات والأرض وأنهم يستضيئون به مَثَلُ نُورِهِ أى صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة كَمِشْكاةٍ كصفة مشكاة وهي الكوّة في الجدار غير النافذة فِيها مِصْباحٌ سراج ضخم ثاقب فِي زُجاجَةٍ أراد قنديلا من زجاج شامي «1» أزهر. شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير ، كالمشترى والزهرة والمرّيخ وسهيل ونحوها يُوقَدُ هذا المصباح مِنْ شَجَرَةٍ أى ابتدأ ثقوبه من شجرة الزيتون ، يعنى : زويت ذبالته «2» بزيتها مُبارَكَةٍ كثيرة المنافع. أو : لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل : بارك فيها سبعون نبيا ، منهم إبراهيم عليه السلام. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به ، فإنه مصحة من الباسور «3»» لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ أى منبتها الشام. وأجود الزيتون : زيتون الشام. وقيل : لا في مضحى ولا مقنأة ، «4» ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها ، وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا خير في شجرة في مقنأة ، ولا نبات في مقنأة ، ولا خير فيهما في مضحى» «5» وقيل : ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط ، بل تصيبها بالغداة والعشى جميعا ، فهي شرقية وغربية ، ثم وصف الزيت بالصفاء والوبيص ، «6» وأنه لتلألئه يَكادُ يضيء من غير نار نُورٌ عَلى نُورٍ أى هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت ، حتى لم تبق مما يقوى النور ويزيده إشراقا ويمدّه بإضاءة : بقية ، وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع فإنّ الضوء ينبث فيه وينتشر ، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وصفاؤه يَهْدِي اللَّهُ لهذا النور الثاقب مَنْ يَشاءُ من عباده ، أى : يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والإنصاف من نفسه ،

(1). قوله «شامي» نعت لزجاج ، ويوضحه قوله «أزهر» وعبارة النسفي : شامي بكسر الزاى ، أى قرأ الشامي : زجاجة ، بكسر الزاى. (ع) [.....]
(2). قوله «يعنى زويت ذبالته بزيتها» في الصحاح : زويت الشيء : جمعته وقبضته. وانزوت الجلدة في النار ، أى : اجتمعت وتقبضت. وفيه «الذبالة» الفتيلة ، ولعله «رويت» بالراء» كما في عبارة النسفي.
(3). أخرجه الطبراني وابن أبى حاتم في العلل وأبو نعيم في الطب والثعلبي كلهم من طريق عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب عن أبى الخير عن عتبة بن عامر بهذا
(4). قوله «و لا مقنأة» في الصحاح «المقأة» المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.
(5). لم أجده
(6). قوله «و الوبيص» البريق واللمعان ، أفاده الصحاح. (ع)

ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يمينا وشمالا. ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس. وعن علىّ رضى الله عنه : «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ» أى نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره. أو نور قلوب أهلها به ، وعن أبىّ بن كعب رضى الله عنه : مثل نور من آمن به. وقرئ : زجاجة الزجاجة ، بالفتح والكسر : ودرّىّ : منسوب إلى الدرّ أى ، أبيض متلألأ. ودرّىء : بوزن سكيت : يدرأ الظلام بضوئه.

ودريء كمريق. ودرى كالسكينة ، عن أبى زيد. وتوقد : بمعنى تتوقد. والفعل للزجاجة. ويوقد ، وتوقد ، بالتخفيف. ويوقد ، بالتشديد. ويوقد بحذف التاء وفتح الياء ، لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب. ويمسه بالياء ، لأن التأنيث ليس بحقيقى ، والضمير فاصل.

[سورة النور (24) : الآيات 36 إلى 38]

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (36) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (38)

فِي بُيُوتٍ يتعلق بما قبله ، أى ، كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد ، كأنه قيل : مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت. أو بما بعده ، وهو يسبح ، أى : يسبح له رجال في بيوت. وفيها تكرير ، كقولك : زيد في الدار جالس فيها. أو بمحذوف ، كقوله فِي تِسْعِ آياتٍ أى سبحوا في بيوت. والمراد بالإذن : الأمر. ورفعها : بناؤها ، كقوله بَناها. رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هي المساجد ، أمر الله أن تبنى. أو تعظيمها والرفع من قدرها. وعن الحسن رضى الله عنه : ما أمر الله أن ترفع بالبناء ، ولكن بالتعظيم وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ أوفق له ، وهو عام في كل ذكر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : وأن يتلى فيها كتابه. وقرئ : يسبح ، على البناء للمفعول ، ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة ، أعنى : لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ ، ورجالٌ مرفوع بما دلّ عليه يُسَبِّحُ وهو يسبح له. وتسبح ، بالتاء وكسر الباء. وعن أبى جعفر رضى الله عنه بالتاء وفتح الباء. ووجهها أن يسند إلى أوقات الغدوّ والآصال على زيادة الباء ، وتجعل الأوقات مسبحة. والمراد ربها ، كصيد عليه يومان. والمراد وحشهما. والآصال : جمع أصل وهو العشى.

والمعنى : بأوقات الغدوّ ، أى : بالغدوات. وقرئ : والإيصال ، وهو الدخول في الأصيل.

يقال : آصل ، كأظهر وأعتم. التجارة : صناعة التاجر ، وهو الذي يبيع ويشترى للربح ، فإما أن يريد : لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة ، ثم خص البيع لأنه في الإلهاء أدخل ، من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته : ألهته ما لا يلهيه شراء شيء يتوقع فيه الربح في الوقت الثاني ، لأن هذا يقين وذاك مظنون. وإمّا أن يسمى الشراء تجارة ، إطلاقا لاسم الجنس على النوع ، كما تقول : رزق فلان تجارة رابحة إذا اتجه له بيع صالح أو شراء. وقيل : التجارة لأهل الجلب ، اتجر فلان في كذا : إذا جلبه. التاء في إقامة ، عوض من العين الساقطة للإعلال. والأصل : إقوام» فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض ، فأسقطت. ونحوه : وأخلفوك عد الأمر الّذى وعدوا «1» وتقلب القلوب والأبصار : إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها : وهو أن تضطرب من الهول والفزع وتشخص ، كقوله وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ. وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها لا تفقه ، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عميا لا تبصر أَحْسَنَ ما عَمِلُوا أى أحسن جزاء أعمالهم ، كقوله لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى والمعنى يسبحون ويخافون ، ليجزيهم ثوابهم مضاعفا ويزيدهم على الثواب تفضلا. وكذلك معنى قوله الْحُسْنى وَزِيادَةٌ

[سورة النور (24) : آية 39]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (39)

السراب : ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة. يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى. والقيعة: بمعنى القاع أو جمع قاع ، وهو المنبسط المستوى من الأرض ، كجيرة في جار. وقرئ : بقيعات : بتاء ممطوطة ، كديمات وقيمات ، في ديمة وقيمة. وقد جعل بعضهم بقيعاة بتاء مدورة ، كرجل عزهاة ، شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدّر ، بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء ، فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق ، وهم الذين قال الله فيهم عامِلَةٌ ناصِبَةٌ ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً وقيل : نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية ، قد كان تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ، ثم كفر في الإسلام.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 323 فراجعه إن شئت اه مصححه

[سورة النور (24) : آية 40]

أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (40)

اللجىّ : العميق الكثير الماء ، منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر. وفي أَخْرَجَ ضمير الواقع فيه لَمْ يَكَدْ يَراها مبالغة في لم يرها أى : لم يقرب أن يراها ، فضلا عن أن يراها. ومثله قول ذى الرمة : إذا غيّر النّأى المحبّين لم يكد رسيس الهوى من حبّ ميّة يبرح «1»

أى لم يقرب من البراح فما باله يبرح؟ شبه أعمالهم أولا في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئا ، ولم يكفه خيبة وكمدا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب ، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ، ولا يقتل ظمأه بالماء. وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة ، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب ، ثم قال : ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه ، فهو في ظلمة الباطل لا نور له.

وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات ، لأنّ الألطاف إنما تردف الإيمان والعمل. أو كونهما مترقبين. ألا ترى إلى قوله وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وقوله وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وقرئ : سحاب ظلمات ، على الإضافة. وسحاب ظلمات ، برفع سَحابٌ وتنوينه وجرّ كَظُلُماتٍ بدلا من ظُلُماتٌ الأولى.

[سورة النور (24) : الآيات 41 إلى 42]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42)

(1) إذا غير النأى المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح
فلا القرب يدنو من هواها ملالة ولا حبها أن تنزح الدار ينزح
لذي الرمة. والنأى : البعد. ويقال : رس وأرس ، إذا لزم. والرسيس : بقية المرض اللازمة داخل البدن.
ويبرح : يذهب ، أى : لم يقرب من البراح. وروى أنه لما قدم ذو الرمة الكوفة اعترض عليه ابن شبرمة في ذلك بأنه يدل على زوال رسيس الهوى ، فغيره ذو الرمة بقوله : لم أجد ، وقال ابن عتبة : حدثت أبى بذلك فقال:
أخطأ ابن شبرمة ، وأخطأ ذو الرمة في تغييره ، وإنما هو كقوله تعالى لَمْ يَكَدْ يَراها والملالة : السآمة. وتنزح : تبعد. وينزح : يزول.

صَافَّاتٍ يصففن أجنحتهنّ في الهواء. والضمير في عَلِمَ لكل أو للّه. وكذلك في صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ والصلاة : الدعاء. ولا يبعد أن يلهم اللّه الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

[سورة النور (24) : الآيات 43 إلى 44]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (44)

يُزْجِي يسوق. ومنه : البضاعة المزجاة : التي يزجيها كل أحد لا يرضاها. والسحاب يكون واحدا كالعماء ، وجمعا كالرباب «1». ومعنى تأليف الواحد : أنه يكون قزعا «2» فيضم بعضه إلى بعض. وجاز بينه وهو واحد ، لأنّ المعنى بين أجزائه ، كما قيل في قوله : ... بين الدّخول فحومل «3»

والركام : المتراكم بعضه فوق بعض. والودق : المطر مِنْ خِلالِهِ من فتوقه ومخارجه : جمع خلل ، كجبال في جبل. وقرئ : من خلله وَيُنَزِّلُ بالتشديد. ويكاد سنا : على الإدغام «4».

---

(1). قوله «كالرباب» في الصحاح : الرباب - بالفتح - سحاب أبيض. (ع)
(2). قوله «أن يكون قزعا» القزع : قطع من السحاب رقيقة ، الواحدة : قزعة. (ع)
(3) قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
لامرئ القيس مطلع معلقته ، وروى أنه راهق ولم يقل شعرا ، فقال أبوه : إنه ليس أبيض. وأمر اثنين من خاصته أن يخرجا به إلى مكان بعيد فيذبحاه هناك ، فلما أرادا ذبحه بكى وأنشأ البيت إلى آخر القصدة ، فرجعا به.
وقالا : هذا أشعر من على وجه الأرض : لقد وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر واستذكر وهي الحبيب والدار في نصف بيت. والسقط - مثلث - : طرف اللوى ، أى : المكان الملتوى المعوج. وهو هنا اسم مكان بعينه. وبين لا يضاف إلا لمتعدد المعنى ، أو معطوف عليه بالواو خاصة ، فالمعنى : بين أجزاء الدخول فحومل. أى فأجزاء حومل كلاهما اسم موضع ، ولعل «سقط اللوى» ممتد بينهما. ويجوز أن الفاء بمعنى الواو ، فيكون «سقط اللوى» بين هذين الموضعين ، وتكون استعارة الفاء هنا للدلالة على قرب ما بين الدخول وحومل.
(4). قوله «و يكاد سنا على الإدغام» لعل رسمه هكذا «يكاسنا» إلا أن يعتبر ما قبل الإدغام. (ع)

وبرقه : جمع برقة ، وهي المقدار من البرق ، كالغرفة واللقمة. وبرقه : بضمتين للإتباع. كما قيل في جمع فعلة: فعلات كظلمات. وسناء برقه : على المدّ المقصور ، بمعنى الضوء. والممدود : بمعنى العلو والارتفاع ، من قولك : سنىّ ، المرتفع. ويَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ على زيادة الباء ، كقوله وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ عن أبى جعفر المدني. وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره ، حيث ذكر تسبيح من في السماوات والأرض وكل ما يطير بين السماء والأرض ودعاؤهم له وابتهالهم إليه ، وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه ، وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته ، ويريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم ، ليعتبروا ويحذروا. ويعاقب بين الليل والنهار ، ويخالف بينهما بالطول والقصر. وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته. ودلائل منادية على صفاته ، لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر. فإن قلت : متى رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تسبيح من في السماوات ودعاءهم ، وتسبيح الطير ودعاءه ، وتنزيل المطر من جبال برد في السماء ، حتى قيل له : ألم تر؟ قلت : علمه من جهة إخبار اللّه إياه بذلك على طريق الوحى.

فإن قلت : ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة في قوله مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ ، مِنْ بَرَدٍ؟

قلت : الأولى لابتداء الغاية. والثانية للتبعيض. والثالثة للبيان. أو الأوليان للابتداء ، والآخرة للتبعيض. ومعناه : أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها ، وعلى الأوّل مفعول «ينزل» :
«من جبال». فإن قلت : ما معنى مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ؟ قلت : فيه معنيان. أحدهما : أن يخلق اللّه في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر. والثاني : أن يريد الكثرة بذكر الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من ذهب.

[سورة النور (24) : آية 45]

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45)

وقرئ : خالق كل دابة. ولما كان اسم الدابة موقعا على المميز وغير المميز ، غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه ، كأن الدواب كلهم مميزون. فمن ثمة قيل : فمنهم ، وقيل : من يمشى في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم. فإن قلت : لم نكر الماء في قوله مِنْ ماءٍ؟

قلت : لأنّ المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة. أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة ، فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس.

ونحوه قوله تعالى يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ. فإن قلت : فما باله معرّفا في قوله وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ؟ قلت : قصد ثمة معنى آخر : وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس «1» الذي هو جنس الماء ، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط. قالوا : خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء ، والجنّ من نار خلقها منه. وآدم من تراب خلقه منه. فإن قلت : لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب؟ قلت : قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع. فإن قلت : لم سمى الزحف على البطن مشيا؟ قلت : على سبيل الاستعارة ، كما قالوا في الأمر المستمرّ : قد مشى هذا الأمر. ويقال : فلان لا يتمشى له أمر.

ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة «2» ، والمشفر مكان الشفة. ونحو ذلك. أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين.

[سورة النور (24) : الآيات 46 إلى 47]

لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (46) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47)

وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا. أو إلى الفريق المتولى ، فمعناه على الأوّل : إعلام من الله بأنّ جميعهم منتف عنهم الإيمان لا الفريق المتولى وحده. وعلى الثاني : إعلام بأنّ الفريق المتولى لم يكن ما سبق لهم من الإيمان إيمانا ، إنما كان ادّعاء باللسان من غير مواطأة القلب ، لأنه لو كان صادرا عن صحة معتقد وطمأنينة نفس لم يتعقبه التولي والإعراض.

والتعريف في قوله بِالْمُؤْمِنِينَ دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت : وهم الثابتون المستقيمون على الإيمان ، الموصوفون في قوله تعالى إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا.

---

(1). قال محمود : «إن قلت لم نكر ماء هاهنا وعرفه في قوله وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ؟ قلت :
الغرض فيما نحن فيه أنه تعالى خلق كل دابة من نوع من الماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات بحسب اختلاف نطفها ، فمنها كذا ومنها كذا. ونحوه قوله يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ وأما آية «اقترب» فالغرض فيها أن أجناس الحيوانات كلها مخلوقة من هذا الجنس» قال أحمد : وتحرير الفرق أن المقصد في الأولى إظهار الآية بأن شيئا واحدا تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة ، ذكر تفصيلها في آية النور والرعد :
والمقصد في آية اقترب : أنه خلق الأشياء المتفقة في جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع ، فذكر معرفا ليشمل أنواعه المختلفة ، فالآية في الأول لإخراج المختلف من المتفق ، والله أعلم.
(2). قوله «مكان الجحفلة» في الصحاح : الجحفلة للحافر ، كالشفة للإنسان ، اه أى لذي الحافر. (ع)

[سورة النور (24) : الآيات 48 إلى 49]

وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ(49)

معنى إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ إلى رسول الله كقولك : أعجبنى زيد وكرمه ، تريد : كرم زيد.

ومنه قوله : غلّسنه قبل القطا وفرّطه «1»

أراد : قبل فرط القطا. روى : أنها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض ، فجعل اليهودىّ يجرّه إلى رسول اللّه ، والمنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمدا يحيف علينا. وروى أنّ المغيرة بن وائل كان بينه وبين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه خصومة في ماء وأرض ، فقال المغيرة : أمّا محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علىّ إِلَيْهِ صلة يأتوا ، لأنّ «أتى و«جاء» قد جاءا معدّيين بإلى ، أو يتصل بمذعنين لأنه في معنى مسرعين في الطاعة. وهذا أحسن لتقدّم صلته ودلالته على الاختصاص. والمعنى : أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المرّ والعدل البحت. يزورّون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق ، لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك ، لتأخذ لهم ما ذاب لهم في ذمّة الخصم «2».

[سورة النور (24) : آية 50]

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50)

(1) ومنهل من الفيافي أوسطه غلسنه قبل القطا وفرطه
في ظل أجاج المقيظ مغبطه
المنهل : الوادي ومسيل الماء. والفيافي : الصحارى ، جمع فيفاء. والظاهر أن أوسطه صفة منهل المجرور برب المحذوفة ، وهاؤه للسكت ، ولو جعلته بدل بعض والهاء ضمير المنهل : لزم جر المعرفة برب ، مع إمكان التخلص عنه إلا عند من جعل ضمير النكرة نكرة فلا محذور. ويروى : من الفلا في أوسطه. والفلا واحده فلاة ، أى : مفازة.
والرواية : غلسنه بالتشديد ، أى سرنه في وقت الغلس وهو ظلمة الفجر ، أو وردنه فيه. والفرط من القطا :
المتقدمات السابقات لغيرها ، جمع فارط ، كركع وراكع. وخصها لأنها أسرع الطير خروجا من أوكارها.
وأجاج المقيظ : شعاع الشمس يرى في شدة القيظ أى الحر كأنه يسير. وأجت النار : اشتعلت ، والحر : اشتد ، والظليم : أسرع وله حفيف ، والأمر : اختلط. وأجاج : صفة مبالغة منه. وأغبط الشيء فهو مغبط : دام واستمر فمغبطه الدائم الكثير منه. والمعنى : أنه يبتدئ السير قبل السابقات من القطا ، ويستمر عليه مع اشتداد الحر في ظل شعاع الشمس ، لا يظله إلا هو إن كان له ظل ، وهذا من المبالغة في النفي. ويجوز أنه اعتاده فصار عنده كالظل.
ويجوز أن المعنى : تحت كنفه وسترته وجاهه الشبيه بالظل. [.....]
(2). قوله «ما ذاب لهم في ذمة الخصم» في الصحاح : ذاب لي عليه من الحق كذا : إذا وجب وثبت. (ع)

ثم قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين ، أو مرتابين في أمر نبوّته ، أو خائفين الحيف في قضائه. ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله ، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتمّ لهم جحوده ، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فمن ثمة يأبون المحاكمة إليه.

[سورة النور (24) : آية 51]

إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(51)
وعن الحسن : قول المؤمنين ، بالرفع والنصب أقوى ، لأنّ أولى الاسمين بكونه اسما لكان.

أوغلهما في التعريف ، وأن يقولوا : أوغل ، لأنه لا سبيل عليه للتنكير ، بخلاف قول المؤمنين ، وكان هذا من قبيل كان في قوله ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا وقرئ ، ليحكم ، على البناء للمفعول. فإن قلت : إلام أسند يحكم؟ ولا بدّ له من فاعل. قلت : هو مسند إلى مصدره ، لأن معناه : ليفعل الحكم بينهم ، ومثله : جمع بينهما ، وألف بينهما.

ومثله لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ فيمن قرأ بَيْنَكُمْ منصوبا : أى وقع التقطع بينكم. وهذه القراءة مجاوبة لقوله دُعُوا.

[سورة النور (24) : آية 52]

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (52)

قرئ : ويتقه ، بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل. وبسكون الهاء. وبسكون القاف وكسر الهاء : شبه تقه بكتف فخفف ، كقوله : قالت سليمى اشتر لنا سويقا «1»

ولقد جمع الله في هذه الآية أسباب الفوز. وعن ابن عباس في تفسيرها وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ في فرائضه وَرَسُولَهُ في سننه وَيَخْشَ اللَّهَ على ما مضى من ذنوبه وَيَتَّقْهِ فيما يستقبل.

وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية.

---

(1) قالت سليمى اشتر لنا سويقا وهات خبز البرّ أو دقيقا
للعذافر الكندي. يقال : شار العسل ونحوه ، واشتاره : إذا اجتناه وأخذه من مكانه ، فقوله «اشتر» أمر من الاشتيار. ويحتمل أنه من الاشتراء ، وسكنت راؤه للضرورة ، أى : اطلب لنا سويقا. وهو ما تعمله العرب من الحنطة والشعير. وهات : بكسر التاء أمر للمذكر ، طلبت منه السويق للأدم ، وخيرته بين أن يأتى بخبز وبين أن يأتى بدقيق وهي تخبزه. ويروى : «و هات بر البخس أو دقيقا» والبخس : الأرض التي تنبت من غير سقى ، وفي بقية الرجز أنها طلبت منه لحما وخادما وصبغا لثيابها بالعصفر ، فقال :
يا سلم لو كنت لذا مطيقا ما كان عيشى عندكم ترنيقا
أى : مدة ترنيق الطائر ، أى : صف جناحيه في الهواء.

[سورة النور (24) : آية 53]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (53)

جهد يمينه : مستعار من جهد نفسه : إذا بلغ أقصى وسعها ، وذلك إذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدّتها ووكادتها. وعن ابن عباس رضى الله عنه : من قال بالله ، جهد يمينه. وأصل : أقسم جهد اليمين : أقسم يجهد اليمين جهدا، فحذف الفعل وقدّم المصدر فوضع موضعه مضافا إلى المفعول كقوله : فَضَرْبَ الرِّقابِ وحكم هذا المنصوب حكم الحال ، كأنه قال : جاهدين أيمانهم.

وطاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ خبر مبتدإ محذوف. أو مبتدأ محذوف الخبر ، أى : أمركم والذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب ، كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره ، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها. أو طاعتكم طاعة معروفة ، بأنها بالقول دون الفعل. أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة.

وقرأ اليزيدي : طاعة معروفة ، بالنصب على معنى : أطيعوا طاعة إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم ، وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم.

[سورة النور (24) : آية 54]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (54)

صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم. يريد : فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم ، فإنّ الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله وكلفه من أداء الرسالة ، فإذا أدّى فقد خرج عن عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان ، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه. وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى ، فالنفع والضرر عائدان إليكم ، وما الرسول إلا ناصح وهاد ، وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفع في قبولكم «1» ، ولا عليه ضرر في توليكم : والبلاغ : بمعنى التبليغ ، كالأداء : بمعنى التأدية. ومعنى المبين : كونه مقرونا بالآيات والمعجزات.

[سورة النور (24) : آية 55]

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (55)

(1). قوله «في قبولكم» عبارة النسفي : في قلوبكم : (ع)

الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن معه. ومنكم : للبيان ، كالتي في آخر سورة الفتح : وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ، ويورّثهم الأرض ، ويجعلهم فيها خلفاء ، كما فعل ببني إسرائيل ، حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة ، وأن يمكن الدين المرتضى وهو دين الإسلام. وتمكينه : تثبيته وتوطيده ، وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه ، وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه ، حتى قال رجل : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا تغبرون «1» إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة «2» ، فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا ، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم وفسقوا ، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكا ، ثم تصير بزيزى «3» : قطع سبيل ، وسفك دماء ، وأخذ أموال بغير حقها «4»» وقرئ : كما استخلف ، على البناء للمفعول وليبدلنهم : بالتشديد. فإن قلت : أين القسم الملتقى باللام والنون في لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ؟ قلت : هو محذوف تقديره : وعدهم الله ، وأقسم ليستخلفنهم. أو نزّل وعد الله في تحققه منزلة القسم ، فتلقى بما يتلقى به القسم ، كأنه قيل : أقسم الله ليستخلفنهم. فإن قلت : ما محل يَعْبُدُونَنِي؟

(1). قوله : «لا تغيرون إلا يسيرا» أى لا تبقون ، أفاده الصحاح. (ع)
(2). أخرجه الطبري من طريق أبى جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبى العالية في قوله تعالى وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ قال : مكث النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين خائفا يدعو إلى الله سرا وعلانية. ثم أمر بالهجرة إلى المدينة فمكث بها هو وأصحابه - إلى آخره» وصله الحاكم وابن مردويه دون أوله بذكر أبى بن كعب فيه. وأوله «لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار.
رمتهم العرب عن قوس واحدة لا يبيتون إلا بالسلاح ... الحديث».
(3). قوله «تصير بزيزى» في الصحاح : بزه ينزه بزا : سلبه. والاسم البزيزى مثل الخصيصى. (ع)
(4). لم أجده. وأوله في السنن وابن ماجة والحاكم وأحمد والطبراني والبيهقي والثعلبي كلهم من حديث سفينة «الخلافة في أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ملك» وفي لفظ «ثم يملك الله من يشاء» وروى أحمد وابن أبى شيبة والطبراني من طريق عبد الرحمن بن سابط عن أبى ثعلبة عن أبى عبيدة ومعاذ بن جبل مرفوعا. «إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ثم يصير خلافة ... الحديث».

قلت : إن جعلته استئنافا لم يكن له محل ، كأن قائلا قال : ما لهم يستخلفون ويؤمنون؟ فقال : يعبدونني. وإن جعلته حالا عن وعدهم ، أى وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم وإخلاصهم ، فمحله النصب وَمَنْ كَفَرَ يريد كفران النعمة : كقوله فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ. فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أى : هم الكاملون في فسقهم. حيث كفروا تلك النعمة العظيمة وجسروا على غمطها «1». فإن قلت : هل في هذه الآية دليل على أمر الخلفاء الراشدين؟ قلت : أوضح دليل وأبينه لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم.

[سورة النور (24) : آية 56]

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56)

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ معطوف على أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال : لأنّ حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه. وكرّرت طاعة الرسول : تأكيدا لوجوبها.

[سورة النور (24) : آية 57]

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)

وقرئ : لا يحسبن ، بالياء. وفيه أوجه : أن يكون مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ هما المفعولان.

والمعنى : لا يحسبن الذين كفروا أحدا يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك. وهذا معنى قوى جيد. وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره في قوله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأن يكون الأصل : لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأوّل ، وكان الذي سوّغ ذلك أنّ الفاعل والمفعولين لما

[سورة النور (24) : آية 58]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58)

(1). قوله «على غمطها» أى: احتقارها. (ع)

أمر بأن يستأذن العبيد. وقيل: العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ثَلاثَ مَرَّاتٍ في اليوم والليلة: قبل صلاة الفجر، لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة. وبالظهيرة، لأنها وقت وضع الثياب للقائلة. وبعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرّد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم. وسمى كل واحدة من هذه الأحوال عورة، لأن الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها. والعورة: الخلل. ومنها: أعور الفارس، «1» وأعور المكان، والأعور: المختل العين. ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات، وبين وجه العذر في قوله طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ يعنى أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة: يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام، فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت، لأدّى إلى الحرج. وروى أن مدلج بن عمرو: وكان غلاما أنصاريا: أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الظهر إلى عمر ليدعوه، فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر: لوددت أنّ الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية «2»: وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضى الله تعالى عنه. وقيل: نزلت في أسماء بنت أبى مرشد «3»، قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد «4».

وقيل: دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها. وعن أبى عمرو: الْحُلْمَ بالسكون.

وقرئ ثَلاثُ عَوْراتٍ بالنصب بدلا عن ثلاث مرات، أى: أوقات ثلاث عورات. وعن الأعمش: عورات على لغة هذيل. فإن قلت ما محل ليس عليكم؟ قلت: إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف. والمعنى: هنّ ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان، وإذا نصبت: لم يكن له محل وكان كلاما مقرّرا للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة: فإن قلت: بم ارتفع بَعْضُكُمْ؟ قلت: بالابتداء وخبره عَلى بَعْضٍ على معنى: طائف على بعض، وحذف لأن طوافون يدل عليه. ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمرا لتلك الدلالة.

[سورة النور (24) : آية 59]

وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59)

(1). قوله «و منها أعور الفارس» في الصحاح أعور الفارس، إذا بدا فيه موضع خلل للضرب. (ع)
(2). هكذا نقله الثعلبي والواحدي والبغوي وابن عباس رضى الله عنهما بغير سند.
(3). قوله «و قيل نزلت في أسماء بنت أبى مرشد» لعله مرثد، كما في عبارة النسفي. (ع)
(4). هكذا نقله الثعلبي والواحدي عن مقاتل.

الْأَطْفالُ مِنْكُمْ أى من الأحرار دون المماليك الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يريد: الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال. أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا الآية: والمعنى أنّ الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حدّ الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن: وهذا مما الناس منه في غفلة، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة. وعن ابن عباس: آية لا يؤمن بها أكثر الناس: آية الإذن، وإنى لآمر جارتى أن تستأذن علىّ. وسأل عطاء: أأستأذن على أختى؟

قال. نعم وإن كانت في حجرك تمونها ، وتلا هذه الاية. وعنه ، ثلاث آيات جحدهنّ الناس : الإذن كله. وقوله إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ فقال ناس : أعظمكم بيتا. وقوله وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ. وعن ابن مسعود. عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم. وعن الشعبي : ليست منسوخة ، فقيل له ، إن الناس لا يعملون بها ، فقال ، اللّه المستعان. وعن سعيد بن جبير يقولون هي منسوخة ، ولا واللّه ما هي منسوخة ، ولكن الناس تهاونوا بها : فإن قلت ما السنّ التي يحكم فيها بالبلوغ؟ قلت : قال أبو حنيفة ثماني عشرة سنة في الغلام. وسبع عشرة في الجارية.

وعامة العلماء على خمس عشرة فيهما. وعن على رضى اللّه عنه أنه كان يعتبر القامة ويقدره بخمسة أشبار. وبه أخذ الفرزدق في قوله : ما زال مذ عقدت يداه إزاره فسما فأدرك خمسة الأشبار «1»

(1) ما زال مذ عقدت يداه إزاره وسما فأدرك خمسة الأشبار
يدنى خوافق من خوافق تلتقي في ظل معتبط الغبار مثار
للفرزدق : يرث ى يزيد بن المهلب. يقول : لا زال يحارب من حين عقدت يداه إزاره على نفسه كناية عن تمييزه فيتولى أمور نفسه ، فمذ : ظرف زمان لاضافتها إلى الجملة ، ولكنها تفيد معنى من الابتدائية أيضا ، لأن المعنى :
ما زال يقتحم الحروب من حين بلغ أشده إلى أن مات. وإسناد العقد إلى اليد من باب الاسناد للآلة ، لأنه عاقد بها. وسما : ارتفع فبلغت قامته مقدار خمسة الأشبار. قيل : المراد بها مقدار السيف ، وذلك كناية عن بلوغه أشده. وقيل : المراد بها مقدار القبر ، وإدراكها : كناية عن موته. أى : من حين تمييزه إلى حين موته يهيج الحروب وهو أبلغ في المعنى. وعطف «أدرك» بالفاء دلالة على قصر مدته وقرب موته. ويروى : فسما ، بالفاء.
ويجوز أن يكون معناه : ارتفع قدره ، فيكون قد حكى جميع حالاته. وقوله «يدنى» خبر ما زال ، أى : يقرب رايات مضطربات إلى أخرى في الحرب. أو خيلا مضطربة إلى مثلها. والمراد أنه يقرب الكتائب بعضها إلى بعض حتى تلتقي كلها في ظل معتبط من الغبار، والمعتبط - بالعين المهملة - : اسم مفعول ، أى : لم يقاتل فيه غيره قبله فيثيره من موضعه ، بل هو الذي أثاره منه. أو أنه هو الذي أخرجه من الأرض الصلبة فلم يكن موجودا قبل.
ويروى بالغين المعجمة. أى : مكثر : والمعنى : أنه كان يزاد منه ويكثره. ويجوز أنه اسم مكان. ويروى :
معترك العجاج ، وهو موضع المعركة. والعجاج : الغبار. ومثار : صفة معتبط إن لم يتعرف بالاضافة ، ويجوز أن أصله : مثاره ، بالاضافة للضمير ، فحذف للضرورة. وفي إثبات الظل للغبار المعتبط المثار : دلالة على أنه متراكم حاجب ضوء الشمس عن المحاربين.

واعتبر غيره الإنبات. وعن عثمان رضى اللّه عنه. أنه سئل عن غلام ، فقال : هل اخضر إزاره؟

[سورة النور (24) : آية 60]

وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)

القاعد : التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها لا يَرْجُونَ نِكاحاً لا يطمعن فيه : والمراد بالثياب : الثياب الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ غير مظهرات زينة «1» ، يريد : الزينة الخفية التي أرادها في قوله وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أو غير قاصدات بالوضع التبرج ، ولكن التخفف إذا احتجن إليه. والاستعفاف من الوضع خير لهنّ لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب ، بعثا منه عن اختيار أفضل الأعمال وأحسنها ، كقوله وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ. فإن قلت : ما حقيقة التبرج؟ قلت : تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم : سفينة بارج ، لا غطاء عليها. والبرج : سعة العين ، يرى بياضها محيطا بسوادها كله لا يغيب منه شيء ، إلا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها. وبدأ ، وبرز ، بمعنى : ظهر ، من أخوات : تبرج وتبلج ، كذلك.

[سورة النور (24) : آية 61]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61)

(1). قال أحمد : قرر الزمخشري هذه الآية على ظاهرها ، ويظهر لي واللّه أعلم أن قوله تعالى غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ من باب على لاحب لا يهتدى بمناره

أى : لا منار فيه فيهتدى به ، وكذلك ، المراد هنا : والقواعد من النساء اللاتي لا زينة لهن فيتبرجن بها ، لأن الكلام فيمن هي بهذه المثابة ، وكأن الغرض من ذلك أن هؤلاء استعفافهم عن وضع الثياب خير لهن ، فما ظنك بذوات الزينة من الثياب ، وأبلغ ما في ذلك أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذانا بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة ، هذا في القواعد ، فكيف بالكواعب؟ واللّه أعلم. [.....]

كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة في ذلك ، وخافوا أن يلحقهم فيه حرج ، وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق ، لقوله تعالى وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ فقيل لهم : ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم ، يعنى : عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك. وعن عكرمة : كانت الأنصار في أنفسها قزازة «1». فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا. وقيل : كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم لما عسى يؤدى إلى الكراهة من قبلهم ، ولأنّ الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله إليه وهو لا يشعر ، والأعرج يتفسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه ، والمريض لا يخلو من رائحة تؤذى أو جرح يبض أو أنف يذن «2» ونحو ذلك. وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرّجون. حكى عن الحرث بن عمرو أنه خرج غازيا وخلف مالك بن زيد في بيته وماله ، فلما رجع رآه مجهودا فقال : ما أصابك؟ قال : لم يكن عندي شيء ، ولم يحل لي أن آكل «من مالك ، فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت ، وهذا كلام صحيح ، وكذلك إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الغزو ، ولا عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة ، لالتقاء الطائفتين في أن كل واحدة منهما منفي عنها الحرج. ومثال هذا أن يستفتيك مسافر عن الإفطار في رمضان. وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر ، فقلت : ليس على المسافر حرج أن يفطر ، ولا عليك يا حاج أن تقدّم الحلق على النحر ، فإن قلت: هلا ذكر الأولاد ، قلت : دخل ذكرهم تحت قوله مِنْ بُيُوتِكُمْ لأنّ ولد الرجل بعضه ، وحكمه حكم نفسه.

(1). قوله «في أنفسها قزازة» في الصحاح «القزازة» التنطس والتباعد عن الدنس. وفيه «التنطس» المبالغة في التطهر. (ع)
(2). قوله «أو جرح يبض أو أنف يذن» يبض أى يسيل قليلا قليلا. ويذن : أى يسيل مخاطه. أفاده الصحاح. (ع)

وفي الحديث «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه ، وإن ولده من كسبه «1»» ومعنى مِنْ بُيُوتِكُمْ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم ولأنّ الولد أقرب ممن عدّد من القرابات ، فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة : كان الذي هو أقرب منهم أولى. فإن قلت : ما معنى أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ؟ قلت : أموال الرجل إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له : أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته. وملك المفاتح : كونها في يده وحفظه. وقيل: بيوت المماليك ، لأن مال العبد لمولاه. وقرئ : مفتاحه : فإن قلت : فما معنى أَوْ صَدِيقِكُمْ؟ قلت : معناه : أو بيوت أصدقائكم. والصديق يكون واحدا وجمعا «2» ، وكذلك الخليط والقطين والعدوّ. يحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون ، فتهللت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال : هكذا وجدناهم ، هكذا وجدناهم.

يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين رضى اللّه عنهم. وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ منه ما شاء ، فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سرورا بذلك. وعن جعفر بن محمد الصادق رضى اللّه عنهما : من عظم حرمة الصديق أن جعله اللّه من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ والابن. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : الصديق أكبر من الوالدين ، إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمّهات. فقالوا : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم. وقالوا : إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك ، قام ذلك مقام الإذن الصريح ، وربما سمج الاستئذان وثقل ، كمن قدّم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً أى مجتمعين أو متفرّقين. نزلت في بنى ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل لرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل ، فان لم يجد من يواكله أكل ضرورة. وقيل في قوم من الأنصار :

(1). أخرجه أصحاب السنن وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والبزار وأبو يعلى كلهم من حديث عائشة بهذا. قال ابن القطان : يرويه عمارة بن عمير فقال إبراهيم عنه. عن عمته عن عائشة. وقال الحاكم : عن عمارة عن أمه عن عائشة وذكره الدارقطني في العلل والاختلاف فيه وأطال. وفي الباب عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال «أتى أعرابى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال يا رسول اللّه إن أبى يريد أن يحتاج مالى. قال : أنت ومالك لوالدك إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوا هنيئا ، رواه ابو داود وابن ماجة من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو وحجاج مدلس وفيه ضعف.
(2). قال محمود : «الصديق يكون واحدا وجمعا والمراد هنا الجمع» قال أحمد : وقد قال الزمخشري : إن سر إفراده في قوله تعالى فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ دون الشافعين التنبيه على قلة الأصدقاء ، ولا كذلك الشافعون ، فان الإنسان قد يحمى له ويشفع في حقه من لا يعرفه فضلا عن أن يكون صديقا ، ويحتمل في الآيتين - واللّه أعلم - أن يكون المراد به الجمع فلا كلام ، ويحتمل أن يراد الافراد ، فيكون سره ذلك ، واللّه أعلم.

إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم وقيل : تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل وزيادة بعضهم على بعض فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً من هذه البيوت لتأكلوا فبدئوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة «1» تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أى ثابتة بأمره ، مشروعة من لدنه.

أو لأنّ التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله. ووصفها بالبركة والطيب : لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق. وعن أنس رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين - وروى : تسع سنين - فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا قال لي لشيء كسرته لم كسرته؟ وكنت واقفا على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال : ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها؟ قلت : بلى بأبى وأمى يا رسول الله. قال : متى لقيت من أمّتى أحدا فسلم عليه يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوّابين «2»». وقالوا : إن لم يكن في البيت أحد فليقل : السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. السلام على أهل البيت ورحمة الله. وعن ابن عباس : إذا دخلت المسجد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين تحية من عند الله ، وانتصب تحية بسلموا ، لأنها في معنى تسليما ، كقولك : قعدت جلوسا.

[سورة النور (24) : آية 62]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62)

---

(1). قال محمود : «معناه : فسلموا على الجنس الذي هو منكم دينا وقرابة» قال أحمد : وفي التعبير عنهم بالأنفس تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة ، وأن ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه لاتحاد القرابة ، فليطب نفسا بالبساط فيها ، والله أعلم.

(2). أخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف الجرجاني في تاريخ جرجان. والبيهقي في الشعب في الحادي والستين. والثعلبي من طريق اليسع بن زيد بن سهل عن ابن عتبة عن حميد وعن أنس بتمامه واليسع آخر من زعم أنه سمع من ابن عتبة. مات بعد الثمانين والمائتين وهو واهى الحديث وأصل الحديث دون القصة التي فيه ، في الصحيح من حديث أنس رضى الله عنه. وباقيه مروى عن أنس من أوجه. منها ما رواه البزار من طريق عويد بن عمران الجونى عن أبيه قال : «أوصانى النبي صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال : أسغ الوضوء يزد في عمرك : وسلم على من لقيت من أمتى تكثر حسناتك. وإذا دخلت بيتك فسلم على أهلك يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى.

فإنها صلاة الأوابين ، وارحم الصغير ووقر الكبير ، تكن من رفاقى» وعويد. قال ابن حبان : يروى عن أبيه ما ليس من حديثه. ورواه أبو يعلى من رواية عمرو بن أبى خليفة عن ضرار بن عمرو عن أنس وإسناده ضعيف جدا وكذا رواه الطبراني في الصغير من رواية عمرو بن دينار عن أنس والراوي عنه ساقط ورواه العقيلي من رواية الفضل بن العباس عن ثابت عن أنس والفضل مجهول. قال العقيلي : لم يتابعه عليه إلا من هو دونه أو قبله ورواه ابن عدى من طريق أزور بن غالب عن سليمان التيمي عن أنس. قال ابن طاهر : أزور منكر الحديث. وله طريق أخرى عن أنس أشد ضعفا من هذه.

[سورة النور (24) : آية 62]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62)

أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير إذنه إِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله ، وجعلهما كالتشبيب له «1» والبساط لذكره ، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ، ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا ، حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله (إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) وضمنه شيأ آخر ، وهو : أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين ، وعرّض بحال المنافقين وتسللهم لو إذا. ومعنى قوله (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم. ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استصوب أن يأذن له. والأمر الجامع : الذي يجمع له الناس ، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز ، وذلك نحو مقاتلة عدوّ ، أو تشاور في خطب مهمّ ، أو تضام لإرهاب مخالف ، أو تماسح في حلف وغير ذلك. أو الأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه. وقرئ : أمر جميع. وفي قوله (إذا كانوا معه على أمر جامع) أنه خطب جليل لا بد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من ذوى رأى وقوّة ، يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بآرائهم ومعارفهم

[سورة النور (24) : آية 63]

لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63)

(1) قوله «و جعلهما كالتشبيب له» في الصحاح التشبيب النسيب يقال هو يشبب بفلانة أى ينسب بها (ع)

إذا احتاج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي.

أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضا ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه ، ولا تقولوا : يا محمد ، ولكن : يا نبى اللّه ، ويا رسول اللّه ، مع التوقير التعظيم والصوت المخفوض والتواضع. ويحتمل : لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم وفقيركم غنيكم ، يسأله حاجة فربما أجابه وربما ردّه ، فإن دعوات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مسموعة مستجابة يَتَسَلَّلُونَ ينسلون قليلا قليلا. ونظير «تسلل» : «تدرّج وتدخل» : واللواذ : الملاوذة ، وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا ، يعنى : ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض. ولِواذاً حال ، أى : ملاوذين. وقيل : كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيأذن له ، فينطلق الذي لم يؤذن له معه. وقرئ : لو إذا ، بالفتح. يقال.

خالفه إلى الأمر ، إذا ذهب إليه دونه. ومنه قوله تعالى وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ وخالفه عن الأمر: إذا صدّعنه دونه. ومعنى الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ الذين يصدّون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون ، فحذف المفعول لأنّ الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه.

الضمير في أمره للّه سبحانه أو للرسول صلى اللّه عليه وسلم. والمعنى : عن طاعته ودينه فِتْنَةٌ محنة في الدنيا أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ في الآخرة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : فتنة قتل. وعن عطاء : زلازل وأهوال. وعن جعفر بن محمد : يسلط عليهم سلطان جائر.

[سورة النور (24) : آية 64]

أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)

أدخل (قد) ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد ، وذلك أن (قد) إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى «ربما» فوافقت «ربما» في خروجها إلى معنى التكثير في نحو قوله : فان تمس مهجور الفناء فربّما أقام به بعد الوفود وفود «1»

(1)ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك يجارى دمعها لجمود
عشية قام النائحات وشققت جيوب بأيدى مأتم وخدود
فان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود
لابن عطاء السندي : يرث ى ابن هبيرة لما قتله المنصور. وواسط : موضع الواقعة. وأتم بالمكان : أقام به.
والمأتم : مكان الاقامة : استعمل في جماعة النساء الحزينات مجازا مشهورا ، وجمعه : مآتم بمد الهمزة. يقول :
إن كل عين لم تبك عليك ذلك اليوم لشديدة الجمود. وعشية : بدل من يوم. وجيب القميص. مخرج الرأس منه ، أى : مزقت الجيوب والخدود بأيدى النساء ، ثم التفت إلى الخطاب ، وصبر وتصبر بقوله : فان تمس مهجور الفناء ، كناية عن الموت ، فربما : أى كثيرا أقام بفناء بيتك جموع من الناس بعد جموع ، يستمنحونك ، أى : فان يهجر فناؤك الآن فلا حزن ، لأنه كثيرا ما اجتمع فيه الناس ومنحوا خيرا.

ونحوه قول زهير : أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنّه قد يهلك المال نائله «1»

والمعنى. أنّ جميع ما في السموات والأرض مختصة به خلقا وملكا وعلما ، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون في سترها عن العيون وإخفائها. وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم. والخطاب والغيبة في قوله قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ يجوز أن يكونا جميعا المنافقين على طريق الالتفات. ويجوز أن يكون (ما أنتم عليه) عاما ، و(يرجعون) للمنافقين ، والله أعلم.
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة النور أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي «2»».

---

(1) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 17 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2) أخرجه الثعلبي وابن مردويه باسناديهما إلى أبى بن كعب رضى الله عنه.

سورة الفرقان

مكية إلا الآيات 68 و69 و70 فمدنية وآياتها 77 [نزلت بعد يس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفرقان (25) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (2)

البركة : كثرة الخير وزيادته. ومنها (تبارك الله) وفيه معنيان : تزايد خيره ، وتكاثر.

أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله. والفرقان : مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل. أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكنمفروقا ، مفصولا بين بعضه وبعض في الإنزال «1». ألا ترى إلى قوله (و قرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقد جاء الفرق بمعناه «2». قال : ومشركىّ كافر بالفرق. وعن ابن الزبير رضى الله عنه : على عباده ، وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمّته ، كما قال (لقد أنزلنا إليكم) ، (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا). والضمير في لِيَكُونَ لعبده أو للفرقان.

ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير لِلْعالَمِينَ للجنّ والإنس نَذِيراً منذرا أى مخوّفا أو إنذارا ، كالنكير بمعنى الإنكار. ومنه قوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) ، الَّذِي لَهُ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح. أو نصب عليه.

(1) قال محمود : «يجوز أن يراد بوصفه بالفرقان تفريقه بين الحق والباطل ، ويجوز أن يراد نزوله مفرقا شيئا فشيئا كما قال. وقرآنا فرقناه» قال أحمد : والأظهر هنا هو المعنى الثاني ، لأن في أثناء السورة بعد آيات (و قالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) قال الله تعالى (كذلك) أى أنزلناه مفرقا كذلك (لنثبت به فؤادك) فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة - والله أعلم - كالمقدمة والتوطئة لما يأتى بعد.

(2) قوله «و قد جاء الفرق بمعناه» في الصحاح : والفرق أيضا : الفرقان. ونظيره : الخسر والخسران. قال الراجز : ومشركي ... الخ. (ع)

فإن قلت : كيف جاز الفصل بين البدل والمبدل منه؟ قلت : ما فصل بينهما بشيء ، لأنّ المبدل منه صلته نزل. و(ليكون) تعليل له ، فكأنّ المبدل منه لم يتمّ إلا به. فإن قلت : في الخلق معنى التقدير ، فما معنى قوله وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً كأنه قال : وقدّر كل شيء فقدّره؟ قلت : المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثا مراعى فيه التقدير والتسوية ، فقدّره وهيأه لما يصلح له ، مثاله : أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوّى الذي تراه ، فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابى الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدّرة بأمثلة الحكمة والتدبير ، فقدّره لأمر مّا ومصلحة مطابقا لما قدر له غير متجاف عنه. أو سمى إحداث الله خلقا لأنه لا يحدث شيئا لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت ، فإذا قيل : خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك : أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق ، فكأنه قيل : وأوجد كل شيء فقدّره في إيجاده لم يوجده متفاوتا. وقيل ، فجعل له غاية ومنتهى. ومعناه : فقدّره للبقاء إلى أمد معلوم.

[سورة الفرقان (25) : آية 3]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً (3)

الخلق بمعنى الافتعال ، كما في قوله تعالى (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) والمعنى : أنهم آثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم ، لا يقدرون على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد ، حيث لا يفتعلون شيئا وهم يفتعلون ، لأن عبدتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير وَلا يَمْلِكُونَ أى : لا

[سورة الفرقان (25) : آية 4]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً (4)

قَوْمٌ آخَرُونَ قيل : هم اليهود. وقيل : عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي ، وأبو فكية الرومي : قال ذلك النضر بن الحرث بن عبد الدار. «جاء» «و أتى» يستعملان في معنى فعل ، فيعديان تعديته ، وقد يكون على معنى : وردوا ظلما ، كما تقول : جئت المكان. ويجوز أن يحذف الجار ويوصل الفعل. وظلمهم : أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب. والزور : أن بهتوه بنسبة ما هو برئ منه إليه.

[سورة الفرقان (25) : آية 5]

وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (5)

أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ما سطّره المتقدمون من نحو أحاديث رستم وإسفنديار ، جمع : أسطار أو أسطورة كأحدوثة اكْتَتَبَها كتبها لنفسه وأخذها ، كما تقول : استكب الماء واصطبه : إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه. وقرئ : أكتتبها. على البناء للمفعول. والمعنى : اكتتبها كاتب له. لأنه كان أمّيا لا يكتب بيده ، وذلك من تمام إعجازه ، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب ، كقوله (و اختار موسى قومه) ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعا مستترا بعد أن كان بارزا منصوبا ، وبقي ضمير الأساطير على حاله ، فصار (اكتتبها) كما ترى. فإن قلت : كيف قيل : اكتتبها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ وإنما يقال : أمليت عليه فهو يكتتبها؟ قلت : فيه وجهان. أحدهما : أراد اكتتابها أو طلبه فهي تملى عليه. أو كتبت له وهو أمىّ فهي تملى عليه : أى تلقى عليه من كتابه يتحفظها : لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب. وعن الحسن : أنه قول الله سبحانه يكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار. ووجهه أن يكون نحو قوله :

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصا نبلا «1»

وحق الحسن أن يقف على الأولين. بُكْرَةً وَأَصِيلًا أى دائما ، أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس ، وحين يأوون إلى مساكنهم.

---

(1)إن كنت أزننتني بها كذبا جزء فلاقيت بعدها عجلا
أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصا نبلا
لحضرمى بن عامر ، يخاطب جزء بن سنان بن مؤلة حين اتهمه بسروره بأخذ دية أخيه القتيل ، وقيل : لجرير ، وليس بذاك. وجزء - بفتح فسكون - وإن هنا للشرط مجردا عن السك ، أو بمعنى إذ. وأزننتنى : أى تهمتنى بها :
أى بتلك الفعلة الرذيلة كذبا منك يا جزء ، فهو منادى ، فلاقيت أنت بعدها عجلا : دعاء عليه بأن ينال مثلها سريعا ، وينظر هل يفرح أو يحزن؟ وروى : فلاقيت مثلها عجلا. أفرح ، أى : أأفرح بأن أرزأ الكرام وأصاب فيهم ، فحذفت همزة الاستفهام الإنكاري أو التعجبي على فرض الوقوع لدلالة المقام عليها ، وليصور الكلام بصورة الاخبار والإثبات ، فيظهر للخصم قبح دعواه. وأرزأ : مبنى للمجهول ، وكذلك أورث ، أى : أعطى ذودا : أى قطيعا من الإبل بعد موتهم. والذود : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، مؤنث لا واحد له من لفظه ، عبر به عن الدية كلها استقلالا وتحقيرا لها. ولذلك وصفه بشصائصا : جمع شصوص ، وهي النافة القليلة اللبن. وصرفه للوزن. والنبل - كسبب - : جمع نبيل. ويروى بالضم ، فهو جمع نبيل أيضا ، ككرم وكريم. أو جمع نبلة ، كغرف وغرفة :
أي الصغار؟؟؟ أو النجائب فهو من الأضداد ، لكن الأول أوفق بالمقام. ويجوز أن الدية كانت عشرة.

[سورة الفرقان (25) : آية 6]

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (6)

أى يعلم كل سرّ خفىّ في السموات والأرض. ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله صلى الله عليه وسلم مع علمكم أنّ ما تقولونه باطل وزور ، وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تبهتونه به، وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه. فإن قلت :

كيف طابق قوله إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً هذا المعنى؟ قلت : لما كان ما تقدّمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه ، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة. أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبّا ، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم : يمهل ولا يعاجل.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 7 إلى 8]

وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (7) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (8)

وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي. وخط المصحف سنة لا تغير. وفي هذا استهانة وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم وطنز «1» ، كأنهم قالوا : ما لهذا الزاعم أنه رسول. ونحوه قول فرعون (إِنَّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) أى : إنّ صحّ أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا يَأْكُلُ الطَّعامَ كما نأكل ، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد ، يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش. ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى. اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف. ثم نزلوا أيضا فقالوا : وإن لم يكن مرفودا بملك ، فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش. ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق كما الدهاقين والمياسير. أو يأكلون هم من ذلك البستان فينتفعون به في دنياهم ومعاشهم. وأراد بالظالمين : إياهم بأعيانهم : وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا. وقرئ : فيكون ، بالرفع. أو يكون له جنة ، بالياء ، ونأكل ، بالنون. فإن قلت : ما وجها الرفع والنصب في فيكون؟ قلت : النصب لأنه جواب «لولا» بمعنى «هلا» وحكمه حكم الاستفهام. والرفع على أنه معطوف على أنزل ، ومحله الرفع. ألا تراك

(1) قوله «و طنز» في الصحاح «الطنز» : السخرية. (ع) [.....]

تقول : لولا ينزل بالرفع ، وقد عطف عليه : يلقى ، وتكون مرفوعين ، ولا يجوز النصب فيهما لأنهما في حكم الواقع بعد لولا ، ولا يكون إلا مرفوعا. والقائلون هم كفار قريش النضر بن الحرث ، وعبد الله بن أبى أمية ، ونوفل بن خويلد ومن ضامهم مَسْحُوراً سحر فغلب على عقله. أو ذا سحر ، وهو الرئة : عنوا أنه بشر لا ملك.

[سورة الفرقان (25) : آية 9]

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (9)

ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ أى : قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة ، من نبوّة مشتركة بين إنسان وملك. وإلقاء كنز عليك من السماء وغير ذلك ، فبقوا متحيرين ضلالا ، لا يجدون قولا يستقرّون عليه. أو فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقا إليه.

[سورة الفرقان (25) : آية 10]

تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (10)

تكاثر خير الَّذِي إِنْ شاءَ وهب لك في الدنيا خَيْراً مما قالوا ، وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور. وقرئ : ويجعل ، بالرفع عطفا على جعل : لأن الشرط إذا وقع ماضيا ، جاز في جزائه الجزم والرفع ، كقوله :

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرم «1»

ويجوز في (و يجعل لك) إذا أدغمت : أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعا. وقرئ بالنصب ، على أنه جواب الشرط بالواو.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 11 إلى 14]

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (11) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (12) وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (13) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (14)

بَلْ كَذَّبُوا عطف على ما حكى عنهم. يقول : بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة.

(1) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 537 فراجعه إن شئت اه مصححه.

ويجوز أن يتصل بما يليه ، كأنه قال : بل كذبوا بالساعة ، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة. السعير : النار الشديدة الاستعار. وعن الحسن رضى الله عنه : أنه اسم من أسماء جهنم رَأَتْهُمْ من قولهم : دورهم تترا «1» ، أى : وتتناظر. ومن قوله صلى الله عليه وسلم «لا تراءى ناراهما» «2» كأن بعضها يرى بعضها على سبيل المجاز. والمعنى : إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها. وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر. ويجوز أن يراد : إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار وشهوة للانتقام منهم. الكرب مع الضيق ، كما أن الروح مع السعة ، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السماوات والأرض. وجاء في الأحاديث : أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق ، حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصا ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح ، وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل : قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع. وقيل : يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد. والثبور : الهلاك. ودعاؤه أن يقال : وا ثبوراه ، أى: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك لا تَدْعُوا أى يقال لهم ذلك : أو هم أحقاء بأن يقال لهم ، وإن لم يكن ثمة قول ومعنى وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، إنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته. أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 15 إلى 16]

قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً (15) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (16)

الراجع إلى الموصولين محذوف ، يعنى : وعدها المتقون وما يشاءونه. وإنما قيل : كانت ، لأن ما وعده الله وحده فهو في تحققه كأنه قد كان. أو كان مكتوبا في اللوح قبل أن برأهم بأزمنة متطاولة :

(1). قال محمود : «هو من قولهم : دور بنى فلان تترا ، أى على المجاز» قال أحمد : لا حاجة إلى حمله على المجاز فان رؤية جهنم جائزة ، وقدرة الله تعالى صالحة ، وقد تظافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز ، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكا حسيا وعقليا. ألا ترى إلى قوله سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وإلى محاجتها مع الجنة ، وإلى قولها هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وإلى اشتكائها إلى ربها فأذن لها في نفسين ، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها ، إذ لا محوج إليه. ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد ، لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادى الضلالة والتحير إلى فرق الفلاسفة ، فالحق أنا متعبدون بالظاهر ما لم يمنع مانع ، والله أعلم.
(2). تقدم في المائدة.

أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم. فإن قلت : ما معنى قوله كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً؟

قلت : هو كقوله : نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً فمدح الثواب ومكانه ، كما قال : بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً فذم العقاب ومكانه لأنّ النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة ، وأن لا تنغص ، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع «1» وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة ، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء. والضمير في كانَ لما يشاءون. والوعد : الموعود ، أى : كان ذلك موعودا واجبا على ربك إنجازه ، حقيقا أن يسئل ويطلب ، لأنه جزاء وأجر مستحق وقيل : قد سأله الناس والملائكة في دعواتهم : رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ ، رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 17 إلى 18]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً (18)

يحشرهم. فيقول. كلاهما بالنون والياء ، وقرئ : يحشرهم ، بكسر الشين وَما يَعْبُدُونَ يريد : المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير. وعن الكلبي : الأصنام ينطقها الله. ويجوز أن يكون عاما لهم جميعا. فإن قلت : كيف صحّ استعمال ما في العقلاء؟ قلت : هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم ، بدليل قولك - إذا رأيت شبحا من بعيد - : ما هو؟ فإذا قيل لك : إنسان ، قلت حينئذ : من هو؟ ويدلك قولهم «من» لما يعقل. أو أريد به الوصف ، كأنه قيل : ومعبوديهم.

ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد : ما زيد؟ تعنى : أطويل أم قصير؟ أفقيه أم طبيب؟ فإن قلت : ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم «2» ضلوا السبيل؟

قلت. ليس السؤال عن الفعل ووجوده ، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب ، وإنما هو عن متوليه ، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ، حتى يعلم أنه المسئول عنه. فإن قلت : فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه، فما فائدة هذا السؤال؟ قلت : فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به ،

(1). قوله «بغثاثة الموضع» أى فساده ورداءته. والاجتواء : كراهة المقام بالمكان. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «أم هم ضلوا» لعله أم ضلوا ، كعبارة النسفي. (ع)

حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم ، فيبهتوا «1» وينخذلوا وتزيد حسرتهم ، ويكون ذلك نوعا مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ، ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك ، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفا للمكلفين. وفيه كسر بين لقول من يزعم «2» أن الله يضل عباده على الحقيقة «3» ، حيث يقول للمعبودين من دونه : أأنتم أضللتموهم ، أم هم ضلوا بأنفسهم؟ فيتبرءون من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين ، ويقولون : بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم ، فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر ،

(1). قوله «فيبهتوا» يدهشوا. أو يتحيروا. أفاده الصحاح (ع)
(2). قوله «لقول من يزعم أن الله ... الخ» يريد أهل السنة القائلين : إضلال الله لعباده خلق الضلال في قلوبهم ، خلافا للمعتزلة القائلين : أنه تعالى لا يخلق الشر ولا يريده. (ع)
(3). قال محمود : «في هذه الآية كسر بين لمن يزعم أن الله تعالى يضل عباده حقيقة ، حيث يقول للمعبودين من دونه : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم ضلوا بأنفسهم؟ فيتبرءون منهم ويستعيذون مما نسب إليهم ، ويقولون : بل تفضلك على هؤلاء أوجب أن جعلوا عرض الشكر كفرا ، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من ذلك. فهم لله أشد تبرئة وتنزيها منه ، ولقد نزهوه حيث أضافوا التفضل بالنعمة إلى الله تعالى ، وأسندوا الضلال الذي نشأ عنه إلى الضالين ، فهو شرح للاسناد المجازى في قوله يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ولو كان مضلا حقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا : بل أنت أضللتهم» قال أحمد : قد تقدم شرح عقيدة أهل الحق في هذا المعنى ، وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق الله تعالى : التزامهم للتوحيد المحض والايمان الصرف ، الذي دل على صحته بعد الأدلة العقلية قوله تعالى اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ والضلال شيء ، فوجب كونه خالقه : هذا من حيث العموم. وأما من حيث الخصوص ، فأمثال قوله تعالى يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ ، والأصل الحقيقة ، وقول موسى عليه السلام إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ فلو كان الإضلال مستحيلا على الله تعالى لما جاز أن يخاطبه الكليم بما لا يجوز ، فإذا أوضح ذلك فالملائكة لم يسئلوا في هذه الاية عن المضل لعبادهم حقيقة ، فيقال لهم :
من أضل هؤلاء ، وإنما قيل لهم : أأنتم أضللتموهم ، أم هم ضلوا؟ فليس الجواب المطابق العتيد أن يقولوا : أنت أضللتهم. ولو كان معتقدهم أن الله تعالى هو المضل حقيقة ، لكان قولهم في جواب هذا السؤال : بل أنت أضللتهم مجاوزة لمحل السؤال ومحله ، وإنما كان هذا الجواب مطابقا لو قيل لهم : من أضل عبادي هؤلاء؟ فقد وضح أن هذا السؤال لإيجاب عنه بما تخيله الزمخشري ، بتقدير أن يكون معتقدهم أن الله تعالى هو الذي أضلهم ، وأن عدو لهم عنه ليس لأنهم لا يعتقدونه ، ولكن لأنه لا يطابق ، وبقي وراء ذلك نظر في أن جوابهم هذا يدل على معتقدهم الموافق لأهل الحق ، لأن أهل الحق يعتقدون أن الله تعالي وإن خلق لهم الضلالة إلا أن لهم اختيارا فيها وتميزا لها ، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها الله فيهم كالحركات الرعشية ونحوها. وقد قدمنا في مواضع : أن كل فعل اختيارى له نسبتان : إن نظر إلى كونه مخلوقا فهو منسوب إلى الله تعالى ، وإن نظر إلى كونه اختياريا للعبد فهو منسوب إلى العبد. وبذلك قطعت الملائكة في قولهم : بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، فنسبوا نسيان الذكر إليهم، أى : الانهماك في الشهوات الذي نشأ عنه النسيان ، لأنهم اختاروه لأنفسهم ، فصدقت نسبته إليهم ، ونسبوا السبب الذي اقتضى نسيانهم وانهما كهم في الشهوات إلى الله تعالى : وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم ، فيها ضلوا ، فلا تنافى بين معتقد أهل الحق وبين مضمون قول الملائكة حينئذ. بل هما متواطئان على أمر واحد ، والله أعلم.

سبب الكفر ونسيان الذكر ، وكان ذلك سبب هلاكهم ، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه ، فهم لربهم الغنيّ العدل أشدّ تبرئة وتنزيها منه ، ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتيع بها ، وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة. فشرحوا الإضلال المجازى الذي أسنده اللّه تعالى إلى ذاته في قوله يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا : بل أنت أضللتهم. والمعنى : أأنتم أوقعتموهم في الضلال عن طريق الحق؟ أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟ وضل : مطاوع «أضله» وكان القياس : ضل عن السبيل ، إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق. والأصل : إلى الطريق ، وللطريق. وقولهم : أضلّ البعير ، في معنى : جعله ضالا ، أى : ضائعا ، لما كان أكثر ذلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه ، قيل : أضله ، سواء كان منه فعل أو لم يكن سُبْحانَكَ تعجب منهم ، قد تعجبوا مما قيل لهم لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون ، فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه.

أو نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المتقدّسون الموسومون بذلك ، فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده. أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد ، وأن يكون له نبىّ أو ملك أو غيرهما ندّا ، ثم قالوا : ما كان يصحّ لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحدا دونك. فكيف يصحّ لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك. أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار. قال اللّه تعالى فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ يريد الكفرة وقال وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ وقرأ أبو جعفر المدني : نتخذ ، على البناء للمفعول. وهذا الفعل أعنى «اتخذ» يتعدى إلى مفعول واحد ، كقولك : اتخذ وليا ، وإلى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا. قال اللّه تعالى أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ وقال وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا فالقراءة الأولى من المتعدي إلى واحد وهو مِنْ أَوْلِياءَ والأصل : أن نتخذ أولياء ، فزيدت مِنْ لتأكيد معنى النفي ، والثانية من المتعدي إلى مفعولين. فالأول ما بنى له الفعل. والثاني : مِنْ أَوْلِياءَ. ومن للتبعيض ، أى : لا نتخذ بعض أولياء. وتنكير أَوْلِياءَ من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام والذكر : ذكر اللّه والإيمان به. أو القرآن والشرائع. والبور : الهلاك ، يوصف به الواحد والجمع. ويجوز أن يكون جمع بائر ، كعائذ وعوذ.

[سورة الفرقان (25) : آية 19]

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (19)

هذه المفاجأة «1» بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وقول القائل : قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثمّ القفول فقد جئنا خراسانا «2»

وقرئ : يقولون ، بالتاء والياء. فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم أنهم آلهة. ومعنى من قرأ بالياء : فقد كذبوكم بقولهم سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ : فإن قلت : هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء؟ قلت إي واللّه ، هي مع التاء كقوله بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ والجار والمجرور بدل من الضمير ، كأنه قيل : فقد كذبوا بما تقولون : وهي مع الياء كقولك : كتبت بالقلم. وقرئ : يستطيعون ، بالتاء والياء أيضا. يعنى. فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم. وقيل : الصرف : التوبة وقيل : الحيلة ، من قولهم : إنه ليتصرف، أى. يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب. أو أن يحتالوا لكم.

الخطاب على العموم للمكلفين. والعذاب الكبير لا حق بكل من ظلم ، والكافر ظالم ، لقوله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ والفاسق ظالم. لقوله وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. وقرئ : يذقه ، بالياء. وفيه ضمير اللّه. أو ضمير مصدر يظلم.

[سورة الفرقان (25) : آية 20]

وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً (20)

الجملة بعد «إلا» صفة لموصوف محذوف. والمعنى : وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين وماشين. وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور. أعنى من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل : وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ على معنى : وما منا أحد. وقرئ : ويمشون ، على البناء للمفعول ، أى : تمشيهم حوائجهم أو الناس. ولو قرئ :

(1). قوله «هذه المفاجأة» أى : التي في قوله تعالى فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ. (ع)
(2). يقول : قالوا إن هذه البلدة أبعد ما يراد بنا وغاية السفر بنا ، ثم يكون القفول أى الرجوع. ويجوز أنه عطف على خراسان. وقوله «فقد جئنا» مرتب على محذوف ، أى : إن صدقوا في قولهم فقد جئنا خراسان ، فلم لم نتخلص من السفر. ويجوز أنه عدل إلى الخطاب ، أى : فقولوا لهم اقطعوا السفر بنا وارجعوا. فقد جئنا الموعد ، لكن ليس ذلك التفاتا.

فِتْنَةً أى محنة وابتلاء. وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبدعوه ، من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل ، يقول : وجرت عادتي وموجب حكمتى على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض. والمعنى : أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم ، وبمناصبتهم لهم العداوة ، وأقاويلهم الخارجة عن حدّ الإنصاف ، وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل ، ونحوه وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وموقع أَتَصْبِرُونَ بعد ذكر الفتنة موقع أَيُّكُمْ بعد الابتلاء في قوله لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. بَصِيراً عالما بالصواب فيما يبتلى به وغيره فلا يضيقنّ صدرك ، ولا يستخفنك أقاويلهم فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين. وقيل : هو تسلية له عما عيروه به من الفقر ، حين قالوا : أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة. وأنه جعل الأغنياء فتنه للفقراء لينظر : هل يصبرون؟ وأنها حكمته ومشيئته : يغنى من يشاء ويفقر من يشاء. وقيل : جعلناك فتنة لهم ، لأنك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا ، أو ممزوجة بالدنيا ، فإنما بعثناك فقيرا ليكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوى. وقيل : كان أبو جهل والوليدين المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم يقولون : إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالا بالسابقة ، فهو افتتان بعضهم ببعض.

[سورة الفرقان (25) : آية 21]

وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً(21) أى لا يأملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة. أو لا يخافون لقاءنا بالشر. والرجاء في لغة تهامة : الخوف ، وبه فسر قوله تعالى لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملقيا. اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمدا صادق حتى يصدقوه. أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه. ولا يخلو : إما أن يكونوا عالمين بأن الله لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء ، وأن الله لا يصح أن يرى «1». وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون. وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك وإنما أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم ، كما فعل قوم موسى حين قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فإن قلت : ما معنى فِي أَنْفُسِهِمْ؟ قلت : معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه.

(1). قوله «لا يصح أن يرى ، هذا مذهب المعتزلة ، وعند أهل السنة : يصح أن يرى. (ع)

كما قال إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ. وَعَتَوْا وتجاوزوا الحدّ في الظلم. يقال : عتا علينا فلان. وقد وصف العتوّ بالكبير ، فبالغ في إفراطه يعنى أنهم لم يخسروا على هذا القول العظيم ، إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتوّ ، واللام جواب قسم محذوف. وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية. وفي أسلوبها قول القائل :

وجارة جسّاس أبأنا بنابها كليبا غلت ناب كليب بواؤها «1»

وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب. ألا ترى أن المعنى : ما أشدّ استكبارهم ، وما أكبر عتوّهم ، وما أغلى نابا بواؤها كليب.

[سورة الفرقان (25) : آية 22]

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (22)

يَوْمَ يَرَوْنَ منصوب بأحد شيئين : إما بما دل عليه لا بُشْرى أى : يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى أو يعدمونها. ويومئذ للتكرير. وإما بإضمار «اذكر» أى : اذكر يوم يرون الملائكة ثم قال لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ. وقوله «للمجرمين» إما ظاهر في موضع ضمير ، وإما لأنه عام ، فقد تناولهم بعمومه حِجْراً مَحْجُوراً ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو : معاذ الله ، «2» وقعدك الله ، وعمرك الله. وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوّ موتور أو هجوم نازلة ، أو نحو ذلك: يضعونها موضع الاستعاذة. قال سيبويه : ويقول الرجل للرجل : أتفعل كذا وكذا ،

(1). لرجل من بنى بكر : قبيلة جساس ، يفتخر على بنى تغلب : قبيلة كليب بن ربيعة أخى مهلهل وخال امرئ القيس. وجارة جساس: هي خالته البسوس. أبأنا - بالهمز - : أى قابلنا وساوينا كليبا ، بنابها : أى بناقتها المسنة ، فقتلناه فيها ، ثم قال تعجبا واستعظاما : غلت ، أى : ارتفعت وعظمت ناقة مسنة مهزولة بواؤها كليب المشهور.
وبواء كسواء وزنا ومعنى ، أى : كفؤها ومساويها كليب بن ربيعة الشجاع المعروف. ومن خبرها أن البسوس أتت مع رجل من جرم تزور أختها هيلة أم جساس بن مرة فخرجت ناقة الجرمي ترعى مع إبل بنى بكر في أرض تغلب لما كان بينهما من المصاهرة والمودة ، فأنكر كليب الناقة وظنها أجنبية ، فرماها بسهم فأصاب ضرعها فرجعت تشخب دما ، وبركت بفناء جساس ، فرأتها البسوس فصاحت : واذلاه ، واغربتاه! فقال جساس : اهدئى ، والله لأعقرن فيها فحلا هو أعز على أهله منها ، فظن كليب أنه يعنى فحلا عنده اسمه عليان ، فقال : دون عليان خرط القتاد ، لكن جساسا كان يعنى نفس كليب ، فترقبه يوما ورماه برمحه فصرعه ، وتبعه عمرو بن الحرث ، فلما رآه كليب قال له :
اسقني يا عمرو. فقال : تركت الماء وراءك وأجهز عليه ، فضرب به المثل المشهور :
المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار
واشتعلت الحرب بين بكر وتغلب نحو ثلاثين سنة ، وضرب المثل السائر : سد كليب في الناقة.
(2). قوله «و قعدك الله» في الصحاح : وقولهم : قعيدك لا آتيك ، وقعيدك الله لا آتيك ، وقعدك الله لا آتيك : يمين العرب ، وهي مصادر استعملت منصوبة بفعل مضمر. والمعنى : بصاحبك الذي هو صاحب كل نجوى ، كما يقال : نشدتك الله. (ع)

فيقول : حجرا ، وهي من حجره إذا منعه ، لأنّ المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا. ومجيئه على فعل أو فعل في قراءة الحسن ، تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد ، كما كان قعدك وعمرك كذلك ، وأنشدت لبعض الرّجاز :

قالت وفيها حيدة وذعر عوذ بربىّ منكم وحجر «1»

فإن قلت : فإذ قد ثبت أنه من باب المصادر ، فما معنى وصفه بمحجور؟ قلت : جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر ، كما قالوا. ذيل ذائل ، والذيل : الهوان. وموت مائت. والمعنى في الآية : أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ، وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم ، لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون ، وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدوّ الموتور «2» وشدة النازلة. وقيل : هو من قول الملائكة ومعناه : حراما محرما عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أى : جعل الله ذلك حراما عليكم.

[سورة الفرقان (25) : آية 23]

وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (23)

ليس هاهنا قدوم ولا ما يشبه القدوم ، ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وقرى ضيف ، ومنّ على أسير ، وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه ، فقدم إلى أشيائهم ، وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق ، ولم يترك لها أثرا ولا عثيرا «3» والهباء : ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار. وفي أمثالهم : أقل من الهباء مَنْثُوراً صفة للهباء ، شبهه بالهباء في قلته وحقارته عنده ، وأنه لا ينتفع به ، ثم بالمنثور منه ، لأنك تراه منتظما مع الضوء ، فإذا حركته الريح رأيته قد تناثر وذهب كل مذهب. ونحوه قوله كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفا بالأكال «4» ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثرا.

أو مفعول ثالث لجعلناه أى فجعلناه جامعا لحقارة الهباء والتناثر ، كقوله كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ أى جامعين للمسخ والخسء. ولام الهباء واو ، بدليل الهبوة.

[سورة الفرقان (25) : آية 24]

أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (24)

(1). الحيدة : الصدود ، وذعره ذعرا : فزعه. والذعر - بالضم - : اسم مصدر ، وكذلك العوذ بمعنى التعوذ والالتجاء ، وكذلك الحجر بمعنى الامتناع والتحصن ، والمبتدأ محذوف ، أى : قالت أمرى تعوذ منكم وتحصن بربي ، والحال أنها صادة فزعة ، وهذا يقال على لسانهم عند لقاء المكروه. [.....]
(2). قوله «الموتور» في الصحاح : الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. (ع)
(3). قوله «لم يترك لها أثرا ولا عثيرا» في الصحاح «العثير» بتسكين الثاء : الغبار. (ع)
(4). قوله «بالأكال» هو بالضم : الحكة. (ع)

المستقرّ : المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرّين يتجالسون ويتحادثون.

والمقيل : المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهنّ وملامستهنّ ، كما أنّ المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب. وروى أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم ، فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. وفي معناه قوله تعالى إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ قيل في تفسير الشغل : افتضاض الأبكار ، ولا نوم في الجنة. وإنما سمى مكان دعتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلا على طريق التشبيه. وفي لفظ الأحسن : رمز إلى ما يتزين به مقيلهم. من حسن الوجوه وملاحة الصور ، إلى غير ذلك من التحاسين والزين.

[سورة الفرقان (25) : آية 25]

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (25)

وقرئ تَشَقَّقُ والأصل : تتشقق ، فحذف بعضهم التاء ، وغيره أدغمها. ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها ، جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء ، كما تقول : شق السنام بالشفرة وانشق بها. ونظيره قوله تعالى السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ. فإن قلت : أى فرق بين قولك : انشقت الأرض بالنبات ، وانشقت عن النبات؟ قلت : معنى انشقت به : أنّ الله شقها بطلوعه فانشقت به. ومعنى انشقت عنه : أنّ التربة ارتفعت عنه عند طلوعه. والمعنى : أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها ، وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد. وروى تنشق سماء سماء ، وتنزل الملائكة إلى الأرض. وقيل : هو غمام أبيض رقيق ، مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل في تيههم. وفي معناه قوله تعالى هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ. وقرئ : وننزل الملائكة ، وتنزل الملائكة ، ونزل الملائكة ، ونزلت الملائكة ، وأنزل الملائكة ، ونَزَل الملائكة ، ونزل الملائكة : على حذف النون الذي هو فاء الفعل من ننزل : قراءة أهل مكة.

[سورة الفرقان (25) : آية 26]

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (26)

الحق : الثابت : لأنّ كل ملك يزول يومئذ ويبطل ، ولا يبقى إلا ملكه.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 27 إلى 29]

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً (29)

عض اليدين والأنامل ، والسقوط في اليد ، وأكل البنان ، وحرق الأسنان والأرم «1» ، وقرعها : كنايات عن الغيظ والحسرة ، لأنها من روادفها ، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف ، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه. وقيل : نزلت في عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس ، وكان يكثر مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه وقال : صبأت يا عقبة؟ قال : لا ، ولكن آلى أن لا يأكل من طعامى وهو في بيتي ، فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي ، فقال : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ قفاه وتبزق في وجهه وتلطم عينه ، فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فقتل يوم بدر : أمر عليا رضى الله عنه بقتله. وقيل : قتله عاصم بن

وإن أريد به الجنس ،

(1). قوله «و حرق الأسنان والأرم» في الصحاح : حرقت الشيء حرقا : بروته وحككت بعضه ببعض. ومنه قولهم : حرقت نابه ، أى سحقه حتى سمع له صريف. وفلان يحرق عليك الأرم غيظا. وفيه أيضا : أرم على الشيء أى : عض عليه وأرمه أيضا ، أى : أكله ، والأرم : الأضراس ، كأنه جمع آرم ، يقال : فلان يحرق عليك الأرم ، إذا تغيظ فحك أضراسه بعضها ببعض. (ع)
(2). قوله «و قال يا محمد إلى من السبية» في الصحاح «السبية» : المرأة تسبى. (ع)
(3). أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس فذكره مطولا لكن إلى قوله «فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا. ولم يقتل من الأسارى يوم بدر غيره. قتله ثابت بن أبى الأفلح» وروى الطبري من طريق مجاهد في قوله تعالى. وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ قال «دعا عقبة بن أبى معيط النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى طعام صنعه إلى قوله فشهدت له ، والشهادة ليست في نفسي» ومن طريق مقسم نحوه ، مختصرا قال فقتل عقبة يوم بدر صبرا» وأما أبى بن خلف فقتله النبي صلى اللّه عليه وسلم بيده يوم أحد في القتال وهما اللذان أنزل اللّه تعالى فيهما وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ وذكره الثعلبي ثم الواحدي من غير سند.

فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لا محالة ، فجعله كناية عنه عَنِ الذِّكْرِ عن ذكر اللّه ، أو القرآن ، أو موعظة الرسول. ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق ، وعزمه على الإسلام. والشيطان : إشارة إلى خليله ، سماه شيطانا لأنه أضله كما يضل الشيطان ، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة. أو أراد إبليس ، وأنه هو الذي حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول ، ثم خذله. أو أراد الجنس ، وكل من تشيطن من الجنّ والإنس. ويحتمل أن يكون وَكانَ الشَّيْطانُ حكاية كلام الظالم ، وأن يكون كلام اللّه. اتخذت : يقرأ على الإدغام والإظهار ، والإدغام أكثر.

[سورة الفرقان (25) : آية 30]

وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30)

الرسول : محمد صلى اللّه عليه وسلم وقومه قريش ، حكى اللّه عنه شكواه قومه إليه. وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية وتخويف لقومه لأن الأنبياء كانوا إذا التجئوا إليه وشكوا إليه قومهم : حلّ بهم العذاب ولم ينظروا.

[سورة الفرقان (25) : آية 31]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً (31)

ثم أقبل عليه مسليا ومواسيا وواعدا النصرة عليهم ، فقال وَكَذلِكَ كان كل نبىّ قبلك مبتلى بعداوة قومه ، وكفاك بى هاديا إلى طريق قهرهم والانتصار منهم ، وناصرا لك عليهم.

مهجورا : تركوه وصدّوا عنه وعن الإيمان به. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفا لم يتعاهده ولم ينظر فيه ، جاء يوم القيامة متعلقا به يقول : يا رب العالمين ، عبدك هذا اتخذني مهجورا، اقض بيني وبينه «1». وقيل : هو من هجر ، إذا هذى ، أى : جعلوه مهجورا فيه ، فحذف الجار وهو على وجهين ، أحدهما : زعمهم أنه هذيان وباطل وأساطير الأوّلين. والثاني : أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه ، كقوله تعالى لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر ، كالمجلود والمعقول. والمعنى : اتخذوه هجرا.

والعدوّ : يجوز أن يكون واحدا وجمعا. كقوله فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي وقيل المعنى : وقال الرسول يوم القيامة.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 32 إلى 34]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً (32) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً(34)

(1). أخرجه الثعلبي من طريق أبى هدية عن أنس وأبو هدية كذاب.

نُزِّلَ هاهنا بمعنى أنزل لا غير ، كخبر بمعنى أخبر ، وإلا كان متدفعا. وهذا أيضا من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه. قالوا : هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة ، وماله أنزل على التفاريق. والقائلون : قريش. وقيل : اليهود. وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته ، لأنّ أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرّقا. وقوله كَذلِكَ جواب لهم، أى : كذلك أنزل مفرّقا. والحكمة فيه : أن نقوّى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه ، لأنّ المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء ، وجزأ عقيب جزء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا «1» بحفظه ، والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام ، حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بدّ من التلقن والتحفظ ، فأنزل عليه منجما في عشرين سنة. وقيل : في ثلاث وعشرين. وأيضا : فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ، ولأنّ بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرّقا. فإن قلت : ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدّمه ، والذي تقدّم هو إنزاله جملة واحدة ، فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرّقا؟ قلت : لأنّ قولهم : لو لا أنزل عليه جملة: معناه : لم أنزل مفرّقا؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض : أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه ، وتحدّوا بسورة واحدة من أصغر السور ، فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة ، ثم قالوا : هلا نزل جملة واحدة ، كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته وَرَتَّلْناهُ معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك ، كأنه قال : كذلك فرقناه ورتلناه. ومعنى ترتيله : أن قدره آية بعد آية ، ووقفة عقيب وقفة. ويجوز أن يكون المعنى : وأمرنا بترتيل قراءته ، وذلك قوله وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا أى اقرأه بترسل وتثبت. ومنه حديث عائشة رضى الله عنها في صفة قراءته صلى الله عليه وسلم «لا كسردكم هذا ، لو أراد السامع أن يعدّ حروفه يعدّها» «2» وأصله : الترتيل في الأسنان :

(1). قوله «لبعل به وتعيا بحفظه» في الصحاح : بعل الرجل - بالكسر - : أى دهش : وفيه أيضا : عييت بأمرى ، إذا لم تهتد لوجهه. وأعيا عليه الأمر وتعيا وتعايا ، بمعنى اه فتدبر. (ع)
(2). أخرجه البخاري. من رواية عروة. قال «جلس أبو هريرة رضى الله عنه إلى حجرة عائشة رضى الله عنها فقال إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يحدث الحديث لوعده العاد لأحصاه» ولمسلم «لم يكن يسرد الحديث كسردكم» وزاد الترمذي والنسائي ولكن كان يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس اليه» وسيأتى في المزمل.

وهو تفليجها. يقال : ثغر رتل ومرتل ، ويشبه بنور الأقحوان في تفليجه. وقيل : هو أن نزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة ، ولم يفرقه في مدة متقاربة وَلا يَأْتُونَكَ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة - كأنه مثل في البطلان - إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ، ومؤدّى من سؤالهم. ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام ، وضع موضع معناه فقالوا : تفسير هذا الكلام كيت وكيت ، كما قيل : معناه كذا وكذا. أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون : هلا كانت هذه صفتك وحالك ، نحو : أن يقرن بك ملك ينذر معك ، أو يلقى إليك كنز ، أو تكون لك جنة ، أو ينزل عليك القرآن جملة ، إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه ، وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته ، يعنى : أن تنزيله مفرقا وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها : أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه ، كأنه قيل لهم : إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته. ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم ، لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم أضل من سبيله. وفي طريقته قوله هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ... الآية ويجوز أن يراد بالمكان : الشرف والمنزلة ، وأن يراد الدار والمسكن ، كقوله أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازى وعن النبي صلى الله عليه وسلم : يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث : ثلث على الدواب وثلث على وجوههم ، وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا «1».

[سورة الفرقان (25) : الآيات 35 إلى 36]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (35) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (36)

(1). أخرجه البيهقي من طريق مسدد عن بشر بن المفضل عن على بن زيد عن أوس بن أبى أوس. عن أبى هريرة مرفوعا بهذا. وأصله في الترمذي والبزار وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة من هذا الوجه لكن قال عن أوس ابن خالد وعند الحاكم من رواية أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن أبى ذر حدثني الصادق المصدوق «أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج. فوجا طاعمين لا بسين راكبين. وفوجا يمشون ويسعون. وفوجا تسحيهم الملائكة على وجوههم إلى النار» وفي الترمذي والنسائي من رواية معاوية بن جبلة حدثنا يهز بن حكيم رفعه «إنكم محشورون إلى الله ركبانا ورجالا وتمرون على وجوهكم».

الوزارة : لا تنافى النبوّة ، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا. والمعنى : فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم ، كقوله اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ أى فضرب فانفلق. أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أوّلها وآخرها ، لأنهما المقصود من القصة بطولها أعنى : إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم. وعن علىّ رضى الله عنه فدمّرتهم. وعنه : فدمّراهم. وقرئ فدمّرانّهم ، على التأكيد بالنون الثقيلة.

[سورة الفرقان (25) : آية 37]

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (37)

كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا. أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع أو لم يروا بعثة الرسل أصلا كالبراهمة وَجَعَلْناهُمْ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم لِلظَّالِمِينَ إمّا أن يعنى بهم قوم نوح ، وأصله : وأعتدنا لهم ، إلا أنه قصد تظليمهم فأظهر. وإمّا أن يتناولهم بعمومه.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 38 إلى 39]

وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (38) وَكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً (39)

عطف عادا على «هم» في جعلناهم أو على الظالمين ، لأنّ المعنى : ووعدنا الظالمين. وقرئ : وثمود ، على تأويله القبلة. وأما المنصرف فعلى تأويل الحىّ أو لأنه اسم الأب الأكبر. قيل في أصحاب الرس : كانوا قوما من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش ، فبعث الله إليهم شعيبا فدعاهم إلى الإسلام. فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه. فبيناهم حول الرس وهو البئر غير المطوية. عن أبى عبيدة : انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم. وقيل : الرس قرية بفلج اليمامة ، قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح. وقيل : هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان ، كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير ، سميت لطول عنقها ، وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح ، وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم ، إن أعوزها الصيد. فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا : وقيل : هم أصحاب الأخدود ، والرس : هو الأخدود.

وقيل الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار. وقيل : كذبوا نبيهم ورسوه في بئر ، أى : دسوه فيها بَيْنَ ذلِكَ أى بين ذلك المذكور ، وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ، ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول: فذلك كيت وكيت على معنى : فذلك المحسوب أو المعدود ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ بينا له القصص العجيبة من قصص الأوّلين ، ووصفنا لهم ما أجروا إليه من تكذيب الأنبياء وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره. والتتبير : التفتيت والتكسير.

ومنه : التبر ، وهو كسار الذهب والفضة والزجاج. وكُلًّا الأوّل منصوب بما دل عليه ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وهو : أنذرنا. أو : حذرنا. والثاني بتبرنا ، لأنه فارغ له.

[سورة الفرقان (25) : آية 40]

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (40)

أراد بالقرية «سدوم» من قرى قوم لوط ، وكانت خمسا : أهلك اللّه تعالى أربعا بأهلها وبقيت واحدة. ومطر السوء : الحجارة ، يعنى أن قريشا مرّوا مرارا كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء أَفَلَمْ يَكُونُوا في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب اللّه ونكاله ويذكرون بَلْ كانُوا قوما كفرة بالبعث لا يتوقعون نُشُوراً وعاقبة ، فوضع الرجاء موضع التوقع ، لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا ، ومرّوا بها كما مرّت ركابهم. أو لا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم. أو لا يخافون ، على اللغة التهامية.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 41 إلى 42]

وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (41) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (42)

إِنْ الأولى نافية ، والثانية مخففة من الثقيلة. واللام هي الفارقة بينهما. واتخذه هزوا : في معنى استهزأ به ، والأصل : اتخذه موضع هزؤ ، أو مهزوءا به أهذا محكي بعد القول المضمر.

وهذا استصغار ، وبَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا وإخراجه في معرض التسليم والإقرار ، وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ، ولو لم يستهزءوا لقالوا : أهذا الذي زعم أو ادّعى أنه مبعوث من عند اللّه رسولا. وقولهم إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا دليل على فرط مجاهدة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في دعوتهم ، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم ، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ، ولَوْلا في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى - لا من حيثالصنعة - مجرى التقييد للحكم المطلق وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدّة الإمهال ، ولا بدّ للوعيد أن يلحقهم فلا يغرّنهم التأخير. وقوله مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا كالجواب عن قولهم إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا لأنه نسبة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى الضلال من حيث لا يضلّ غيره إلا من هو ضال في نفسه. ويروى أنه من قول أبى جهل لعنه اللّه.

[سورة الفرقان (25) : آية 43]

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43)

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتى ويذر لا يتبصر دليلا ولا يصغى إلى برهان. فهو عابد هواه وجاعله إلهه ، فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام وتقول لا بدّ أن تسلم شئت أو أبيت - ولا إكراه في الدين؟ وهذا كقوله وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ويروى أنّ الرجل منهم كان يعبد الحجر ، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر. ومنهم الحرث بن قيس السهمي.

[سورة الفرقان (25) : آية 44]

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)

أم هذه منقطعة ، معناه ، بل أتحسب كأن هذه المذمة أشدّ من التي تقدّمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا ، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال ، ثم أرجح ضلالة منها. فإن قلت لم أخر هواه والأصل قولك : اتخذ الهوى إلها؟ قلت : ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأوّل للعناية ، كما تقول : علمت منطلقا زيدا : لفضل عنايتك بالمنطلق «1». فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر؟ قلت : كان فيهم من لم يصدّه عن الإسلام إلا داء واحد : وهو حب الرياسة ، وكفى به داء عضالا. فإن قلت : كيف جعلوا أضل من الإنعام؟ قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها «و تهتدى لمراعيها ومشاربها. وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوّهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشدّ المضارّ والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهنيّ والعذب الروى.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 45 إلى 46]

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (45) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (46)

(1). قال محمود : «إن قلت لم قدم إلهه وهو المفعول الثاني ، وأجاب بأنه قدم عناية به كقولك ظننت منطلقا زيدا إذا كانت عنايتك بالمنطلق» قال أحمد : وفيه نكتة حسنة وهي إفادة الحصر ، فان الكلام قبل دخول أرأيت مبتدأ وخبر : المبتدأ هواه ، والخبر إلهه. وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر ، فكأنه قال : أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه ، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه ، والله أعلم.

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ، ومعنى مدّ الظل : أن جعله يمتدّ وينبسط فينتفع به الناس وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً أى لاصقا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة ، غير منبسط فلم ينتفع به أحد : سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا. ومعنى كون الشمس دليلا : أنّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل ، من كونه ثابتا في مكان زائلا «1» ومتسعا ومتقلصا ، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك. وقبضه إليه : أنه ينسخه بضح الشمس «2» يَسِيراً أى على مهل. وفي هذا القبض اليسير شيئا بعد شيء من المنافع ما لا يعدّ ولا يحصر ، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا. فإن قلت : ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت : موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة : كان الثاني أعظم من الأوّل ، والثالث أعظم منهما ، تشبيها لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت. ووجه آخر : وهو أنه مدّ الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب «3» لعدم النير ، ولو شاء لجعله ساكنا مستقرّا على تلك الحالة ، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل ، أى : سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل في الطريق ، فهو يزيد بها وينقص ، ويمتدّ ويتقلص ، ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير. ويحتمل أن يريد : قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تبقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه ، وقوله : قبضناه إلينا : يدل عليه ، وكذلك قوله يسيرا ، كما قال ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ

[سورة الفرقان (25) : آية 47]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (47)

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر. والسبات : الموت. والمسبوت : الميت ، لأنه مقطوع الحياة ، وهذا كقوله وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ. فإن قلت : هلا فسرته بالراحة؟

قلت : النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق «4».

(1). قوله «زائلا» لعله زائلا عن آخر. (ع)
(2). قوله «أنه ينسخه بضح الشمس» في الصحاح : ضحضح السراب وتضحضح ، إذا ترقرق. والضح : الشمس. وفي الحديث «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل» فانه مقعد الشيطان. (ع)
(3). قوله «ظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب» في الصحاح «الفينان» الطويل ، وفيه «الأدم» جمع الأديم ، مثل : أفيق وأفق ، وربما سمى وجه الأرض أديما. وفيه : جاب يجوب جوبا ، إذا خرق وقطع ، فتدبر. (ع) [.....]
(4). قوله «يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق» في الصحاح «العيوف» من الإبل : الذي يشم الماء فيدعه وهو عطشان. وفيه : رنقته ترنيقا : كدرته. (ع)

وهذه الاية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه ، لأنّ الاحتجاب بستر الليل ، كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية ، والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة ، أى عبرة فيها لمن اعتبر.

وعن لقمان أنه قال لابنه : يا بنى ، كما تنام فتوقظ ، كذلك تموت فتنشر.

[سورة الفرقان (25) : آية 48]

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (48)

قرئ : الريح. والرياح نشرا : إحياء. ونشرا : جمع نشور ، وهي المحيية. ونشرا : تخفيف نشر ، وبشرا تخفيف بشر : جمع بشور وبشرى. وبَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ استعارة مليحة ، أى : قدام المطر طَهُوراً بليغا في طهارته. وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهرا في نفسه مطهرا لغيره ، فإن كان ما قاله شرحا لبلاغته في الطهارة كان سديدا. ويعضده قوله تعالى وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وإلا فليس «فعول» من التفعيل في شيء. والطهور على وجهين في العربية : صفة ، واسم غير صفة ، فالصفة قولك : ماء طهور ، كقولك : طاهر ، والاسم قولك لما يتطهر به : طهور ، كالوضوء والوقود ، لما يتوضأ به وتوقد به النار. وقولهم : تطهرت طهورا حسنا ، كقولك : وضوءا حسنا ، ذكره سيبويه. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ، لا صلاة إلا بطهور «1»» أى طهارة. فإن قلت : ما الذي يزيل عن الماء اسم الطهور؟ قلت : تيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظنّ ، تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير. أو استعماله في البدن لأداء عبادة عند أبى حنيفة وعند مالك بن أنس رضى الله عنهما : ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور. فإن قلت : فما تقول في قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن بئر بضاعة فقال : «الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه «2»»؟ قلت: قال الواقدي : كان بئر بضاعة طريقا للماء إلى البساتين.

[سورة الفرقان (25) : آية 49]

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (49)

وإنما قال مَيْتاً لأنّ البلدة في معنى البلد في قوله : فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، وأنه غير جار على الفعل كفعول ومفعال ومفعيل.

(1). أخرجه الترمذي عن ابن عمر رضى الله عنهما «لا تقبل صلاة إلا بطهور» وأصله في مسلم والطبراني من طريق عيسى بن صبرة عن أبيه عن جده «لا صلاة إلا بوضوء» وفي الباب عن جماعة من الصحابة. قلت: استوفيت طرقه في أول شرحي على الترمذي ولم يذكر المخرج منها إلا شيئا يسيرا
(2). لم أجده هكذا. بل هو ملفق من حديثين فالأول أخرجه أصحاب السنن من حديث رافع بن خديج. قال يا رسول الله. أنتوضأ من بضاعة وهي بئر يلقى فيها الجيف ولحوم الكلاب والنتن فقال : الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غلب على لونه أو طعمه أو ريحه. وقد استوفيت طرقها في تخريج أحاديث الرافعي.

وقرئ : نسقيه بالفتح. وسقى ، وأسقى : لغتان. وقيل : أسقاه : جعل له سقيا. الأناسى : جمع إنسى أو إنسان. ونحوه ظرابى في ظربان ، على قلب النون ياء ، والأصل : أناسين وظرابين. وقرئ بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل ، كقولك : أناعم ، في : أناعيم. فإن قلت : إنزال الماء موصوفا بالطهارة وتعليله بالإحياء والسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك ، كما تقول : حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش. قلت : لما كان سقى الأناسي من جملة ما أنزل له الماء ، وصفه بالطهور إكراما لهم ، وتتميما للمنة عليهم ، وبيانا أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم ، وأن يربئوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما ربأ بهم ربهم. فإن قلت : لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟ قلت : لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب ، بخلاف الأنعام : ولأنها قنية الأناسى ، وعامة منافعهم متعلقة بها ، فكان الإنعام عليهم بسقى أنعامهم كالإنعام بسقيهم. فإن قلت : فما معنى تنكير الأنعام والأناسى ووصفها بالكثرة؟ قلت : معنى ذلك أن عليه الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء ، فبهم غنية عن سقى السماء ، وأعقابهم - وهم كثير منهم - لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه ، وكذلك قوله لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء. فإن قلت : لم قدم إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناسى؟ قلت : لأنّ حياة الأناسىّ بحياة أرضهم وحياة أنعامهم ، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم ، لم يعدموا سقياهم.

[سورة الفرقان (25) : آية 50]

وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (50)

يريد : ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم السلام - وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر - ليفكروا ويعتبروا ، ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا فَأَبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها. وقيل : صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل ، وجود ورذاذ ، وديمة ورهام «1» فأبوا إلا الكفور وأن

(1). قوله «ورذاذ وديمة ورهام» الرذاذ : مطر ضعيف. والرهام. جمع رهمة وهي المطرة الضعيفة الدائمة ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). أخرجه الحاكم والطبري من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال : «ما من عام أمطر من عام. ولكن الله يصرفه ... الخ» وفي الباب عن ابن مسعود أخرجه العقيلي من رواية على بن حميد عن شعبة ، أخرجه العقيلي من رواية على بن حميد عن شعبة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عنه وقال : لا يتابع على رفعه.
ثم أخرجه موقوفا من رواية عمر بن مرزوق عن شعبة وقال : هذا أولى ، وأورده ابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود مرفوعا.

وروى أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام ، لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد.

وينتزع من هاهنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسى ، كأنه قال : لنحيي به بعض البلاد الميتة ، ونسقيه بعض الأنعام والأناسى ، وذلك البعض كثير. فإن قلت : هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء؟ قلت : إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله : فهو كافر. وإن كان يرى أن الله خالقها وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها : لم يكفر.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 51 إلى 52]

وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (51) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (52)

يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم وَلَوْ شِئْنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى.

ولَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نبيا ينذرها. وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به ، وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالتشدد والتصبر فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ فيما يريدونك عليه ، وإنما أراد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم. والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذي يدل عليه : فَلا تُطِعِ والمراد : أن الكفار يجدون ويجتهدون في توهين أمرك ، فقابلهم من جدك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به وتعلوهم ، وجعله جهادا كبيرا لما يحتمل فيه من المشاق العظام. ويجوز أن يرجع الضمير في بِهِ إلى ما دل عليه : وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً من كونه نذير كافة القرى ، لأنه لو بعث في كل قرية نذيرا لو جبت على كل نذير مجاهدة قريته ، فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها ، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم ، فقال له وَجاهِدْهُمْ بسبب كونك نذير كافة القرى جِهاداً كَبِيراً جامعا لكل مجاهدة.

[سورة الفرقان (25) : آية 53]

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53)

سمى الماءين الكثيرين الواسعين : بحرين ، والفرات : البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة.

والأجاج : نقيضه ، ومرجهما : خلاهما متجاورين متلاصقين ، وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج. وهذا من عظيم اقتداره. وفي كلام بعضهم : وبحران : أحدهما مع الآخر ممروج ، وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج «1» بَرْزَخاً حائلا من قدرته ، كقوله تعالى بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها يريد بغير عمد مرئية ، وهو قدرته. وقرئ : ملح ، على فعل. وقيل : كأنه حذف من مالح تخفيفا ، كما قال : وصليانا بردا ، بريد : باردا : فإن قلت : وَحِجْراً مَحْجُوراً ما معناه؟

قلت : هي الكلمة التي يقولها المتعوذ ، وقد فسرناها ، وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز ، كأن كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له : حجرا محجورا ، كما قال لا يَبْغِيانِ أى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالممازجة ، فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ هاهنا : جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه ، فهو يتعوّذ منه. وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة.

[سورة الفرقان (25) : آية 54]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً (54)

أراد : فقسم البشر قسمين ذوى نسب ، أى : ذكورا ينسب إليهم ، فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر : أى إناثا يصاهر بهنّ ، ونحوه قوله تعالى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى . وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً حيث خلق من النطفة الواحدة بشرا نوعين : ذكرا وأنثى.

[سورة الفرقان (25) : آية 55]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (55)

الظهير والمظاهر ، كالعوين والمعاون. و«فعيل» بمعنى مفاعل غير عزيز. والمعنى : أنّ الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك. روى أنها نزلت في أبى جهل ، ويجوز أن يريد بالظهير : الجماعة ، كقوله وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ كما جاء : الصديق والخليط ، يريد بالكافر : الجنس ، وأنّ بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله. وقيل : معناه : وكان الذي يفعل هذا الفعل - وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر - على ربه هينا مهينا ، من قولهم : ظهرت به ، إذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت إليه ، وهذا نحو قوله أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 56 إلى 57]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (56) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (57)

(1). قوله «ممزوج» لعله : غير ممزوج ، فليحرر. (ع)

مثال إِلَّا مَنْ شاءَ والمراد : إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال : ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه.

فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ، ولكن صوّره هو بصورة الثواب وسماه باسمه ، فأفاد فائدتين ، إحداهما : قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله ، كأنه يقول لك : إن كان حفظك لمالك ثوابا فإنى أطلب الثواب، والثانية : إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظت مالك : اعتدّ بحفظك ثوابا ورضى به كما يرضى المثاب بالثواب. ولعمري إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه. ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا : تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة. وقيل : المراد التقرّب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

[سورة الفرقان (25) : آية 58]

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (58)

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شرورهم ، مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده ، وعرّفه أن الحي الذي لا يموت ، حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون. وعن بعض السلف أنه قرأها فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق ، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء ، آمنوا أم كفروا ، وأنه خبير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم.

[سورة الفرقان (25) : آية 59]

الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (59)
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ يعنى في مدة : مقدارها هذه المدّة ، لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل. وقيل : ستة أيام من أيام الآخرة، وكلّ يوم ألف سنة. والظاهر أنها من أيام الدنيا. وعن مجاهد : أوّلها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة. ووجهه أن يسمى الله لملائكته تلك الأيام المقدرة بهذه الأسماء فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه ، جرت التسمية على هذه الأيام. وأما الداعي إلى هذا العدد - أعنى الستة دون سائر الأعداد - فلا نشك أنه داعى حكمة ، لعلمنا أنه لا يقدّر تقديرا إلا بداعي حكمة ، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلى معرفته. ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر ، وحملة العرش ثمانية ، والشهور اثنى عشر ، والسماوات سبعا والأرض كذلك ، والصلوات خمسا ، وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك. والإقرار

وقد نص عليه في قوله وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً ، وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً ، وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا ثم قال وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وهو الجواب أيضا في أن لم يخلقها في لحظة ، وهو قادر على ذلك. وعن سعيد بن جبير رضى الله عنهما. إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة ، تعليما لخلقه الرفق والتثبت. وقيل : اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين. الذي خلق مبتدأ. والرَّحْمنُ خبره. أو صفة للحىّ ، والرحمن : خبر مبتدإ محذوف.

أو بدل عن المستتر في استوى. وقرئ : الرحمن ، بالجرّ صفة للحىّ. وقرئ فسل ، والباء في به صلة سل ، كقوله تعالى سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ كما تكون عن صلته في نحو قوله ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ فسأل به ، كقوله : اهتمّ به ، واعتنى به ، واشتغل به. وسأل عنه كقولك : بحث عنه ، وفتش عنه ، ونقر عنه. أو صلة خبيرا : وتجعل خبيرا مفعول سل ، يريد : فسل عنه رجلا عارفا يخبرك برحمته. أو فسل رجلا خبيرا به وبرحمته. أو : فسل بسؤاله خبيرا ، كقولك : رأيت به أسدا ، أى برؤيته. والمعنى : إن سألته وجدته خبيرا.

أو تجعله حالا عن الهاء ، تريد : فسل عنه عالما بكل شيء. وقيل : الرحمن اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدمة ، ولم يكونوا يعرفونه ، فقيل : فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب ، حتى يعرف من ينكره. ومن ثمة كانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة ، يعنون مسيلمة. وكان يقال له : رحمن اليمامة :

[سورة الفرقان (25) : آية 60]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً (60)

وَمَا الرَّحْمنُ يجوز أن يكون سؤالا عن المسمى به ، لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم ، والسؤال عن المجهول ب «ما». ويجوز أن يكون سؤالا عن معناه ، لأنه لم يكن مستعملا في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم. أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى لِما تَأْمُرُنا أى للذي تأمرناه ، بمعنى تأمرنا سجوده : على قوله : أمرتك الخير. أو لأمرك لنا. وقرئ بالياء ، كأن بعضهم قال لبعض : أنسجد لما يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم. أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو. وفي زادَهُمْ ضمير اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ لأنه هو المقول.

[سورة الفرقان (25) : آية 61]

تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً (61)

البروج : منازل الكواكب السبعة السيارة : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت : سميت بالبروج التي هي القصور العالية ، لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها. واشتقاق البرج من التبرج ، لظهوره. والسراج : الشمس كقوله تعالى وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً وقرئ.

سرجا ، وهي الشمس والكواكب الكبار معها. وقرأ الحسن والأعمش : وقمرا منيرا ، وهي جمع ليلة قمراء ، كأنه قال : وذا قمر منيرا لأنّ الليالي تكون قمرا بالقمر ، فأضافه إليها.

ونظيره - في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه - قول حسان : بردي يصفّق بالرّحيق السّلسل «1»

يريد : ماء بردي ، ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر ، كالرشد والرشد ، والعرب والعرب.

[سورة الفرقان (25) : آية 62]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (62)

الخلفة من خلف ، كالركبة من ركب : وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كلّ واحد منهما الآخر. والمعنى : جعلهما ذوى خلفة ، أى : ذوى عقبة ، أى : يعقب هذا ذاك وذاك هذا.

ويقال : الليل والنهار يختلفان ، كما يقال : يعتقبان. ومنه قوله وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ويقال : بفلان «2» خلفة واختلاف ، إذا اختلف كثيرا إلى متبرّزه. وقرئ : يذكر ويذكر.

وعن أبىّ بن كعب رضى الله عنه : يتذكر. والمعنى لينظر في اختلافهما الناظر ، فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال ، وتغيرهما من ناقل ومغير. ويستدل بذلك على عظم قدرته ، ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار ، كما قال عز وعلا : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين ، من فاته في أحدهما ورده من العبادة قام به في الآخر. وعن الحسن رضى الله عنه : من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب. ومن فاته بالليل : كان له في النهار مستعتب.

[سورة الفرقان (25) : آية 63]

وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (63)

وَعِبادُ الرَّحْمنِ مبتدأ خبره في آخر السورة ، كأنه قيل : وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 84 فراجعه إن شئت اه مصححه
(2). قوله «و يقال بفلان خلفة» لعله : لفلان. (ع)

ويجوز أن يكون خبره الَّذِينَ يَمْشُونَ وأضافهم إلى الرحمن تخصيصا وتفضيلا. وقرئ : وعباد الرحمن. وقرئ: يمشون هَوْناً حال ، أو صفة للمشي ، بمعنى : هينين. أو : مشيا هينا ، إلا أنّ في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة. والهون : الرفق واللين.

ومنه الحديث «أحبب حبيبك هونا «1» مّا» وقوله «المؤمنون هينون لينون «2»» والمثل : إذا عزّ أخوك فهن. ومعناه : إذا عاسر فياسر. والمعنى : أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع ، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ، ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ، ولقوله وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ. سَلاماً تسلما منكم لا نجاهلكم ، ومتاركة لا خير بيننا ولا شر ، أى : نتسلم منكم تسلما ، فأقيم السلام مقام التسلم. وقيل : قالوا سدادا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم. والمراد بالجهل : السفه وقلة الأدب وسوء الرعة ، «3» من قوله : ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا «4»

وعن أبى العالية : نسختها آية القتال ، ولا حاجة إلى ذلك لأنّ الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة ، وأسلم للعرض والورع.

[سورة الفرقان (25) : آية 64]

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً (64)

(1). أخرجه الترمذي من رواية أيوب عن ابن سيرين عن أبى هريرة تفرد به سويد بن عمرو عن حماد بن سلمة عن أيوب قال الترمذي. غريب. وقال ابن حبان ، في الضعفاء : سويد بن عمرو يضع المتون الواهية على الأسانيد الصحيحة. وليس هذا من حديث أبى هريرة. وإنما هو من قول على رضى الله عنه. وقد رفعه الحسن بن أبى جعفر عن أيوب عن حميد بن عبد الرحمن عن على. وهو خطأ فاحش. ورواية الحسن بن أبى جعفر في فوائد تمام وأخرجه ابن عدى من طريق الحسن بن دنيا - عن ابن سيرين عن أبى هريرة. قال : الحسن بن دنيا - أجمعوا على ضعفه ورواه الطبراني في الأوسط. من رواية أبى الزناد عن الأعرج. عن أبى هريرة لكن الراوي له عن أبى الزناد متروك. وهو عباد بن كثير. وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الطبراني وفيه أبو السلط الهروي. وهو متروك وعن ابن عمرو بن العاص أخرجه أيضا من طريق محمد بن كثير الضمري. عن ابن لهيعة ، عن أبى نهشل عنه وهذا إسناد واه جدا. والموقوف عن على. أخرجه البيهقي في الشعب في الحادي والأربعين من رواية أبى إسحاق عن صبرة بن يزيد ثم عن على. وقال الدارقطني. الصحيح على على موقوف
(2). أخرجه ابن المبارك في الزهد قال أخبرنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول بهذا مرسلا «و زاد كالجمل الأنف الذي إن قيد انقاد. وإن ينخ على صخرة أناخ» وأخرجه البيهقي في الشعب في السادس والخمسين من هذا الوجه قال هذا مرسل ثم أخرجه من طريق العقيلي في منكرات عبد الله بن عبد العزيز. وفي الباب عن ابن أنس مرفوعا ذكره ابن طاهر في الكلام على أحاديث الشهاب. وفيه زكريا بن يحيى الوقاد وهو واهى الحديث.

(3). قوله «و سوء الرعة» في الصحاح : يقال : فلان سيئ الرعة ، أى : قليل الورع. وفيه : قيل ذلك الورع - بكسر الراء - : الرجل التقى. وقد ورع يرع - بالكسر فيهما - ورعا ورعة. (ع)
(4). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 390 فراجعه إن شئت اه مصححه.

البيتوتة : خلاف الظلول ، وهو أن يدركك الليل ، نمت أو لم تنم ، وقالوا : من قرأ شيئا من القرآن في صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدا وقائما. وقيل : هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء. والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره. يقال : فلان يظل صائما ويبيت قائما.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 65 إلى 66]

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (65) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (66)

غَراماً هلاكا وخسرانا ملحا لازما قال : ويوم النّسار ويوم الجفا ر كانا عذابا وكانا غراما «1» وقال : إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنّه لا يبالى» ومنه : الغريم : لإلحاجه وإلزامه. وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه ، إيذانا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم ، كقوله تعالى وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ. ساءَتْ في حكم «بئست» وفيها ضمير مبهم يفسره : مستقرّا. والمخصوص بالذم محذوف ، معناه : ساءت مستقرّا ومقاما هي. وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إنّ وجعلها خبرا لها. ويجوز أن يكون ساءَتْ بمعنى : أحزنت. وفيها ضمير اسم إنّ. ومُسْتَقَرًّا حال أو تمييز ، والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين ، وأن يكونا من كلام الله وحكاية لقولهم.

[سورة الفرقان (25) : آية 67]

وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (67)

قرئ يَقْتُرُوا بكسر التاء وضمها. ويقتروا ، بتخفيف التاء وتشديدها. والقتر والإقتار والتقتير : التضييق الذي هو نقيض الإسراف. والإسراف : مجاوزة الحدّ في النفقة. ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير.

(1). لبشر بن أبى حازم. والنسار : ماء لبنى عامر. والجفار : ماء لبنى تميم ينجد ، يقول : واقعة النسار وواقعة الجفار ، كانا عذابا على أهلهما ، وكانا غراما ، أى : هلاكا لازما لهم. وقيل : شرا دائما.
(2). للأعشى ، يقول : إن يعاقب هذا الممدوح أعداءه يكن غراما أى هلاكا ملازما لهم. وإن يعط السائل عطاء جزيلا عظيما فانه لا يبالى به ولا يكترث به ولا يستكثره ، فهو شجاع جواد. [.....]

وبمثله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ وقيل : الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي ، فأما في القرب فلا إسراف. وسمع رجل رجلا يقول : لا خير في الإسراف. فقال : لا إسراف في الخير. وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوّجه ابنته وأحسن إليه ، فقال : وصلت الرحم وفعلت وصنعت ، وجاء بكلام حسن ، فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعدّه لهذا المقام ، فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر ، فسأله عن نفقته وأحواله فقال : الحسنة بين السيئتين ، فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه : يا بنىّ ، أهذا أيضا مما أعدّه؟ وقيل : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ، ولكن كانوا يأكلون ما يسدّ جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحرّ والقرّ «1».

وقال عمر رضى الله عنه : كفى سرفا أن لا يشتهى رجل شيئا إلا اشتراه فأكله «2». والقوام : العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما. ونظير القوام من الاستقامة : السواء من الاستواء. وقرئ : قواما ، بالكسر ، وهو ما يقام به الشيء. يقال : أنت قوامنا ، بمعنى ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص ، والمنصوبان أعنى بَيْنَ ذلِكَ قَواماً : جائز أن يكونا خبرين معا ، وأن يجعل بين ذلك لغوا ، وقواما مستقرا. وأن يكون الظرف خبرا ، وقواما حالا مؤكدة. وأجاز الفراء أن يكون بَيْنَ ذلِكَ اسم كان ، على أنه مبنى لإضافته إلى غير متمكن ، كقوله : لم يمنع الشّرب منها غير أن نطقت «3» وهو من جهة الإعراب لا بأس به ، ولكن المعنى ليس بقوى لأنّ ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة ، فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 68 إلى 70]

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (68) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (69) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70)

(1). قوله «و القر» أى البرد. (ع)
(2). أخرجه عبد الرزاق في التفسير عن ابن عيينة عن رجل عن الحسن عن عمر بن الخطاب وهذا منقطع من طريقه. رواه الثعلبي. ورواه أحمد في الزهد عن إسماعيل عن يونس عن الحسن كذلك ورواه ابن ماجة وأبو يعلى والبيهقي في الشعب من طريق نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس رضى الله عنه مرفوعا والأول أصح
(3). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 422 فراجعه إن شئت اه مصححه.

حَرَّمَ اللَّهُ أى حرّمها. والمعنى : حرّم قتلها. وإِلَّا بِالْحَقِّ متعلق بهذا القتل المحذوف.

أو بلا يقتلون ، ونفى هذه المقبحات العظام على الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين ، للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم ، كأنه قيل : والذين برأهم الله وطهرهم مما أنتم عليه. والقتل بغير الحق : يدخل فيه الوأد وغيره. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قلت : يا رسول الله ، أىّ الذنب أعظم؟ قال : «أن تجعل لله ندّا وهو خلقك» قلت : ثم أىّ؟ قال «أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك» قلت : ثم أى؟ قال «أن تزانى حليلة جارك» «1» فأنزل الله تصديقه. وقرئ : يلق فيه أثاما. وقرئ : يلقى ، بإثبات الألف ، وقد مر مثله. والآثام : جزاء الإثم ، بوزن الوبال والنكال ومعناهما. قال : جزي الله ابن عروة حيث أمسى عقوقا والعقوق له أثام «2» وقيل هو الإثم. ومعناه : يلق جزاء أثام. وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : أياما «3» ، أى شدائد. يقال : يوم ذو أيام : لليوم العصيب. يُضاعَفْ بدل من يلق ، لأنهما في معنى واحد ، كقوله : متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأجّجا «4»

وقرئ : يضعف ، ونضعف له العذاب ، بالنون ونصب العذاب. وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال ، وكذلك يَخْلُدْ وقرئ : ويخلد ، على البناء للمفعول مخففا ومثقلا ، من الإخلاد والتخليد. وقرئ : وتخلد ، بالتاء على الالتفات يُبَدِّلُ مخفف ومثقل ، وكذلك سيئاتهم. فإن قلت : ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات؟ قلت : إذا ارتكب المشرك معاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعا ، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه. وإبدال السيئات حسنات : أنه يمحوها بالتوبة ، ويثبت مكانها الحسنات : الإيمان، والطاعة ، والتقوى. وقيل : يبدّلهم بالشرك إيمانا ، وبقتل المسلمين : قتل المشركين ، وبالزنا : عفة وإحصانا.

(1). متفق عليه من رواية أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل عنه.
(2). العقوق - بالفتح - : كثير العقوق بالضم ، وهو منع بر الوالدين وقطع صلتهما ، والأثام - كالوبال - : جزاء الإثم. وقيل : هو الإثم ، فسمي به مسببه وهو الجزاء ، ومفعول جزى الثاني محذوف. وعقوقا خبر أمسى.
والعقوق : مبتدأ ، أى : لا بد العقوق من جزاء سيء عظيم.
(3). قوله «أياما» وفي الصحاح «الأيام» الدخان. (ع)
(4). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 331 فراجعه إن شئت اه مصححه.

[سورة الفرقان (25) : آية 71]

وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (71)

يريد. ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله مَتاباً مرضيا عنده مكفرا للخطايا محصلا للثواب. أو فإنه تائب متابا إلى الله الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون ، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين. وفي كلام بعض العرب : لله أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد ، والظمآن الوارد ، والعقيم الوالد. أو : فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعا حسنا وأىّ مرجع.

[سورة الفرقان (25) : آية 72]

وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (72)

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها ، تنزها عن مخالطة الشر وأهله ، وصيانة لدينهم عما يثلمه لأنّ مشاهد الباطل شركة فيه ، ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوّغه الشريعة : هم شركاء فاعليه في الإثم ، لأنّ حضورهم ونظرهم دليل الرضا به ، وسبب وجوده ، والزيادة فيه ، لأنّ الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه. وفي مواعظ عيسى بن مريم عليه السلام : إياكم ومجالسة الخطائين.

ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وعن قتادة : مجالس الباطل. وعن ابن الحنفية : اللهو والغناء. وعن مجاهد : أعياد المشركين. اللغو : كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح. والمعنى : وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به. مرّوا معرضين عنهم ، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم ، كقوله تعالى وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ وعن الحسن رضى الله عنه : لم تسفههم المعاصي. وقيل : إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا. وقيل : إذا ذكروا النكاح كنوا عنه.

[سورة الفرقان (25) : آية 73]

وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (73)

لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها ليس بنفي للخرور. وإنما هو إثبات له ، ونفى للصمم والعمى ، كما تقول : لا يلقاني زيد مسلما ، هو نفى للسلام لا للقاء. والمعنى : أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها ، سامعون بآذان واعية ، مبصرون بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها ، مظهرين الحرص الشديد على استماعها ، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم.

[سورة الفرقان (25) : آية 74]

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (74)

قرئ : ذريتنا ، وذرياتنا. وقرة أعين ، وقرّات أعين. سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجا وأعقابا عمالا لله ، يسرون بمكانهم وتقرّبهم عيونهم. وعن محمد بن كعب : ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو الولد إذا رآه يكتب الفقه. وقيل : سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم. أراد. أئمة ، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس ، كقوله تعالى ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا أو أرادوا اجعل كل واحد منا إماما. أو أراد جمع آمّ ، كصائم وصيام. أو أرادوا اجعلنا إماما واحدا لا تحادنا واتفاق كلتنا. وعن بعضهم : في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها. وقيل : نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة. فإن قلت : مِنْ في قوله مِنْ أَزْواجِنا ما هي؟ قلت : يحتمل أن تكون بيانية ، كأنه قيل : هب لنا قرّة أعين ، ثم بينت القرّة وفسرت بقوله : من أزواجنا وذرياتنا. ومعناه : أن يجعلهم الله لهم قرّة أعين ، وهو من قولهم : رأيت منك أسدا ، أى : أنت أسد ، وأن تكون ابتدائية على معنى : هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح. فإن قلت : لم قال قُرَّةَ أَعْيُنٍ فنكر وقلل؟ قلت : أما التنكير فلأجل تنكير القرّة ، لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه ، كأنه قيل : هب لنا منهم سرورا وفرحا. وإنما قيل أَعْيُنٍ دون عيون ، لأنه أراد أعين المتقين ، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. قال الله تعالى وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ «1» ويجوز أن يقال في تنكير أَعْيُنٍ أنها أعين خاصة ، وهي أعين المتقين.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 75 إلى 76]

أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (75) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (76)
المراد يجزون الغرفات وهي العلالي في الجنة ، فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس ، والدليل على ذلك قوله وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ وقراءة من قرأ : في الغرفة بِما صَبَرُوا بصبرهم على الطاعات ، وعن الشهوات ، وعن أذى الكفار ومجاهدتهم ، وعلى الفقر وغير ذلك.

(1). قال محمود : «إن قلت : لم قلل الأعين إذ الأعين صيغة جمع قلة؟ قلت : لأن أعين المتقين قليل بالاضافة إلى غيرهم ، يدل على ذلك قوله : وقليل من عبادي الشكور» قال أحمد : والظاهر أن المحكي كلام كل أحد من المتقين ، فكأنه قال : يقول كل واحد منهم اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، وهذا أسلم من تأويله ، فان المتقين وإن كانوا بالاضافة إلى غيرهم قليلا إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد. والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلا في نفسه لا بالنسبة والاضافة ، والله أعلم.

وإطلاقه لأجل الشياع في كل مصبور عليه. وقرئ : يلقون ، كقوله تعالى وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ويلقون ، كقوله تعالى يَلْقَ أَثاماً. والتحية : دعاء بالتعمير. والسلام : دعاء بالسلامة ، يعنى أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم. أو يحيى بعضهم بعضا ويسلم عليه أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عن كل آفة. اللهم وفقنا لطاعتك ، واجعلنا مع أهل رحمتك ، وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك.

[سورة الفرقان (25) : آية 77]

قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (77)

لما وصف عبادة العباد ، وعدّد صالحاتهم وحسناتهم ، وأثنى عليهم من أجلها ، ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة : أتبع ذلك بيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ووعدهم ما وعدهم ، لأجل عبادتهم ، فأمر رسوله أن يصرّح للناس ، ويجزم لهم القول بأن الاكتراث لهم عند ربهم ، إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتدّ بهم ولم يكونوا عنده شيء يبالى به. والدعاء : العبادة. وما متضمنة لمعنى الاستفهام ، وهي في محل النصب ، وهي عبارة عن المصدر ، كأنه قيل : وأى عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم. يعنى أنكم لا تستأهلون شيئا من العبء بكم لولا عبادتكم. وحقيقة قولهم ما عبأت به : ما اعتددت به من فوادح همومى ومما يكون عبئا علىّ ، كما تقول : ما اكترثت له ، أى : ما اعتددت به من كوارثى ومما يهمني. وقال الزجاج في تأويل ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي : أى وزن يكون لكم عنده؟

ويجوز أن تكون ما نافية ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ يقول : إذا أعلمتكم أن حكمى أنى لا أعتدّ بعبادي إلا عبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار.

ونظيره في الكلام أن يقول الملك لمن استعصى عليه : إن من عادتى أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمرى ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحلّ بك بسبب عصيانك. وقيل : معناه ما يصنع بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام. وقيل : ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ، فإن قلت : إلى من يتوجه هذا الخطاب؟ قلت : إلى الناس على الإطلاق ، ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون ، فخوطبوا بما وجدوا في جنسهم من العبادة والتكذيب. وقرئ : فقد كذب الكافرون. وقيل : يكون العذاب لزاما. وعن مجاهد رضى الله عنه : هو قتل يوم بدر ، وأنه لوزم بين القتلى لزاما. وقرئ : لزاما ، بالفتح بمعنى اللزوم ، كالثبات والثبوت.

والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به ، لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتنهه الوصف ، والله أعلم بالصواب.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الفرقان لقى الله يوم القيامة وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها ، وأدخل الجنة بغير نصب» «1»

سورة الشعراء

مكية ، إلا قوله وَالشُّعَراءُ ... إلى آخر السورة وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وفي رواية : وست وعشرون آية [نزلت بعد الواقعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشعراء (26) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2)

طسم بتفخيم الألف وإمالتها ، وإظهار النون وإدغامها الْكِتابِ الْمُبِينِ الظاهر إعجازه ، وصحة أنه من عند الله ، والمراد به السورة أو القرآن. والمعنى : آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

[سورة الشعراء (26) : آية 3]

لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3)

البخع : أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء ، وهو عرق مستبطن الفقار ، وذلك أقصى حدّ الذبح ، ولعل للإشفاق ، يعنى : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ لئلا يؤمنوا ، أو لامتناع إيمانهم ، أو خيفة أن لا يؤمنوا. وعن قتادة رضى الله عنه : باخع نفسك على الإضافة.

[سورة الشعراء (26) : آية 4]

إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (4)

أراد : آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه. فَظَلَّتْ معطوف على الجزاء الذي هو ننزل ،

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى.

لأنه لو قيل : أنزلنا ، لكان صحيحا. ونظيره : فأصدّق وأكن ، كأنه قيل : أصدق. وقد قرئ : لو شئنا لأنزلنا. وقرئ : فتظل أعناقهم. فإن قلت : كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق قلت : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين ، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله ، كقوله : ذهبت أهل اليمامة ، كأنّ الأهل غير مذكور. أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل : خاضعين ، كقوله تعالى لِي ساجِدِينَ وقيل أعناق الناس : رؤساؤهم ومقدّموهم ، شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرءوس والنواصي والصدور. قال:
في محفل من نواصي النّاس مشهود «1»

وقيل : جماعات الناس. يقال : جاءنا عنق من الناس لفوج منهم. وقرئ : فظلت أعناقهم لها خاضعة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت هذه الآية فينا وفي بنى أمية. قال : ستكون لنا عليهم الدولة ، فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ، ويلحقهم هوان بعد عزة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 5 إلى 6]

وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (6)

أى : وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيرا ، إلا جددوا إعراضا عنه وكفرا به. فإن قلت : كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد ، وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء؟ قلت : إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض ،

[سورة الشعراء (26) : الآيات 7 إلى 9]

أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم ، والكريم : صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه ،

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 428 فراجعه إن شئت اه مصححه.

يقال : وجه كريم ، إذا رضى في حسنه وجماله ، وكتاب كريم : مرضىّ في معانيه وفوائده ، وقال : حتّي يشقّ الصّفوف من كرمه «1»

أى : من كونه مرضيا في شجاعته وبأسه ، والنبات الكريم : المرضي فيما يتعلق به من المنافع إِنَّ فِي إنبات تلك الأصناف لَآيَةً على أن منبتها قادر على إحياء الموتى ، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم ، غير مرجوّ إيمانهم وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ في انتقامه من الكفرة الرَّحِيمُ لمن تاب وآمن وعمل صالحا. فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل ، ولو قيل كم أنبتنا فيها من زوج كريم «2»؟ قلت : قد دلّ كُلِّ على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، وكَمْ على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة «3» ، فهذا معنى الجمع بينهما ، وبه نبه على كمال قدرته. فإن قلت : فما معنى وصف الزوج بالكريم؟ قلت : يحتمل معنيين ، أحدهما :

(1) من رأى يومنا ويوم بنى التيم إذا التف صيقه بدمه
لما رأوا أن يومهم أشب شدوا حيازيمهم على ألمه
كأنما الأسد في عرينهم ونحن كالليل جاش في قتمه
لا يسلمون الغداة جارهم حتى يزل الشراك عن قدمه
ولا يخيم اللقاء فارسهم حتى يشق الصفوف من كرمه

لرجل من حمير. ومن : استفهامية. والصيق والصيقة - بالكسر - : الغبار والتراب. والأشب - كحذر - : كثير الجلبة والاختلاط ، ويطلق على المكان الذي التف شجره ، والحيزوم : الصدر. والعرين : أجمة الأسد يسكن فيها.
وجاش : ارتفع وأقبل. والقتم : الغبار والسواد والظلمة. وروى في غشمه : بالغين. والمعنى واحد ، لا يسلمون لا يخذلون ولا يتركون.
والشراك : سير النعل ، ولا يخيم : أى لا يجبن عن اللقاء ، واليوم : الزمن أو الواقعة ، وإضافة الصيق والدم إليه لأنه فيه. ووصف اليوم بأنه كثير الصياح والاختلاط ، لأن ذلك واقع فيه ، وشد الحيازيم على الألم : كناية عن التجلد والصبر. وشبههم بالأسود في شجاعتهم ، وشبه قومه بالليل في الاحاطة والقهر للغير ، ثم قال : لا يتركون حليفهم غداة الروع حتى يرتبك وحده في الحرب ، فزلل الشراك : كناية عن ذلك ولا يجبن الفارس منهم عن اللقاء ، فهو نصب على نزع الخافض ، وقيل : مفعول معه ، حتى يشق صفوف الحرب ويدخلها من كرمه ، أى شجاعته وجراءته ، لأن الكرم في كل باب بحسبه ، وحتى الأولى غاية للمنفي ، والثانية غاية للنفي.
ويجوز أن الثانية ابتدائية ، والفعل بعدها مرفوع على الاستئناف ، وهذا أبلغ في المدح ، ثم إن مدح عدوهم مدح لهم.

(2). قوله «كم أنبتنا فيها من زوج كريم» لعل بعده سقطا تقديره «كان مستقيما». (ع)

(3). قال محمود : «إن قلت : ما فائدة الجمع بين كل وكم؟ وأجاب بأن كلا دخلت للاحاطة بأزواج النبات وكم دلت على أن هذا المحاط به متكاثر مفرط الكثرة» قال أحمد : فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير : الأنواع والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام ، ويدل عليه أنك لو أسقطت كُلِّ فقلت : انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من الصنف الفلاني ، لكنت مكنيا عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه ، فإذا أدخلت كُلِّ فقد أديت بتكريره آحاد كل صنف لا آحاد صنف معين ، والله أعلم.

أن النبات على نوعين : نافع وضارّ ، فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع ، وخلى ذكر الضارّ. والثاني : أن يعم جميع النبات نافعة وضارّه ، ويصفهما جميعا بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة ، لأنّ الحكيم لا يفعل فعلا إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة ، وإن غفل عنها الغافلون ، ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون. فإن قلت : فحين ذكر الأزواج ودلّ عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة ، وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب ، كيف قال إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وهلا قال : آيات؟ قلت : فيه وجهان : أن يكون ذلك مشارا به إلى مصدر أنبتنا ، فكأنه قال : إن في الإنبات لآية أىّ آية. وأن يراد : أن في كل واحدة من تلك الأزواج لآية.

وقد سبقت لهذا الوجه نظائر.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 10 إلى 11]

وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (11)

سجل عليهم بالظلم بأن قدّم القوم الظالمين ، ثم عطفهم عليهم عطف البيان ، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد : إن شاء ذاكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين ، وإن شاء عبر بقوم فرعون. وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين : من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم ، ومن جهة ظلمهم لبنى إسرائيل باستعبادهم لهم. قرئ : ألا يتقون بكسر النون ، بمعنى : ألا يتقوننى فحذفت النون لاجتماع النونين ، والياء للاكتفاء بالكسرة. فإن قلت : بم تعلق قوله : ألا يتقون؟ قلت : هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار ، والتسجيل عليهم بالظلم ، تعجيبا لموسى من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف ، ومن أمنهم العواقب وقله خوفهم وحذرهم من أيام الله. ويحتمل أن يكون لا يَتَّقُونَ حالا من الضمير في الظالمين ، أى : يظلمون غير متقين الله وعقابه ، فأدخلت همزة الإنكار على الحال.

وأمّا من قرأ : ألا تتقون. على الخطاب. فعلى طريقة الالتفات إليهم ، وجبههم ، وضرب وجوههم بالإنكار ، والغضب عليهم ، كما ترى من يشكو من ركب جناية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر ، فإذا اندفع في الشكاية وحرّ مزاجه «1» وحمى غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجاني يونجه ويعنف يه ويقول له : ألم تتق الله ، ألم تستح من الناس. فإن قلت : فما فائدة هذا الالتفات ، والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة ، والملتفت إليهم غيب لا يشعرون؟ قلت : إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم ،

(1). قوله «و حر مزاجه» في الصحاح : حر يحر حرا وحرارة وحرور. (ع) [.....]

لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس ، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى ، وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين ، تدبرا لها واعتبارا بموردها. وفي ألا يَتَّقُونَ بالياء وكسر النون وجه آخر، وهو أن يكون المعنى : ألا يا ناس اتقون ، كقوله أَلَّا يَسْجُدُوا.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 12 إلى 13]

قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (13)

ويضيق وينطلق ، بالرفع لأنهما معطوفان على خبر إنّ ، وبالنصب لعطفهما على صلة أن.

والفرق بينهما في المعنى : أنّ الرفع يفيد أنّ فيه ثلاث علل : خوف التكذيب ، وضيق الصدر ، وامتناع انطلاق اللسان ، والنصب على أنّ خوفه متعلق بهذه الثلاثة. فإن قلت : في النصب تعليق الخوف بالأمور الثلاثة ، وفي جملتها نفى انطلاق اللسان. وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لأمر سيقع ، وذلك كان واقعا ، فكيف جاز تعليق الخوف به؟ قلت : قد علق الخوف بتكذيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر ، والحبسة في اللسان زائدة على ما كان به ، على أنّ تلك الحبسة التي كانت به قد زالت بدعوته. وقيل : بقيت منها بقية يسيرة. فإن قلت : اعتذارك هذا يردّه الرفع ، لأنّ المعنى : إنى خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان. قلت : يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها ، ويجوز أن يريد القدر اليسير الذي بقي به ، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع «1» الذين أوتوا سلاطة الألسنة وبسطة المقال ، وهرون كان بتلك الصفة ، فأراد أن يقرن به. ويدل عليه قوله تعالى وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً ومعنى فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ: أرسل إليه جبرائيل ، واجعله نبيا ، وآزرنى به «2» ، واشدد به عضدي ، وهذا كلام مختصر. وقد بسطه في غير هذا الموضع ، وقد أحسن في الاختصار حيث قال فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء ، ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً حيث اقتصر على ذكر طرفى القصة أوّلها وآخرها ، وهما الإنذار والتدمير ، ودلّ بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها ، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله ، فأراد الله إلزام الحجة عليهم ، فبعث إليهم رسولين فكذبوهما ، فأهلكهم. فإن قلت : كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل ، وقد علم أن الله من ورائه؟

(1). قوله «من الفصحاء المصاقع» في الصحاح «صقع الديك» : صاح. وخطيب مصقع ، أى : بليغ. (ع)
(2). قوله «و آزرنى به» في الصحاح «آزرت فلانا» : عاونته. والعامة تقول : وازرته. (ع)

قلت : قد امتثل وتقبل ، ولكنه التمس من ربه أن بعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته. فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه ، ثم التمس بعد ذلك ، وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر : ليس بتوقف في امتثال الأمر ، ولا بتعلل فيه ، وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل.

[سورة الشعراء (26) : آية 14]

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14)

أراد بالذنب : قتله القبطي. وقيل : كان خباز فرعون واسمه فاتون. يعنى : ولهم علىّ تبعة ذنب ، وهي قود ذلك القتل «1» ، فأخاف أن يقتلوني به ، فحذف المضاف. أو سمى تبعة الذنب ذنبا ، كما سمى جزاء السيئة سيئة. فإن قلت : قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللا ، وجعلتها تمهيدا للعذر فيما التمسه ، فما قولك في هذه الرابعة؟ قلت : هذه استدفاع للبلية المتوقعة. وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة ، فكيف يكون تعللا. والدليل عليه : ما جاء بعده من كلمة الردع ، والموعد بالكلاءة والدفع.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 15 إلى 22]

قالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (17) قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (19) قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (22)

جمع الله له الاستجابتين معا في قوله كَلَّا فَاذْهَبا لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الدفع بردعه عن الخوف ، والتمس منه الموازرة بأخيه فأجابه بقوله فَاذْهَبا أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هرون. فإن قلت : علام عطف قوله فَاذْهَبا؟ قلت : على الفعل الذي يدل عليه كَلَّا كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظنّ ، فاذهب أنت وهرون. وقوله مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ من مجاز الكلام ، يريد : أنا لكما ولعدوّكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجرى بينكما وبينه.

(1). قوله «وهي قود ذلك القتل» لعله القتيل. (ع)

فأظهركما وأغلبكما وأكسر شوكته عنكما وأنكسه. ويجوز أن يكونا خبرين لأنّ ، أو يكون مُسْتَمِعُونَ مستقرا ، ومَعَكُمْ لغوا. فإن قلت : لم جعلت مُسْتَمِعُونَ قرينة مَعَكُمْ في كونه من باب المجاز ، والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسامع؟ قلت : ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة ، لأنّ الاستماع جار مجرى الإصغاء ، والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية. ومنه قوله تعالى قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً ويقال : استمع إلى حديثه ، وسمع حديثه ، أى : أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «1» «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبّ في أذنيه البرم» «2». فإن قلت : هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ؟ قلت : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة ، فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بدّ من تثنيته ، وجعل هاهنا بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه - إذا وصف به - بين الواحد والتثنية والجمع ، كما يفعل بالصفة بالمصادر ، نحو : صوم ، وزور. قال : ألكنى إليها وخير الرّسو ل أعلمهم بنواحي الخبر «3» فجعله للجماعة. والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قوله : لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول «4»

(1). لم أجده بهذا اللفظ ، والمحفوظ «صب في أذنيه الآنك» وهو الرصاص. وذكره ابن الأثير في النهاية بلفظ : «البرم الدم» وقال : هو الكحل المذاب. قلت : وإنما تلقاه ابن الأثير عن الفائق ، فرجع إلى الزمخشري.

(2). قوله «صب في أذنيه البرم» في الصحاح «البرم» : ثمر العضاه. (ع)

(3). لأبى ذؤيب. وألاكه يليكه : إذا أرسله. والمصدر إلاكة ، فالهمزة زائدة. والأصل : لاك يلوك ، كقام يقوم. وأما ألكه : إذا أرسله أيضا ، فمصدره : ألوكة وأليكة ومألكة ، بضم اللام وفتحها. ومألك بضمها.

وقيل : ألاكه ، إذا تحمل رسالته. فالمعنى : أرسلنى ، أو تحمل رسالتي إليها. ويروى : إليه : أى : إلى ذلك الأمر. والرسول في الأصل مصدر ، فجاز إفراده مع تعدد معناه ، ولذلك عاد إليه ضمير الجمع في أعلمهم. وشبه الخبر بمكان ذى جهات على طريق المكنية. والنواحي تخييل. أو شبه توابع الخبر التي يسأل عنها تبعا له بالنواحى على طريق التصريحية ، يعنى أنه أعلم من غيره بذلك.

(4) حلفت برب الراقصات إلى منى خلال الملا يمددن كلّ جديل

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

فلا تعجلي يا عز أن تنفهمى بنصح أتى الواشون أم بحبول
لكثير صاحب عزة. والراقصات : المطايا السائرات إلى منى في الحج ، خلال الملا : أى في أثناء الناس. والجديل الرسن في عنقها تمده به. والواشي : الذي يحسن الكلام ويموهه ، ويخلط الصدق بالكذب ، ويحرف الكلم عن مواضعه. و«ما» نافية ، أى : ما تفوهت عندهم بسر ، ولا أرسلتهم إلى أحد برسول ، أى برسالة ، فهو في الأصل مصدر. وقد يطلق على المرسل ، وهو الظاهر في رواية ، «و لا راسلتهم برسول» أى لا شافهتهم بالسر ولا أرسلت إليهم رسولا به ، وهذه الرواية أوفق بالمقابلة. ويمكن أن أرسلتهم بمعنى أرسلت إليهم ، والأصل : يا عزة ، فرخم بحذف التاء ، أن تنفهمى ، أى : في أن تنفهمى. أو لأجل أن تنفهمى ، بنصح ، أى : أبنصح أتى الواشون إليك ، أم بحبول : جمع حبل بالكسر : وهي الداهية العظيمة ، ولا أدهى من الكذب.

ويجوز أن يوحد ، لأنّ حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة ، واتحادهما لذلك وللإخوة كان حكما واحدا ، فكأنهما رسول واحد. أو أريد أنّ كل واحد منا أَنْ أَرْسِلْ بمعنى : أى أرسل ، لتضمن الرسول معنى الإرسال. وتقول : أرسلت إليك أن افعل كذا ، لما في الإرسال من معنى القول ، كما في المناداة والكتابة ونحو ذلك. ومعنى هذا الإرسال : التخلية والإطلاق كقولك : أرسل البازي ، يريد : خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين ، وكانت مسكنهما. ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة ، حتى قال البواب : إنّ هاهنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال : ائذن له لعلنا نضحك منه ، فأدّيا إليه الرسالة ، فعرف موسى فقال له أَلَمْ نُرَبِّكَ حذف : فأتيا فرعون فقالا له ذلك ، لأنه معلوم لا يشتبه.

وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل. الوليد : الصبى لقرب عهده من الولادة. وفي رواية عن أبى عمرو: من عمرك ، بسكون الميم سِنِينَ قيل : مكث عندهم ثلاثين سنة.

وقيل : وكز القبطي وهو ابن ثنتى عشرة سنة ، وفرّ منهم على أثرها ، والله أعلم بصحيح ذلك.

وعن الشعبي : فعلتك بالكسر ، وهي قتلة القبطي ، لأنه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل. وأما الفعلة ، فلأنها كانت وكزة واحدة. عدّد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ، ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه ، وعظم ذلك وفظعه «1» بقوله وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ يجوز أن يكون حالا ، أى : قتلته وأنت لذاك من الكافرين بنعمتي. أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة ، وقد افترى عليه أو جهل أمره ، لأنه كان يعايشهم بالتقية ، فإنّ الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة ومن بعض الصغائر ، فما بال الكفر.

ويجوز أن يكون قوله وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ حكما عليه بأنه من الكافرين بالنعم ، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعا منه. أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته. أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم ، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم ، يشهد لذلك قوله تعالى وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ وقرئ : إلهتك ، فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو مِنَ الضَّالِّينَ أى الجاهلين. وقراءة ابن مسعود : من الجاهلين ، مفسرة. والمعنى: من الفاعلين فعل أولى الجهل والسفه.

(1). قال محمود : «عدد نعمته عليه ووبخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وفظعه عليه بقوله : وفعلت فعلتك» قال أحمد : ووجه التفظيع عليه من ذلك أن في إتيانه به مجملا مبهما ، إيذانا بأنه لفظاعته مما لا ينطق به إلا مكنيا عنه. ونظيره في التفخيم المستفاد من الإبهام قوله تعالى فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ، فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى
ومثله كثير ، والله أعلم.

كما قال يوسف لإخوته هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل. أو الذاهبين عن الصواب.

أو الناسين ، من قوله أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه ، وبرّأ ساحته ، بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربأ بمحل من رشح للنبوّة عن تلك الصفة ، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية ، فأبطله من أصله واستأصله من سنخه «1» ، وأبى أن يسمى نعمته إلا نقمة. حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بنى إسرائيل لأنّ تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت ، وتعبيدهم : تذليلهم واتخاذهم عبيدا. يقال : عبدت الرجل وأعبدته ، إذا اتخذته عبدا. قال : علا م يعبدني قومي وقد كثرت فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان «2»

فإن قلت : إذا جواب وجزاء معا ، والكلام وقع جوابا لفرعون ، فكيف وقع جزاء قلت : قول فرعون : وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ فيه معنى : إنك جازيت نعمتي بما فعلت ، فقال له موسى : نعم فعلتها مجازيا لك ، تسليما لقوله ، لأنّ نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء.

فإن قلت : لم جمع الضمير في منكم وخفتكم؟ مع إفراده في تمنها وعبدت؟ قلت : الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله ، بدليل قوله إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ وأما الامتنان فمنه وحده، وكذلك التعبيد. فإن قلت : تِلْكَ إشارة إلى ما ذا ، وأَنْ عَبَّدْتَ ما محلها من الإعراب؟ قلت : تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة ، لا يدرى ما هي إلا بتفسيرها. ومحل أَنْ عَبَّدْتَ الرفع عطف بيان لتلك ، ونظيره قوله تعالى وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ والمعنى : تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها على.

(1). قوله «و استأصله من سنخته» في الصحاح «السنخ» الأهل ، وسنخ في العلم سنوخا رسخ : وسنخ الدهر - بالكسر - : لغة في زنخ ، إذا فسد وتغيرت ريحه. يقال : بيت له سنخة وسناخة اه. (ع)

(2). علام : استفهام إنكارى عن العلة ، أى : على أى شيء. وأعبدت الرجل وعبدته : إذا اتخذته عبدا. والأباعر : جمع بعير ، يطلق على الذكر والأنثى من الإبل. والعبد : يجمع على عبدان بالكسر والضم وعبدى ، بتشديد الدال مقصورا وممدودا. ومعبودا ، وعباد ، وأعبد ، وعبيد ، وعبد بضمتين وبفتحتين ، يقول : لأى شيء يتخذونى عبدا ، والحال أنه كثرت فيهم الإبل والعبيد بسببي ، فليتخذوا منها ما شاءوا : بدل من الأباعر أو واقع موقع المصدر لكثرت ، دلالة على التكثير. وفي هذه الحال : تهكم بهم ودلالة على حمقهم. ويجوز أن المعنى : والحال أن بعضهم كالأباعر ، وبعضهم عبيد ، فليكتفوا ببعضهم عنى. وقيل : يجوز أن التقييد بهذه الحالة ، لأنها التي حملتهم على التكبر عليه.

وقال الزجاج : ويجوز أن يكون أَنْ في موضع نصب ، المعنى : إنما صارت نعمة علىّ لأن عبدت بنى إسرائيل، أى : لو لم تفعل ذلك لكفلنى أهلى ولم يلقوني في اليم.

[سورة الشعراء (26) : آية 23]

قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ (23)

لما قال له بوّابه إن هاهنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ يريد : أى شيء رب العالمين. وهذا السؤال لا يخلو : إما أن يريد به أى شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعرفت أجناسها ، فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ، ليعرّفه أنه ليس بشيء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض ، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ، «ليس كمثله شي ء» وإما أن يريد به : أى شيء هو على الإطلاق ، تفتيشا عن حقيقته الخاصة ما هي ، فأجابه بأنّ الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته ، استدلالا بأفعاله الخاصة على ذلك. وأمّا التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول ، فتفتيش عما لا سبيل إليه ، والسائل عنه متعنت غير طالب للحق. والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام : أن يكون سؤاله هذا إنكارا لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية ، فلما أجاب موسى بما أجاب ، عجب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره ، فلما ثنى بتقرير قوله ، جننه إلى قومه وطنز به «1» ، حيث سماه رسولهم. فلما ثلث بتقرير آخر : احتدّ واحتدم وقال : لئن اتخذت إلها غيرى. وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير.

[سورة الشعراء (26) : آية 24]

قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24)

فإن قلت : كيف قيل وَما بَيْنَهُمَا على التثنية ، والمرجوع إليه مجموع؟ قلت : أريد وما بين الجنسين ، فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال : في الهيجا جمالين «2»

(1). قوله «و طنز به» أى : سخر به واحتدم ، أى : التهب صدره غيظا. أفاده الصحاح. (ع)

(2) سعى عقالا فلم يترك لنا سبدا فكيف لو قد سعي عمرو عقالين
لأصبح الناس أو بادا ولم يجدوا عند التفرق في الهيجا جمالين

الساعي : المنصوب لأخذ الزكاة. والعقال : زكاة العام ، والمراد به هنا العام ، لأنه جرى مجرى الظرف. والسبد : الشيء القليل. يقال : لا له سبد ولا لبد ، أى : لا قليل ولا كثير. وقال الأصمعي : الأول من الشعر ، والثاني من الصوف. والأوباد : جمع وبد بفتحتين ، وأصله ضيق العيش وسوء الحال ، فاستعمل استعمال الصفات للمبالغة ، وثنى الجمال على معنى نوعين منها أو طائفتين منها ولو من نوع واحد. يقول : سعى سنة واحدة لأخذ زكاتها ، فظلمنا ولم يترك لنا شيئا قليلا من مالنا ، فكيف يكون حالنا لو سعى عامين. وفي ذكر عمرو بعد تقدم ضميره نوع من التهويل. ويحتمل أنه من باب التنازع ، فيجوز أن الظاهر فاعل الأول ، وفاعل الثاني ضميره ، وقوله «لأصبح» مرتب على محذوف ، أى : لو سعى عقالين ، لأصبح الناس هلكى من الفقر ، ولم يجدوا عند تفرقهم في الحرب نوعين من الجمال : لكل فريق منهما نوع ، فيختل أمر الغزوات لاحتمال محاربة العدو في جهتين بل في جهات ، فيحتاج إلى جمالين ، بل إلى جمالات.

فإن قلت : ما معنى قوله إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ وأين عن فرعون وملئه الإيقان؟ قلت : معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدى إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب ، وإلا لم ينفع.

أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به ، لظهوره وإنارة دليله.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 25 إلى 28]

قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (25) قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28)

فإن قلت : ومن كان حوله؟ قلت : أشراف قومه قيل : كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت الملوك خاصة. فإن قلت : ذكر السماوات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها ، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب؟ قلت : قد عمم أوّلا ، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم. لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه ، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع ، والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، ثم خصص المشرق والمغرب ، لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله ، عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان ، فبهت الذي كفر. وقرئ : رب المشارق والمغارب. الذي أرسل إليكم بفتح الهمزة.

فإن قلت : كيف قال أوّلا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ وآخرا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ؟ قلت : لاين أوّلا ، فلما رأى منهم شدّة الشكيمة «1» في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض : إنّ رسولكم لمجنون ، بقوله : إن كنتم تعقلون.

[سورة الشعراء (26) : آية 29]

قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)

فإن قلت : ألم يكن : لأسجننك ، أخصر من لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ومؤديا مؤداه؟ قلت : أما أخصر فنعم. وأما مؤدّ مؤدّاه فلا ، لأنّ معناه : لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم في سجونى.

(1). قوله شدة الشكيمة ، في الصحاح : فلان شديد الشكيمة ، إذا كان شديد النفس أنفا أبيا. (ع)

وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردا لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أشدّ من القتل وأشدّ.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 30 إلى 31]

قالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31)

الواو في قوله أَوَ لَوْ جِئْتُكَ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام. معناه : أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشيء مبين، أى : جائيا بالمعجزة. وفي قوله إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ أنه لا يأتى بالمعجزة إلا الصادق في دعواه ، لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوّة ، والحكيم لا يصدّق الكاذب. ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه هذا ، وخفى على ناس من أهل القبلة «1» حيث جوّزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات»،

(1). قوله «و خفى على ناس من أهل القبلة» يريد أهل السنة ، حيث قالوا : إن كلا من الحسن والقبيح بقضاء الله تعالى وقدره ، ولم يلزمهم باطل كما بين في علم التوحيد. (ع) [.....]

(2). قال محمود : «علم فرعون أنه لا يأتى بالمعجزة إلا صادق في دعواه ، لأن المعجزة تصديق من الله تعالى لمدعي النبوة ، والحكيم لا يصدق الكاذب. ومن العجب أن فرعون لم يخف عليه هذا وخفى على طائفة من أهل القبلة ، حيث جوزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات. انتهى كلامه» قال أحمد : ليته سلم وجه تصنيفه من ثآليل هذه الأباطيل ، وكلف هذا التكليف في كيده لأهل السنة وإن كيده لفي تضليل ، بينا هو يعرض بتفضيل فرعون عليهم ، إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم

ولما هدى الله تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق ، اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى لا شريك له في ملكه ، وأن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الأزلية في سلكه ، فكان من الممكنات أن يبتلى الله عباده يخرق العادات على أيدى الكذابين ، ومراده إظهار الضلالات : وقد اندرج ذلك لكونه ممكنا تحت سطوة القدرة حقا بينا ، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم في الدين ، فان توهم ناظر بعين الهوى والغرض ، معنون عما في قلبه من مرض : أن ذلك يجر إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء ، حيث كان على يد غيرهم من الكذابين الأشقياء ، قيل : معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصدق الأنبياء ، آمنة بحصول العلم لها من وقوع ما جوزه العقل ، ولو قدح الإمكان العقلي في علم حاصل يقيني ، للزم الآن الشك في أن جبال الأرض قد عادت تبرا أحمر ، وترابها مسكا أذفر، وانقلبت البحار دما عبيطا لأن ذلك ممكن في العقل بلا خلاف ، ولا يشكك نفسه في هذا الإمكان إلا ذو خبل وعته وعمى وعمه، وأين الزمخشري من الحديث الصحيح في الشاب الذي يكذب الدجال فيقسمه بالسيف جزلتين فيمشى بينهما ، ثم يقول له : عد فيعود حيا ، فيقول له : ما ازددت فيك إلا بصيرة ، أنت الدجال الذي وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم به ثانى مرة فلا يسلط عليه. قال النبي صلى الله عليه وسلم : وهو حينئذ خير أهل الأرض ، أو من خير أهل الأرض» أفرأيت هذا المؤمن لما نظر انخراق العادة على يد أكذب الكاذبين حتى شاهد ذلك في نفسه ، لم يشككه ذلك في معلومه ، فلم يتلكأ في معاودة تكذيبه ، ولكن يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ.

وتقديره : إن كنت من الصادقين في دعواك أتيت به ، فحذف الجزاء ، لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 32 إلى 33]

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33)

ثُعْبانٌ مُبِينٌ ظاهر الثعبانية ، لا شيء يشبه الثعبان ، كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة والسحر. وروى أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، وجعلت تقول : يا موسى ، مرني بما شئت. ويقول فرعون : أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها فعادت عصا لِلنَّاظِرِينَ دليل على أن بياضها كان شيئا يجتمع النظارة على النظر إليه ، لخروجه عن العادة ، وكان بياضا نوريا. روى أنّ فرعون لما أبصر الآية الأولى قال : فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال له : ما هذه؟ قال : يدك فما فيها؟ فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار «1» ويسدّ الأفق.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 34 إلى 35]

قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (35)

فإن قلت : ما العامل في حَوْلَهُ؟ قلت : هو منصوب نصبين : نصب في اللفظ ، ونصب في المحل ، فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف ، والعامل في النصب المحلى وهو النصب على الحال : قال : ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين ، وبقي لا يدرى أى طرفيه أطول ، حتى زلّ عنه ذكر دعوى الإلهية ، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية ، وارتعدت فرائصه ، وانتفخ سحره خوفا وفرقا «2» ، وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم : أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحسّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه ، وقوله إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ قول باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم تَأْمُرُونَ من المؤامرة وهي المشاورة. أو من الأمر الذي هو ضدّ النهى : جعل العبيد آمرين وربهم مأمورا لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة. وما ذا منصوب : إما لكونه في معنى المصدر ، وإما لأنه مفعول به من قوله : أمرتك الخير.

(1). قوله «و لها شعاع يكاد يغشى الأبصار» في الصحاح «الغشاء» : الغطاء اه. ولعل عبارة المصنف يعشى بالعين المهملة ، وفي الصحاح «العشا» مقصور : مصدر : الأعشى ، وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار. (ع)
(2). قوله «و انتفخ سحره خوفا وفرقا» في الصحاح «السحر» : الرئة. ويقال للجبان : قد انتفخ سحره. (ع)

[سورة الشعراء (26) : الآيات 36 إلى 37]

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37)

قرئ : أرجئه وأرجه : بالهمز والتخفيف ، وهما لغتان. يقال : أرجأته وأرجيته ، إذا أخرته. ومنه : المرجئة «1» ، وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون : هم مرجئون لأمر الله. والمعنى : أخره ومناظرته لوقت

[سورة الشعراء (26) : الآيات 38 إلى 40]

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (40)

اليوم المعلوم : يوم الزينة. وميقاته : وقت الضحى ، لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى صلوات اللّه عليه من يوم الزينة في قوله مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى والميقات : ما وقت به ، أى حدد من زمان أو مكان. ومنه : مواقيت الإحرام هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ استبطاء لهم في الاجتماع ، والمراد منه : استعجالهم واستحثاثهم ، كما يقول الرجل لغلامه : هل أنت منطلق : إذا أراد أن يحرّك منه ويحثه على الانطلاق ، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف. ومنه قول تأبط شرا :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد ربّ أخا عون بن مخراق «3»

يريد : ابعثه إلينا سريعا ولا تبطئ به لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ أى في دينهم إن غلبوا موسى ،

(1). قال محمود : «معناه أخره. ومنه المرجئة الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون : هم مرجئون لأمر اللّه» قال أحمد : ضاقت عليه المسالك في تفسير الارجاء ، حتى استدل عليه بالمرجئة ، وصرف هذا اللقب لأهل السنة ، فإنهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين ، ويقولون : أمرهم إلى اللّه ، إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم.
فان كانت المرجئة هم المؤمنون بقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ اللهم فاشهد أنا مرجئة.
(2). قوله «شرطا يحشرون السحرة» الشرط - محركة - : الحرس ، سموا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها ، أفاده الصحاح. (ع)
(3). لتأبط شرا. وقيل : لجرير الخطفى ، وهل : استفهام استبطائى فيه حث على الفعل. ودينار : اسم رجل وعبد رب كذلك ، وهو نصب عطفا على محل دينار ، لأنه مفعول معنى. وأخا عوف : نعت له. وقيل : منادى.
وعوف ومخراق : اسمان لرجلين. ويروى «عون» بالنون.

ولا نتبع موسى في دينه. وليس غرضهم باتباع السحرة «1» ، وإنما الغرض الكلى : أن لا يتبعوا موسى ، فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 41 إلى 42]

فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (41) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)
وقرئ : نعم ، بالكسر «2» ، وهما لغتان. ولما كان قوله إِنَّ لَنا لَأَجْراً في معنى جزاء الشرط ، لدلالته عليه ، وكان قوله وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ معطوفا عليه ومدخلا في حكمه ، دخلت إذا قارّة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء ، وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى : القربة عنده والزلفى.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 43 إلى 44]

قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (44)

أقسموا بعزة فرعون وهي من أيمان الجاهلية ، وهكذا كل حلف بغير اللّه ، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف باللّه معلقا ببعض أسمائه أو صفاته ، كقولك : باللّه ، والرحمن ، وربى ، ورب العرش ، وعزة اللّه ، وقدرة اللّه ، وجلال اللّه ، وعظمة اللّه. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمّهاتكم ولا بالطواغيت ، ولا تحلفوا إلا باللّه ، ولا تحلفوا باللّه إلا وأنتم صادقون» «3» ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسيت لها الجاهلية الأولى ، وذلك أنّ الواحد منهم لو أقسم بأسماء اللّه كلها وصفاته على شيء : لم يقبل منه ، ولم يعتدّ بها حتى يقسم برأس سلطانه ، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 45 إلى 48]

فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (46) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (48)

(1). قوله «باتباع السحرة» لعله : اتباع ، كعبارة النسفي. (ع)
(2). قوله «و قرئ نعم بالكسر» أى كسر العين ، كما في الصحاح. (ع)
(3). أخرجه النسائي من حديث أبى هريرة دون قوله «و لا تحلفوا إلا باللّه» وقال «بالأنداد» بدل الطواغيت وله من حديث عبد الرحمن بن سمرة «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت» مختصر. وفي الصحيحين عن ابن عمر رفعه «من كان حالفا فلا يحلف إلا باللّه».

ما يَأْفِكُونَ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم ، ويزوّرونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى ، بالتمويه على الناظرين أو إفكهم : سمى تلك الأشياء إفكا مبالغة. روى أنهم قالوا : إن يك ما جاء به موسى سحرا فلن يغلب ، وإن كان من عند اللّه فلن يخفى علينا ، فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به ، علموا أنه من اللّه فآمنوا. وعن عكرمة رضى اللّه عنه : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء ، لأنه ذكر مع الإلقاآت ، فسلك به طريق المشاكلة. وفيه أيضا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا ، لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين ، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا. فإن قلت : فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ قلت : هو اللّه عزّ وجل بما خوّلهم من التوفيق. أو إيمانهم. أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة ، ولك أن لا تقدّر فاعلا ، لأنّ أَلْقُوا بمعنى خرّوا وسقطوا رَبِّ مُوسى وَهارُونَ عطف بيان لرب العالمين ، لأنّ فرعون لعنة اللّه عليه كان يدعى الربوبية ، فأرادوا أن يعزلوه. ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام : أنه الذي يدعو إليه هذان ، والذي أجرى على أيديهما ما أجرى.

[سورة الشعراء (26) : آية 49]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)

فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أى وبال ما فعلتم.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 50 إلى 51]

قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)

الضر والضير والضور : واحد ، أرادوا : لا ضرر علينا في ذلك ، بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه اللّه ، من تكفير الخطايا والثواب العظيم ، مع الأعواض الكثيرة.

أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل أنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت. والقتل أهون أسبابه وأرجاها. أو لا ضير علينا في قتلك ، إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته ، لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر لا محذوف. والمعنى : لا ضير في ذلك ، أو علينا أَنْ كُنَّا معناه : لأن كنا ، وكانوا أوّل جماعة مؤمنين من أهل زمانهم ، أو من رعية فرعون ، أو من أهل المشهد. وقرئ : إن كنا ، بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدلّ بأمره «1» ، المتحقق لصحته ، وهم كانوا متحققين أنهم أوّل المؤمنين.

(1). قوله «المدل بأمره» أى الواثق به. أفاده الصحاح. (ع)

ونظيره قول العامل لمن يؤخر جعله : إن كنت عملت لك فوفني حقي ومنه قوله تعالى إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 52 إلى 56]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (53) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (56)

قرئ : أسر ، بقطع الهمزة ووصلها. وسر إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم. والمعنى : أنى بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدّموا ويتبعوكم ، حتى يدخلوا مدخلكم ، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر ، فأطبقه عليهم فأهلكهم. وروى : أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد ، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه.

وروى : أنّ الله أوحى إلى موسى : أن اجمع بنى إسرائيل ، كل أربعة أبيات في بيت ، ثم اذبحوا الجداء «1» واضربوا بدمائها على أبوابكم ، فإنى سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم ، وسآمرهم بقتل أبكار القبط، واخبزوا خبزا فطيرا «2» فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمرى ، فأرسل فرعون في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر ، مع كل ملك ألف ، وخرج فرعون في جمع عظيم ، وكانت مقدّمته سبعمائة ألف : كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : خرج فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث ، فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا ، وسماهم شرذمة قليلين إِنَّ هؤُلاءِ محكي بعد قول مضمر. والشرذمة : الطائفة القليلة. ومنها قولهم: ثوب شراذم ، للذي يلي وتقطع قطعا ، ذكرهم بالاسم الدال على القلة. ثم جعلهم قليلا بالوصف ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا ، واختار جمع السلامة الذي هو للقلة «3» ،

(1). قوله «ثم اذبحوا الجداء» في الصحاح «الجدى» من ولد المعز. وثلاثة أجد. فإذا كثرت فهي الجداء. (ع)
(2). قوله «و اخبزوا خبزا فطيرا» في الصحاح «الفطير» : خلاف الخمير ، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير. (ع)
(3). قال محمود : «و قللهم من أربعة أوجه : عبر عنهم بالشرذمة وهي تفيد القلة ، ثم وصفهم بالقلة ، وجمع وصفهم ليعلم أن كل ضرب منهم قليل ، واختار جمع السلامة ليفيد القلة» قال أحمد : ووجه آخر في تقليلهم يكون خامسا :
وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد ، قد يكون مبالغة في لصوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به ، كقولهم : معا زيد جياع ، مبالغة في وصفه بالجوع ، فكذلك هاهنا جمع قليلا ، وكان الأصل إفراده فيقال : لشرذمة قليلة ، كما أفرد في قوله كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ليدل بجمعه على تناهيهم في القلة ، لكن يبقى النظر في أن هذا السر يبقى الوجوه المذكورة على ما هي عليه ، أو يسقط منها شيئا ويخلفه، فتأمله والله الموفق.

وقد يجمع القليل على أقلة وقلل «1». ويجوز أن يريد بالقلة : الذلة والقماءة ، ولا يريد قلة العدد. والمعنى : أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور ، فإذا خرج علينا خارج ، سارعنا إلى حسم فساده ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن ، لئلا يظنّ به ما يكسر من قهره وسلطانه. وقرئ : حذرون وحاذرون وحادرون «2» ، بالدال غير المعجمة. فالحذر : اليقظ ، والحاذر : الذي يجدّد حذره. وقيل : المؤدى في السلاح، وإنما يفعل ذلك حذرا واحتياطا لنفسه. والحادر : السمين القوى. قال :

أحبّ الصّبىّ السوء من أجل أمّه وأبغضه من بغضها وهو حادر «3»

أراد أنهم أقوياء أشداء. وقيل مدججون في السلاح ، قد كسبهم ذلك حدارة في أجسامهم.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 57 إلى 60]

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (58) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60)

وعن مجاهد : سماها كنوزا لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله. والمقام : المكان ، يريد : المنازل الحسنة والمجالس البهية. وعن الضحاك : المنابر. وقيل السر في الحجال «4» كَذلِكَ يحتمل ثلاثة أوجه : النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه. والجر على أنه وصف لمقام ، أى : مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم. والرفع على أنه خبر لمبتدإ محذوف ، أى : الأمر كذلك. فَأَتْبَعُوهُمْ فلحقوهم. وقرئ : فاتبعوهم مُشْرِقِينَ داخلين في وقت الشروق ، من شرقت الشمس شروقا إذا طلعت.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 61 إلى 68]

فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)

(1). قوله «و قد يجمع القليل على أقلة وقلل» في الصحاح : مثل سرير وسرر. (ع) [.....]

(2). قوله «و قرئ حذرون وحاذرون وحادرون» في الصحاح : وقرئ : وإنا لجميع حاذرون. وحذرون. وحذرون ، أيضا بضم الذال ، حكاه الأخفش. ومعنى «حاذرون» متأهبون. وفيه : آد الرجل ، أى قوى ، من الأداة ، فهو مؤد بالهمز ، أى : شاك في السلاح. وفيه آديت السفر فأنا مؤد له ، إذا كنت متهيئا له. (ع)

(3). الحادر : القوى الشديد ، أو الشجاع الباسل ، أى : إن مدار حب الولد على حب أمه ، لا على حسن أوصافه وضمير «أبغضه» عائد على الصبى بدون وصفه ، لكن هذه شيمة المنهمك في حب النساء.

(4). قوله «و قيل السر في الحجال» السر : الجماع ، والحجال : جمع حجلة وهي بيت العروس يزين بالثياب والأسرة والستور ، كذا في الصحاح. (ع)

سَيَهْدِينِ طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم. وقرئ ، فلما تراءت الفئتان. إنا لمدّركون : بتشديد الدال وكسر الراء ، من ادّرك الشيء إذا تتابع ففنى. ومنه قوله تعالى بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ قال الحسن : جهلوا علم الاخرة. وفي معناه بيت الحماسة :

أبعد بنى أمّى الّذين تتابعوا أرجّى الحياة أم من الموت أجزع «1»

والمعنى : إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم ، حتى لا يبقى منا أحد. الفرق : الجزء المتفرّق منه.

وقرئ : كل فلق. والمعنى واحد. والطود : الجبل العظيم «2» المنطاد في السماء وَأَزْلَفْنا ثَمَّ حيث انفلق البحر الْآخَرِينَ قوم فرعون ، أى : قربناهم من بنى إسرائيل : أو أدنينا بعضهم من بعض ، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ، أو قدمناهم إلى البحر. وقرئ : وأزلقنا ، بالقاف ، أى : أزللنا أقدامهم. والمعنى : أذهبنا عزهم ، كقوله :

تداركتما عبسا وقد ثلّ عرشها وذبيان إذ زلّت بأقدامها النّعل «3»

(1) أبعد بى أمى الذين تتابعوا أرجى حياة أم من الموت أجزع
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم وما الكف إلا أصبع ثم أصبع
لأبى الحناك البراء ربعي الفقعسي ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، والمراد التحسر والتحزن ، وتتابعوا أى انقرضوا واحدا بعد واحد. أرحى : أى أرتجى حياة أم أجزع من الموت ، أى : لا أفعل ذلك بعدهم وقال : بى أمى ، لأن المقام مقام رقة ورحمة ، فهم ثمانية كانوا رؤساء قومهم ، كالذؤابة الرأس ، وهي شعرها الذي يتحرك حولها ، فهو تشبيه بليغ ، ثم قال : كنت بهم أفعل ما أريد من الإعطاء والمنع. ويجوز بناء الفعلين للمجهول ، فالمعنى : كنت بهم أنال ما أشاء وأكفى شر ما أشاء ، ورزأته أصبته في ماله. ورزأته ماله. ورزأتهم : مبنى للمجهول ، أى : نقصني الدهر إياهم وأخذهم منى ، فلا قوة لي بعدهم ، كما أن الكف إذا فقدت أصابعها بطلت قوتها ، لأن بطشها ليس إلا بالأصابع منتظمة مرتبة ، فهم لي كالأصابع للكف.

(2). قوله «و الطود الجبل العظيم المنطاد في السماء» في الصحاح «طود في الجبال» : مثل طوف وطوح. والمطاود مثال المطاوح. (ع)

(3). لزهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف. وعبس وذبيان كلاهما اسم قبيلة. يقول : تداركتما هاتين القبيلتين بالصلح بينهما ودفع ديات قتلاهم ، وقد ثل : أى هدم عرشها. وهذا تمثيل لذهاب عزهم وفناء دولتهم.
وزلت النعل بالقدم : زلقت عن مقرها ، وهذا أيضا تمثيل لاختلال أمرهم وفساد رأيهم. وفي البيت شبه الطباق ، حيث أن الأولى أتاها العذاب من فوق رءوسها ، والثانية : أتاها من تحت أرجلها

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبنى إسرائيل يبسا فيزلقهم فيه. عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون ، فكان يقول لبنى إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم. ويستقبل القبط فيقول : رويدكم يلحق آخركم. فلما انتهى موسى إلى البحر قال له مؤمن آل فرعون - وكان بين يدي موسى : أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون؟ قال : أمرت بالبحر ولا يدرى موسى ما يصنع ، فأوحى الله تعالى إليه : أن اضرب بعصاك البحر. فضربه فصار فيه اثنا عشر طريقا : لكل سبط طريق.

وروى أنّ يوشع قال : يا كليم الله ، أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟ قال موسى : هاهنا. فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا. وروى أنّ موسى قال عند ذلك : يا من كان قبل كل شيء ، والمكوّن لكل شيء ، والكائن بعد كل شيء. ويقال : هذا البحر هو بحر القلزم. وقيل : هو بحر من وراء مصر، يقال له : أساف إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً أية آية ، وآية لا توصف ، وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم ، وما تنبه عليها أكثرهم ، ولا آمن بالله.

وبنو إسرائيل : الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاء قد سألوه بقرة يعبدونها ، واتخذوا العجل ، وطلبوا رؤية الله جهرة وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ المنتقم من أعدائه الرَّحِيمُ بأوليائه.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 69 إلى 71]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (69) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (70) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (71)
كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء ، كما تقول للتاجر : ما مالك؟ وأنت تعلم أنّ ماله الرقيق ، ثم تقول له : الرقيق جمال وليس بمال. فإن قلت: ما تَعْبُدُونَ سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا : أصناما ، كقوله تعالى وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ ، ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً. قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين ، فاشتملت على جواب إبراهيم ، وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار. ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم نعبد فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده. ومثاله أن تقول لبعض الشطار : ما تلبس في بلادك؟ فيقول :

ألبس البرد الأتحمى «1» ، فأجرّ ذيله بين جواري الحي. وإنما قالوا : نظل ، لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 72 إلى 73]

قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)

لا بد في يَسْمَعُونَكُمْ من تقدير حذف المضاف ، معناه : هل يسمعون دعاءكم. وقرأ قتادة : يسمعونكم ، أى : هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم؟ وهل يقدرون على ذلك؟ وجاء مضارعا مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية. ومعناه : استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها ، وقولوا هل سمعوا أو أسمعوا قط. وهذا أبلغ في التبكيت.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 74 إلى 82]

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82)

لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم : رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأوّلين من آبائكم ، فإن التقدّم والأوّلية لا يكون برهانا على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقا بالقدم ، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ، ومعنى العداوة قوله تعالى كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ولأنّ المغرى على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان ، وإنما قال عَدُوٌّ لِي تصويرا للمسألة في نفسه ، على معنى : أنى فكرت في أمرى فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أوّلا وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ، ليكون أدعى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه. ولو قال : فإنه عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل في باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمّل فيه ،

---

(1). قوله «البرد الأتحمى» في الصحاح «الأتحمي» : ضرب من البرود. (ع)

فربما قادة التأمّل إلى التقبل. ومنه ما يحكى عن الشافعىّ رضى الله تعالى عنه أنّ رجلا واجهه بشيء فقال : لو كنت بحيث أنت ، لاحتجت إلى أدب ، وسمع رجل ناسا يتحدثون في الحجر فقال : ما هو ببيتى ولا بيتكم. والعدوّ والصديق : يجيئان في معنى الوحدة والجماعة. قال :

وقوم علىّ ذوى مئرة أراهم عدوّا وكانوا صديقا «1»

ومنه قوله تعالى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ شبها بالمصادر للموازنة ، كالقبول والولوع ، والحنين والصهيل إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ استثناء منقطع ، كأنه قال : ولكن رب العالمين فَهُوَ يَهْدِينِ يريد أنه حين أتمّ خلقه ونفخ فيه الروح ، عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كلّ ما يصلحه ويعنيه ، وإلا فمن هداه إلى أن يغتذى بالدم في البطن امتصاصا ، ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة ، وإلى معرفة مكانه ، ومن هداه لكيفية الارتضاع ، إلى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد ، وإنما قال مَرِضْتُ دون «أمرضنى» لأنّ كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه «2» وغير ذلك. ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا : التخم. وقرئ : خطاياي ، والمراد : ما يندر منه من بعض الصغائر ، لأنّ الأنبياء معصومون مختارون على العالمين. وقيل : هي قوله إِنِّي سَقِيمٌ وقوله بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ وقوله لسارّة : هي أختى. وما هي إلا معاريض كلام ، وتخييلات للكفرة ، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار. فإن قلت : إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهي تقع مكفرة ،

(1). المرة : القوة ، وشدة الجدال ، ويروى : ذوى مبرة ، أى : عداوة أو فخر أو شدة. والعدو والصديق يجيئان للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع. يقول : ورب قوم أصحاب قوة على ، أراهم اليوم أعداء وكانوا أصدقاء.
(2). قال محمود : «إنما أضاف المرض إلى نفسه لأن كثيرا منه بتفريط الإنسان في مطعمه ومشربه» قال أحمد :
والذي ذكره غير الزمخشري أن السر في إضافة المرض إلى نفسه التأدب مع الله تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى ، ولعل الزمخشري إنما عدل عن هذا لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الإماتة إلى الله تعالى وهي أشد من المرض ، فلم يثبت عنده المعنى المذكور ، ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضا في المرض ينكسر بالموت ، فان المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه ، كذلك الموت الناشئ عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان وقد أضافه إلى الله تعالى. ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب :
بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص ، ولا كذلك المرض.
فكم من معافى منه قد بغتة الموت ، فالتأسى بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله تعالى. وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض ، كان بلاء محققا فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه ، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بتا وجزما ، لأنه أمر لا بد منه. وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقرونا بشرط إذا ، فقال وَإِذا مَرِضْتُ وكان ممكنا أن يقول : والذي يمرضنى فيشفينى كما قال في غيره ، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك ، والله أعلم.

فما له أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا وطمع أن تغفر له؟ قلت : الجواب ما سبق لي : أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، ويدل عليه قوله أَطْمَعُ ولم يجزم القول بالمغفرة. وفيه تعليم لأممهم ، وليكون لطفا لهم في اجتناب المعاصي والحذر منها ، وطلب المغفرة مما يفرط منهم. فإن قلت : لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، وإنما تغفر في الدنيا؟ قلت : لأنّ أثرها يتبين يومئذ ، وهو الآن خفى لا يعلم.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 83 إلى 89]

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ (88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)

الحكم : الحكمة ، أو الحكم بين الناس بالحق. وقيل : النبوّة ، لأنّ النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله. والإلحاق بالصالحين : أن يوفقه لعمل ينتظم به في جملتهم ، أو يجمع بينه وبينهم في الجنة. ولقد أجابه حيث قال وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. والإخزاء : من الخزي وهو الهوان. ومن الخزاية «1» وهي الحياء. وهذا أيضا من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفي يُبْعَثُونَ ضمير العباد ، لأنه معلوم. أو ضمير الضالين. وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه «2» ، يعنى : ولا تخزني يوم يبعث الضالون وأبى فيهم إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ إلا حال من أتى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وهو من قولهم : تحيّة بينهم ضرب وجيع «3» وما ثوابه إلا السيف. وبيانه أن يقال لك : هل لزيد مال وبنون؟ فتقول : ماله وبنوه : سلامة قلبه ، تريد نفى المال والبنين عنه ، وإثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك. وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى الغنى ، كأنه قيل : يوم لا

(1). قوله «و من الخزاية» لعله : أو من. (ع)
(2). قوله «أو ضمير الضالين ، وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه» لعله عطف على المعنى ، كأنه قال : ويحتمل أنه ضمير الضالين ... الخ. (ع)
(3). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 60 فراجعه إن شئت اه مصححه.

ولك أن تجعل الاستثناء منقطعا ، ولا بدّ لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال ، والمراد بها سلامة القلب ، وليست هي من جنس المال والبنين ، حتى يؤوّل المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان ، وإنما ينفع سلامة القلب. ولو لم يقدر المضاف ، لم يتحصل للاستثناء معنى. وقد جعل مَنْ مفعولا لينفع ، أى : لا ينفع مال ولا بنون ، إلا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله ، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع. ويجوز على هذا إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من فتنة المال والبنين. ومعنى سلامة القلب : سلامته من آفات الكفر والمعاصي ، ومما أكرم الله تعالى به خليله ونبه على جلالة محله في الإخلاص : أن حكى استثناءه هذا حكاية راض بإصابته فيه ، ثم جعله صفة له في قوله وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ ، إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ومن بدع التفاسير : تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية الله. وقول آخر : هو الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم. وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين ، حين سألهم أوّلا عما يعبدون سؤال مقرّر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا أن يكون حجة ، ثم صوّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا ، فعظم شأنه وعدّد نعمته ، من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل اليه ابتهال الأوّابين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 90 إلى 95]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95)

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتبطون بأنهم المحشورون إليها ، والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها : قال الله تعالى وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ وقال فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا : يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات ، فتجعل النار بمرأى منهم ، فيهلكون غما في كل لحظة ، ويوبخون على إشراكهم ، فيقال لهم : أين آلهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم. أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم : لأنهم وآلهتهم وقود النار ، وهو قوله فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ أى الآلهة وَالْغاوُونَ وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم. والكبكبة : تكرير الكب ، جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى ، كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها ، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار وَجُنُودُ إِبْلِيسَ شياطينه ، أو متبعوه من عصاة الجن والإنس.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 96 إلى 104]

قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (98) وَما أَضَلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (99) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (100) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم. ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين. والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم : رؤساؤهم وكبراؤهم ، كقوله رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا وعن السدّى : الأوّلون الذين اقتدينا بهم. وعن ابن جريج : إبليس ، وابن آدم القاتل ، لأنه أوّل من سنّ القتل وأنواع المعاصي ، فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين وَلا صَدِيقٍ كما نرى لهم أصدقاء ، لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون. وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض ، قال الله تعالى الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ أو : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء ، لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله ، وكان لهم الأصدقاء من شياطين

والحميم من الاحتمام ، وهو الاهتمام ، وهو الذي يهمه ما يهمك. أو من الحامة بمعنى الخاصة ، وهو الصديق الخاص. فإن قلت : لم جمع الشافع ووحد الصديق؟ قلت : لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق «1». ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته ،

(1). قال محمود : «إنما جمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة إذا نزل بإنسان خطب ممن يعرفه وممن لا يعرفه وأما الصديق فقليل» قال أحمد : العجب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع ، فما الدليل على إرادة الافراد؟
ثم لو كان المراد الافراد لكان أعم ، لأنه في سياق النفي ، فينفى الواحد فما زاد عليه إلى ما لا نهاية له ، والله أعلم

رحمة له وحسبة ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق - وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك - فأعز من بيض الأنوق «1». وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق : الجمع. الكرّة : الرجعة إلى الدنيا.

ولو في مثل هذا الموضع في معنى التمني ، كأنه قيل : فليت لنا كرة. وذلك لما بين معنى «لو» و«ليت» من التلاقي في التقدير. ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب ، وهو : لفعلنا كيت وكيت.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 105 إلى 110]

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(110)

القوم : مؤنثة ، وتصغيرها قويمة. ونظير قوله الْمُرْسَلِينَ والمراد نوح عليه السلام : قولك : فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبرد «2». قيل : أخوهم ، لأنه كان منهم ، من قول العرب : يا أخا بنى تميم ، يريدون : يا واحدا منهم. ومنه بيت الحماسة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النّائبات على ما قال برهانا «3»

كان أمينا فيهم مشهورا بالأمانة ، كمحمد صلى الله عليه وسلم في قريش وَأَطِيعُونِ في نصحى لكم وفيما أدعوكم إليه من الحق عَلَيْهِ على هذا الأمر ،

(1). قوله «فأعز من بيض الأنوق» في الصحاح : الأنوق - على فعول - : طائر وهو الرخمة. (ع) [.....]
(2). قال محمود : «المراد نوح ، كما تقول : فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبرد» قال أحمد : لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد هاهنا مع القطع بأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل لأنه ما من نبي إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق فقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة ، وكذلك الاشارة بقوله تعالى لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ لأن التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل والله أعلم.
(3) قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لقريط بن أنيق من قبيلة بلعنبر ، أغار عليه ناس من بنى شيبان فأخذوا منه ثلاثين بعيرا ، فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فاستغاث ببني مازن فركبوا معه وأطردوا له مائة بعير من بنى شيبان ، وحرسوه إلى قومه ، فمدحهم ووبخ قومه.
والناجذ : السن بين الضرس والناب. وقيل : ضرس العقل. وقيل : الضرس مطلقا. والزرافة - بالفتح والضم - : الجماعة من الناس ، وبها سميت الدابة المعروفة. والوحدان - بالضم - : جمع واحد. وشبه الشر بأسد يكشر عن أنيابه على طريق المكنية فأثبت له الناجذين تخييلا. يقول : بنو مازن شجعان : إذا ظهر الشر واشتد فزعوا إليه جماعات ومنفردين ، فاستعار الطيران لذلك على طريق التصريحية. أو شبههم بالطيور في السرعة والانتشار على طريق الكناية والطريق تخييل ، لا يسألون صاحبهم دليلا على ما قاله حين يناديهم برفع صوته في الملمات.

وعلى ما أنا فيه ، يعنى : دعاءه ونصحه ومعنى فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ : فاتقوا الله في طاعتي ، وكرره ليؤكده عليهم ويقرّره في نفوسهم ، مع تعليق كل واحدة منهما بعلة ، جعل علة الأوّل كونه أمينا فيما بينهم ، وفي الثاني حسم طمعه عنهم.

[سورة الشعراء (26) : آية 111]

قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111)

وقرئ : وأتباعك ، جمع تابع ، كشاهد وأشهاد. أو جمع تبع ، كبطل وأبطال. والواو للحال. وحقها أن يضمر بعدها «قد» في : واتبعك. وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى التكسير في قوله الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا والرذالة والنذالة : الخسة والدناءة. وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا. وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية «1» كالحياكة والحجامة. والصناعة لا تزري بالديانة ، وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك ، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم. ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قال : ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك «2». وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هم الغاغة «3». وعن عكرمة : الحاكة والأساكفة. وعن مقاتل : السفلة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 112 إلى 115]

قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (115)

وَما عِلْمِي وأى شيء علمى؟ والمراد : انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على سر أمرهم وباطنه. وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا - مع استرذالهم - في إيمانهم ، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ، وإنما آمنوا هوى وبديهة ، كما حكى الله عنهم في قوله الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ ويجوز أن يتغابى لهم نوح عليه السلام. فيفسر قولهم الأرذلين ، بما هو الرذالة عنده ، من سوء الأعمال وفساد العقائد ، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم ، ثم يبنى جوابه على ذلك فيقول : ما علىّ إلا اعتبار الظواهر ، دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم ، وإن كان لهم عمل سيئ ، فالله محاسبهم ومجازيهم عليه ، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز لَوْ تَشْعُرُونَ ذلك، ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم ، وقصد بذلك ردّ اعتقادهم وإنكار أن يسمى المؤمن رذلا،

(1). قوله «الصناعات الدنية» لعله : الدنيئة. كعبارة النسفي. (ع)
(2). متفق عليه من حديث ابن عباس عن أبى سفيان بلفظ : وسألتك ضعفاء الناس اتبعوه أم أشرافهم؟ فقلت : بل ضعفاؤهم وكذلك أتباع الرسل. قلت : رواه بلفظ «أراذلهم».
(3). قوله «هم الغاغة» لعله الصاغة. وفي الخازن : قال ابن عباس : يعنى القافة. (ع)

وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا ، فإن الغنى غنى الدين ، والنسب نسب التقوى وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ يريد ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعا في إيمانكم وما علىّ إلا أن أنذركم إنذارا بينا بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ، ثم أنتم أعلم بشأنكم.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 116 إلى 122]

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (120)
إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

ليس هذا بإخبار بالتكذيب ، لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ، ولكنه أراد أنى لا أدعوك عليهم لما غاظونى وآذوني ، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك ، فاحكم بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ والفتاحة : الحكومة. والفتاح : الحاكم ، لأنه يفتح المستغلق كما سمى فيصلا ، لأنه يفصل بين الخصومات. الفلك : السفينة، وجمعه فلك : قال الله تعالى : وترى الفلك فيه مواخر : فالواحد بوزن قفل ، والجمع بوزن أسد ، كسروا فعلا على فعل ، كما كسروا فعلا على فعل ، لأنهما أخوان في قولك : العرب والعرب ، والرشد والرشد. فقالوا : أسد وأسد ، وفلك وفلك. ونظيره : بعير هجان ، وإبل هجان. ودرع دلاص. ودروع دلاص ، فالواحد بوزن كناز ، والجمع بوزن كرام. والمشحون : المملوء. يقال : شحنها عليهم خيلا ورجالا.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 123 إلى 131]

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131)
قرئ : بكل ريع ، بالكسر والفتح : وهو المكان المرتفع. قال المسيب بن علس :

في الآل يرفعها ويخفضها ريع يلوح كأنّه سحل «1»

ومنه قولهم : كم ريع أرضك؟ وهو ارتفاعها. والآية : العلم وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم. فاتخذوا في طرقهم أعلاما طوالا فعبثوا بذلك ، لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم.

وعن مجاهد : بنوا بكل ريع بروج الحمام «2». والمصانع : مآخذ الماء. وقيل : القصور المشيدة والحصون لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ترجون الخلود في الدنيا. أو تشبه حالكم حال من يخلد. وفي حرف أبىّ : كأنكم. وقرئ تخلدون بضم التاء مخففا ومشددا وَإِذا بَطَشْتُمْ بسوط أو سيف كان ذلك ظلما وعلوا ، وقيل : الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب. وعن الحسن : تبادرون تعجيل العذاب ، لا تتثبتون متفكرين في العواقب.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 132 إلى 135]

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135)

بالغ في تنبيههم على نعم الله ، حيث أجملها ثم فصلها مستشهدا بعلمهم ، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال «3» أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ ثم عدّدها عليهم وعرّفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته ، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة ، فهو قادر على الثواب والعقاب ، فاتقوه.

ونحوه قوله تعالى وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ. فإن قلت : كيف قرن البنين بالأنعام؟ قلت : هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 136 إلى 140]

قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (136) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

---

(1). للمسيب بن علس ، والآل : هو السراب. وقيل : الآل : ما في طرفى النهار وما في وسطه السراب.
والريع بالكسر : الطريق والمرتفع من الأرض. والسحل : نوع أبيض من ثياب اليمن ، ولعل الضمير للظعائن ، أى : هي في الآل. أو في وقته : يرفعها تارة ويخفضها أخرى ، ريع : أى طريق مرتفع تارة ، ومنخفض أخرى.
أو مكان عال ترتفع بصعوده وتنخفض بالهبوط منه ، يلوح : أى يظهر من بعد ، كأنه ثياب بيض.
(2). قال محمود : «كانوا يهتدون في أسفارهم بالنجوم ، فاتخذوا في طرقهم أعلاما فعبثوا بذلك ، إذ النجوم فيها غنية عنها. وقيل : المراد القصور المشيدة ، وقيل : بروج الحمام» قال أحمد : وتأويلها على القصور أظهر ، وقد ورد ذم ذلك على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم ، حيث وصف الكائنين آخر الزمان بأنهم يتطاولون في البنيان ، وما أحسن قول مالك رضى الله عنه : ولا يصلى الامام على شيء أرفع مما عليه أصحابه ، كالدكاك تكون مرتفعة في المحراب ارتفاعا كبيرا ، لأنهم يعبثون ، فعبر عن ترفعهم إلى المحراب على سبيل التكبر ومطاولتهم المأمومين بالعبث ، كتعبير هود صلوات الله عليه وسلامه عن ترفع قومه في البنيان بالعبث.
وأما تأويل الآية على اتخاذهم الأعلام في الطرقات وقد كانت لهم بالنجوم كفاية ، ففيه بعد ، من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لغيم مطبق وما يجرى مجراه.
ولو وضع هذا في زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثا ، والله أعلم.
(3). قوله «حين قال» لعله : حيث قال. (ع)

فإن قلت : لو قيل أَوَعَظْتَ أو لم تعظ ، كان أخصر. والمعنى واحد. قلت : ليس المعنى بواحد وبينهما فرق ، لأنّ المراد : سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ ، أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه ، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه ، من قولك : أم لم تعظ. من قرأ : خلق الأوّلين بالفتح ، فمعناه : أنّ ما جئت به اختلاق الأوّلين وتخرّصهم ، كما قالوا :

أساطير الأوّلين. أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية ، نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا حساب. ومن قرأ : خلق ، بضمتين ، وبواحدة ، فمعناه. ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم ، كانوا يدينونه ويعتقدونه ، ونحن بهم مقتدون. أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت الإعادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين ، كانوا يلفقون مثله ويسطرونه.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 141 إلى 152]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ(152)

أَتُتْرَكُونَ يجوز أن يكون إنكارا لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزالون عنه ، وأن يكون تذكيرا بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك ، مع الأمن والدّعة فِي ما هاهُنا في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ، ثم فسره بقوله فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وهذا أيضا إجمال ثم تفصيل. فإن قلت : لم قال وَنَخْلٍ بعد قوله : في جنات ، والجنة تتناول النخل أوّل شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج ، حتى أنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخيل ، كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل. قال زهير :

..... تسقى جنّة سحقا «1»

قلت : فيه وجهان : أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر ، تنبيها على انفراده عنها بفضله عليها ، وأن يريد بالجنات : غيرها من الشجر ، لأنّ اللفظ يصلح لذلك ، ثم يعطف عليها النخل. الطلعة : هي التي تطلع من النخلة ، كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو. والقنو : اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. والهضيم : اللطيف الضامر ، من قولهم : كشح هضيم ، وطلع إناث النخل فيه لطف ، وفي طلع الفحاحيل جفاء ، وكذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون «2» ، فذكرهم نعمة الله في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه : لأنّ الإناث ولادة التمر ، والبرني : أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء ، وسلمت من العاهات ، فحملت الحمل الكثير ، وإذا كثر الحمل هضم ، وإذا قل جاء فاخرا. وقيل : الهضيم : اللين النضيج ، كأنه قال : ونخل قد أرطب ثمره. قرأ الحسن : وتنحتون ، بفتح الحاء. وقرئ : فرهين ، وفارهين. والفراهة : الكيس والنشاط. ومنه : خيل فرهة ، استعير لامتثال الأمر ، وارتسامه طاعة الآمر المطاع. أو جعل الأمر مطاعا على المجاز الحكمي ، والمراد الآمر. ومنه قولهم : لك علىّ إمرة مطاعة. وقوله تعالى وَأَطِيعُوا أَمْرِي. فإن قلت : ما فائدة قوله وَلا يُصْلِحُونَ؟ قلت : فائدته أنّ فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح ، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 153 إلى 154]

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154)

المسحر : الذي سحر كثيرا حتى غلب على عقله. وقيل : هو من السحر الرئة ، «3» وأنه بشر.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 155 إلى 156]

قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156)

الشرب : النصيب من الماء ، نحو السقي والقيت ، للحظ من السقي والقوت ، وقرئ بالضم.

روى أنهم قالوا : نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة ، فتلد سقبا «4» ، فقعد صالح يتفكر ،

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 105 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2). قوله «و كذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون» البرني : ضرب من التمر. واللون : الدقل ، والدقل : أردا التمر ، كذا في الصحاح. (ع)
(3). قوله «الرئة» لعله : بمعنى الرئة. (ع)
(4). قوله «فتلد سقبا» في الصحاح «السقب» : الذكر من ولد الناقة. (ع)

فقال له جبريل عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك الناقة ، ففعل ، فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها في العظم. وعن أبى موسى : رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعا.

وعن قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء بِسُوءٍ بضرب أو عقر أو غير ذلك. عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 157 إلى 159]

فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)

وروى أن مسطعا ألجأها إلى مضيق في شعب ، فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت : ثم ضربها قدار. وروى أنّ عاقرها قال : لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين ، فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون : أترضين؟ فتقول : نعم ، وكذلك صبيانهم. فإن قلت : لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ قلت : لم يكن ندمهم ندم تائبين ، ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقابا عاجلا ، كمن يرى في بعض الأمور رأيا فاسدا ويبنى عليه ، ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعيّ «1» أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة ، وذلك عند معاينة العذاب. وقال الله تعالى وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ... الآية. وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد ، وهو بعيد. واللام في العذاب : إشارة إلى عذاب يوم عظيم.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 160 إلى 166]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (166)

أراد بالعالمين : الناس ، أى : أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام - على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة - ذكر انهم ، كأن الإناث قد أعوزتكم.

(1). قوله «كندامة الكسعي» الكسع : حي من اليمن. والكسعي : رجل منهم ربى تبعة حتى أخذ منها قوسا فرمي عنها الوحش ليلا وظن أنه أخطأ ، فكسر القوس ، فلما أصبح رأى ما أصابه من الصيد فندم ، وضرب به المثل من قال :
ندمت ندامة الكسعي لما رأت عيناه ما صنعت يداه
كذا في الصحاح. (ع)

أو أتأتون أنتم - من بين من عداكم من العالمين - الذكران ، يعنى أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة. والعالمون على هذا القول : كل ما ينكح من الحيوان مِنْ أَزْواجِكُمْ يصلح أن يكون تبيينا لما خلق «1»، وأن يكون للتبعيض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منهنّ.

وفي قراءة ابن مسعود : ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم ، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم. العادي : المتعدّى في ظلمه ، المتجاوز فيه الحدّ ، ومعناه : أترتكبون هذه المعصية على عظمها ، بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي ، فهذا من جملة ذاك ، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان ، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

[سورة الشعراء (26) : آية 167]

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167)

لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عن نهينا وتقبيح أمرنا لَتَكُونَنَّ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوإ حال : من تعنيف به ، واحتباس لأملاكه «2». وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه ، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة.

---

(1). قال محمود : «يحتمل أن يكون من أزواجكم بيانا لما خلق ، وأن يكون للتبعيض ويراد به العضو المباح منهن. وفي قراءة ابن مسعود : ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم ، فكأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم» قال أحمد :
وقد أشار الزمخشري بهذه الاشارة للاستدلال بهذه الآية على حظر إتيان المرأة في غير المأتى ، وبيانه أن «من» لو كانت بيانا لكان العنى حينئذ على ذمهم بترك الأزواج ، ولا شك أن ترك الأزواج مضموم إلى إتيان الذكران» وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران ، لا أن ترك الأزواج وحده منكر ، ولو كان الأمر كذلك لكان النصب في الثاني متوجها على الجمع ، وكان إما الأفصح أو المتعين ، وقد اجتمعت العامة على القراءة به مرفوعا ، ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة أو في الجواز أصلا ، فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد ، فيتعين حمل «من» على البعضية ، فيكون المنكر عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالإنكار ، أحدهما : إتيان الذكران. والثاني : مجانبة إتيان النساء في المأتى رغبة في إتيانهن في غيره ، وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول ، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير ، والله الموفق. [.....]
(2). قال محمود : «أى من جملة من أخرجناه ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من تعنيف به واحتباس لأملاكه وأشباه ذلك» قال أحمد : وكثيرا ما ورد في القرآن خصوصا في هذه الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة ، ثم جعل الموصوف بها واحدا من جمع ، كقول فرعون لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ وقولهم سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ وقولهم لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ وقوله إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ وقوله تعالى في غيرها رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وكذلك ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ وأمثاله كثيرة ، والسر في ذلك والله أعلم : أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة ، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحدا من جمع ، فانه يفهم أمرا زائدا على وقوعه ، وهو أن الصفة المذكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلوق به ، كأنها لقب ، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة ، واعتبر ذلك لو قلت : رضوا بأن يتخلفوا ، لما كان في ذلك مزيد على الاخبار بوقوع التخلف منهم لا غير. وانظر إلى المساق وهو قوله رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ كيف ألحقهم لقبا رديئا ، وصيرهم من بوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقبا لاصقا به ، وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك ، فتأمله واقدره قدره ، والله الموفق للصواب.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 168 إلى 175]

قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)

ومِنَ الْقالِينَ أبلغ من أن يقول : إنى لعملكم قال ، كما تقول : فلان من العلماء ، فيكون أبلغ من قولك : فلان عالم، لأنك تشهد له بكونه معدودا في زمرتهم ، ومعروفة مساهمته لهم في العلم. ويجوز أن يريد : من الكاملين في قلاكم. والقلى : البغض الشديد ، كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد. وفي هذا دليل على عظم المعصية ، والمراد: القلى من حيث الدين والتقوى ، وقد تقوى همة الدّين في دين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية مِمَّا يَعْمَلُونَ من عقوبة عملهم وهو الظاهر. ويحتمل أن يريد بالتنجية : العصمة. فإن قلت : فما معنى قوله فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً؟ قلت : معناه أنه عصمه وأهله من ذلك إلا العجوز ، فإنها كانت غير معصومة منه ، لكونها راضية به ومعينة عليه ومحرشة ، والراضي بالمعصية في حكم العاصي. فإن قلت : كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة ، فكيف استثنيت الكافرة منهم : قلت الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الاسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان.

فإن قلت : فِي الْغابِرِينَ صفة لها ، كأنه قيل : إلا عجوزا غابرة ، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم «1» قلت : معناه إلا عجوزا مقدّرا غبورها. ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك : غير الناجين.

قيل : إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة. والمراد بتدميرهم : الائتفاك بهم ، وأمّا الإمطار : فعن قتادة : أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم. وعن ابن زيد : لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطرا من حجارة. وفاعل فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ولم يرد بالمنذرين قوما بأعيانهم ، إنما هو للجنس ، والمخصوص بالذّم محذوف ، وهو مطرهم.

(1). قال محمود : «المجرور صفة لها ، كأنه قيل : إلا عجوزا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم. قلت : معناه إلا عجوزا مقدرا غبورها ، أى : في الهلاك والعذاب» قال أحمد : وإن تعجلت برفع القاعدة الممهدة آنفا ، فاعلم أن السر الذي اقتضى العدول عن أن يقول مثلا : إلا عجوزا غابرة إلى ما ذكر في المتلوّ : هو أن المذكور في التلاوة يقتضى الاسجال عليها بأنها من أمة موسومين بهذه السمة من الهلاك كما قدمته الآن ، فهو أبلغ من مجرد وصفها بالغبور ، واللَّه أعلم.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 176 إلى 180]

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (180)

قرئ أصحاب الأيكة بالهمزة وبتخفيفها ، وبالجرّ على الإضافة وهو الوجه. ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة : اسم بلد ، فتوهم قاد إليه خط المصحف ، حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف. وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه ، وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ ، كما يكتب أصحاب النحو لان ، ولولى : على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف ، وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل ، والقصة واحدة ، على أن ليكة اسم لا يعرف. وروى أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف ، وكان شجرهم الدوم. فإن قلت : هلا قيل : أخوهم شعيب ، كما في سائر المواضع؟ قلت : قالوا : إن شعيبا لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث : إن شعيبا أخا مدين ، أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 181 إلى 184]

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184)

الكيل على ثلاثة أضرب : واف ، وطفيف ، وزائد. فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء ، ونهى عن المحرّم الذي هو التطفيف ، ولم يذكر الزائد ، وكأن تركه عن الأمر والنهى : دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه. قرئ : بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان وقيل : القرسطون ، فإن كان من القسط وهو العدل - وجعلت العين مكررة - فوزنه فعلاس ، وإلا فهو رباعي. وقيل : وهو بالرومية العدل. يقال : بخسته حقه ، إذا نقصته إياه. ومنه قيل للمكس : البخس ، وهو عامّ في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم ، وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفا شرعيا. يقال : عثا في الأرض وعثى وعاث ، وذلك نحو قطع الطريق ، والغارة ، وإهلاك الزروع ، وكانوا يفعلون ذلك مع توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك. وقرئ : الجبلة ، بوزن الأبلة. والجبلة «1» ، بوزن الخلقة.

ومعناهنّ واحد ، أى : ذوى الجبلة ، وهو كقولك : والخلق الأوّلين.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 185 إلى 186]

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (186)

فإن قلت : هل اختلف المعنى بإدخال الواو هاهنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت : إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان : كلاهما مناف للرسالة عندهم : التسحير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرا ولا يجوز أن يكون بشرا ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا ، ثم قرر بكونه بشرا مثلهم. فإن قلت : إن المخففة من الثقيلة ولامها كيف تفرقتا على فعل الظنّ وثانى مفعوليه؟ قلت : أصلهما أن يتفرقا على المبتدإ والخبر ، كقولك : إن زيد لمنطلق ، فلما كان البابان - أعنى باب كان وباب ظننت - من جنس باب المبتدإ والخبر ، فعل ذلك في البابين فقيل : إن كان زيد لمنطلقا ، وإن ظننته لمنطلقا.

[سورة الشعراء (26) : آية 187]

فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187)

قرئ : كسفا بالسكون والحركة ، وكلاهما جمع كسفة ، نحو : قطع وسدر. وقيل : الكسف والكسفة ، كالريع والريعة ، وهي القطعة. وكسفه : قطعه. والسماء : السحاب ، أو المظلة.

وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب. ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه. والمعنى : إن كنت صادقا أنك نبيّ ، فادع الله أن يسقط علينا كسفا من السماء.

[سورة الشعراء (26) : آية 188]

قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (188)

رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ يريد : أنّ الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب ، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل ، وإن أراد عقابا آخر فإليه الحكم والمشيئة

[سورة الشعراء (26) : آية 189]

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189)

(1). قوله «الأبلة والجبلة» في الصحاح «الأبلة» بالضم وتشديد اللام : الغدرة من التمر. وفيه «الغدرة» : القطعة من اللحم إذا كانت مجتمعة. وفيه أيضا : الجبلة الخلقة. ومنه قوله تعالى وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ وقرأها الحسن بالضم اه (ع)

فَأَخَذَهُمْ الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب ، وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم. يروى أنه حبس عنهم الريح سبعا ، وسلط عليهم الومد «1» فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظلّ ولا ماء ولا سرب ، فاضطرّوا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما ، فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا. وروى أنّ شعيبا بعث إلى أمتين : أصحاب مدين ، وأصحاب الأيكة ، فأهلكت مدين بصيحة جبريل ، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة. فإن قلت : كيف كرّر في هذه السورة في أوّل كل قصة وآخرها ما كرّر؟ قلت : كل قصة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به ، ولأنّ في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس ، وتثبيتا لها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها ، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ، ولأنّ هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق ، وقلوب غلف عن تدبره ، فكوثرت بالوعظ والتذكير ، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا ، أو يفتق ذهنا ، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل ، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 192 إلى 196]

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)

وَإِنَّهُ وإن هذا التنزيل ، يعنى : ما نزل من هذه القصص والآيات. والمراد بالتنزيل : المنزل. والباء في نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ ونزل به الروح ، على القراءتين للتعدية. ومعنى نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ جعل الله الروح نازلا به عَلى قَلْبِكَ أى : حفظكه وفهمك إياه ، وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى ، كقوله تعالى سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ إما أنّ يتعلق بالمنذرين ،

(1). قوله «الومد» شدة حر الليل ، كما في الصحاح. (ع)

فيكون المعنى : لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة : هود ، وصالح ، وشعيب ، وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وإما أن يتعلق بنزل ، فيكون المعنى : نزله باللسان العربي «1» لتنذر به ، لأنه لو نزله باللسان الأعجمى ، لتجافوا عنه أصلا ، ولقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه : أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك ، لأنك تفهمه ويفهمه قومك. ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفا بعدّة لغات ، فإذا كلم بلغته التي لقنها أو لا ونشأ عليها وتطبع بها ، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام

[سورة الشعراء (26) : آية 197]

أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (197)

وقرئ : يكن ، بالتذكير. وآية ، بالنصب على أنها خبره ، وأَنْ يَعْلَمَهُ هو الاسم. وقرئ.

تكن ، بالتأنيث ، وجعلت آيَةً اسماء ، وأَنْ يَعْلَمَهُ خبرا ، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسما والمعرفة خبرا ، وقد خرّج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك ، فقيل : في يَكُنْ ضمير القصة ، وآيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ جملة واقعة موقع الخبر. ويجوز على هذا أن يكون لَهُمْ آيَةً هي جملة الشأن ، أَنْ يَعْلَمَهُ بدلا عن آية. ويجوز مع نصب الآية تأنيث يَكُنْ كقوله تعالى ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ومنه بيت لبيد :

(1). عاد كلامه. قال : واعلم أن الآيات الأول كالمقدمات لهذه الآيات ، فان اللّه تعالى أبان أنه منزل بلغتهم التي لا يعرفون غيرها ، وعلى لسان عربى لو أشكل عليهم فهم شيء منه لكان البيان عنده عتيدا ناجزا ، وما نزله على لسان أعجمى قد يعتذرون بأنه لا يفهمهم ما استغلق على أفهامهم من معانيه ، فقد أزاح أعذارهم ودحض حججهم ، وسلكه في قلوبهم ومكنهم من فهمه أشد التمكين ، ولكن لم يوفقهم بل قدر عليهم أنهم لا يؤمنون» قال أحمد : يعنى بقوله قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون ، لأن التقدير عنده العلم. والحق أن اللّه تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون. وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر ، وهو أن يقال : قلوبهم نائية عن قبول الحق ، لا يلجها بوجه ولا بسبب ، فكيف يسلك الحق فيها؟ فيجاب عنه بهذا الجواب ، واللّه أعلم.

فمضى وقدّمها وكانت عادة منه إذا هي عرّدت أقدامها «1»

وقرئ : تعلمه ، بالتاء. عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ : عبد اللّه بن سلام وغيره. قال اللّه تعالى وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. فإن قلت : كيف خط في المصحف «علمؤا» بواو قبل الألف؟ قلت: خط على لغة من يميل الألف إلى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكاة والربوا.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 198 إلى 207]

وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (206) ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (207)

الأعجم : الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجام. والأعجمى مثله ، إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد. وقرأ الحسن : الأعجميين. ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه ، قالوا له : أعجم وأعجمى ، شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين ، وقالوا لكل ذى صوت من البهائم والطيور وغيرها : أعجم ، قال حميد :

ولا عربيّا شاقه صوت أعجما «2» سَلَكْناهُ أدخلناه ومكناه.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 13 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2) وما هاج هذا الشوق إلا حمامة دعت ساق حر ترحة وتندما
فغنت على غصن عشاء فلم تدع لنائحة في نوحها متندما
عجبت لها أنى يكون غناؤها فصيحا ولم تغفر بمنطقها فما
ولم أر مثلي شاقه صوت مثلها ولا عربيا شاقه صوت أعجما

لحميد بن ثور ، وقد رحلت صاحبته سلمى ، يقول : وما حرك هذا الشوق وبعثه فتوقد بقلبي. إلا حمامة دعت ذكرها وساق حر : مركب إضافى : وهو ذكر القمري ، أو ذكر الحمام مطلقا. والحر - بالضم - : فرخ الحمامة ، والترحة : الحزن ، ضد الفرحة ، والتندم : التأسف على ما فات. ويروى «ترنما» وهو تحسين الصوت ، وهما نصب على الحالية ، أى : حزينة ومتأسفة. أو ذات ترحة وذات تندم. وعشا : نصب على الظرف ، فلم تدع : أى تترك لنائحة في غنائها ، متندما : أى تندما أو شيئا

فتحه ، أى : والحال أنها لم تفتح فمها بنطقها ، وإنما يخرج صوتها من صدرها. وشاقه : تسبب له في الشوق ، والعربي : المفصح. والأعجم : الذي لا يفصح من الحيوان ، نقلته العرب لمن لا يفهمون كلامه ولا يفقهون مراده ، وربما ألحقوه ياء النسب للمبالغة في شدة العجمة وبينه وبين عربى طباق التضاد.

والمعنى : إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربى بلسان عربى مبين ، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله ، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه وصفته في كتبهم ، وقد تضمنت معانيه وقصصه ، وصحّ بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا ، فلم يؤمنوا به وجحدوه ، وسموه شعرا تارة ، وسحرا أخرى ، وقالوا : هو من تلفيق محمد وافترائه وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ الأعاجم الذي لا يحسن العربية ، فضلا أن يقدر على نظم مثله فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ هكذا فصيحا معجزا متحدّى به ، لكفروا به كما كفروا ، ولتمحلوا لجحودهم عذرا ، ولسموه سحرا ، ثم قال كَذلِكَ سَلَكْناهُ أى مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم ، وهكذا مكناه وقرّرناه فيها ، وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها ، فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أى وجه دبر أمرهم ، فلا سبيل أن يتغيروا عماهم عليه من جحوده وإنكاره ، كما قال وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ. فإن قلت : كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ قلت : أراد به الدلالة على تمكنه مكذبا في قلوبهم أشدّ التمكن ، وأثبته فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفطروا. ألا ترى إلى قولهم : هو مجبول على الشح ، يريدون : تمكن الشحّ فيه ، لأنّ الأمور الخلقية أثبت من العارضة ، والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه «1» ، وهو قوله لا يُؤْمِنُونَ بِهِ.

فإن قلت : ما موقع لا يُؤْمِنُونَ بِهِ من قوله سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ؟ قلت : موقعه منه موقع الموضع والملخص ، لأنه مسوق لثباته مكذبا مجحودا في قلوبهم ، فأتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالا ، أى : سلكناه فيها غير مؤمن به. وقرأ الحسن : فتأتيهم ، بالتاء يعنى : الساعة. وبغتة ، بالتحريك. وفي حرف أبىّ : ويروه بغتة. فإن قلت : ما معنى التعقيب في قوله فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ...... فَيَقُولُوا؟ قلت : ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فيه في الوجود،

(1). قال محمود : «إن قلت : كيف أسند السلك بصيغة التكذيب إلى ذاته؟ قلت : المراد الدلالة على تمكنه مكذبا في قلوبهم أشد التمكن، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه ، بدليل أنه أسند إليهم ترك الايمان به على عقبه في قوله : لا يؤمنون به» قال أحمد : وما ينقم من بقائه على ظاهره إلا أنه التوحيد المحض والايمان الصرف ، وأن الله تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق. والقدرية لا يبلغون في التوحيد إلى هذا الحد ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وإنما المعنى ترتبها في الشدّة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشدّ منها وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو أشدّ منه وهو سؤالهم النظرة. ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه : إن أسات مقتك الصالحون فمقتك الله ، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أنّ مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين ، وإنما قصدك إلى ترتيب شدّة الأمر على المسيء ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين ، فما هو أشدّ من مقتهم : وهو مقت الله ، وترى ثمّ يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ تبكيت لهم بإنكار وتهكم ، ومعناه: كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها. ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذ ، ويَسْتَعْجِلُونَ على هذا الوجه حكاية حال ماضية. ووجه آخر متصل بما بعده ، وذلك أنّ استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لا حق بهم ، وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن ، فقال تعالى : أفبعذابنا يستعجلون أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل ، ثم قال : هب أنّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم ، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم. وعن ميمون بن مهران: أنه لقى الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له : عظني ، فلم يزده على تلاوة هذه الآية. فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت. وقرئ : يمتعون ، بالتخفيف.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 208 إلى 209]

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (209)

مُنْذِرُونَ رسل ينذرونهم ذِكْرى منصوبة بمعنى تذكرة ، إمّا لأن «أنذر ، وذكر» متقاربان ، فكأنه قيل : مذكرون تذكرة. وإمّا لأنها حال من الضمير في منذرون أى ، ينذرونهم ذوى تذكرة. وإمّا لأنها مفعول له ، على معنى :

قلت : الأصل : عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية ، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 210 إلى 212]

وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (210) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212)

كانوا يقولون : إنّ محمدا كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنة ، فكذبوا بأنّ ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدرون عليه ، لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء. وقرأ الحسن : الشياطون. ووجهه أنه رأى آخره كآخر يبرين وفلسطين ، فتخير بين أن يجرى الإعراب على النون ، وبين أن يجريه على ما قبله ، فيقول : الشياطين والشياطون ، كما تخيرت العرب بين أن يقولوا. هذه يبرون ويبرين.

وفلسطون وفلسطين. وحقه أن تشتقه من الشيطوطة وهي الهلاك كما قيل له الباطل. وعن الفرّاء : غلط الشيخ في قراءته «الشياطون» ظنّ أنها النون التي على هجاءين ، فقال النضر بن شميل : إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة ، فهلا جاز أن يحتجّ بقول الحسن وصاحبه - يريد : محمد ابن السميقع - مع أنا نعلم أنهما لم يقرءا به إلا وقد سمعا فيه.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 213 إلى 214]

فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)

قد علم أنّ ذلك لا يكون ، ولكنه أراد أن يحرّك منه لازدياد الإخلاص والتقوى. وفيه لطف لسائر المكلفين ، كما قال وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ، فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فيه وجهان : أحدهما أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه ، ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداءة ، ثم بمن يليه. وأن يقدّم إنذارهم على إنذار غيرهم ، كما روى عنه عليه السلام : أنه لما دخل مكة قال : «كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأوّل ما أضعه ربا العباس «1»» والثاني : أن يؤمر بأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة ، ولا يحابيهم في الإنذار والتخويف. وروى أنه صعد الصفا - لما نزلت - فنادى الأقرب فالأقرب فخذا فخذا ، وقال : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ، يا عباس عمّ النبىّ يا صفية عمة رسول الله ،

(1). أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل في صفة الحج وعزاه الطيبي للترمذي من رواية عمرو بن الأحوص وليس هو عنده بتمامه.

إنى لا أملك لكم من الله شيئا ، سلوني من مالى ما شئتم «1»». وروى أنه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا : الرجل منهم يأكل الجذعة ، ويشرب العس «2» على رجل شاة وقعب من لبن ، فأكلوا وشربوا حتى صدروا ، ثم أنذرهم فقال : «يا بنى عبد المطلب ، لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدّقى؟ قالوا : نعم. قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ، وروى أنه قال «يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ، افتدوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم شيئا» ثم قال : «يا عائشة بنت أبى بكر ، ويا حفصة بنت عمر ، ويا فاطمة بنت محمد ، ويا صفية عمة محمد ، اشترين أنفسكنّ من النار فإنى لا أغنى عنكنّ شيئا «3»».

[سورة الشعراء (26) : الآيات 215 إلى 216]

وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا في التواضع ولين الجانب. ومنه قول بعضهم :

(1). أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة قال «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ فقال : يا بنى عبد مناف يا بنى هاشم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا» وروى مسلم من حديث عائشة «لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال : يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب : لا أملك لكم من الله شيئا. سلوني من مالى ما شئتم» وروى ابن مردويه من حديث أبى أمامة قال «لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بنى هاشم اشتروا أنفسكم من النار. فانى لا أملك لكم من الله شيئا ، يا عائشة بنت أبى بكر ويا حفصة بنت عمر ، ويا أم سلمة ويا فاطمة بنت محمد ، ويا أم الزبير عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشتروا أنفسكم من النار فانى لا أملك لكم من الله شيئا».

(2). قوله «و يشرب العس» هو القدح العظيم ، كما في الصحاح. (ع)

(3). أما أوله فأخرجه ابن إسحاق في المغازي والبيهقي في الدلائل من طريقه من رواية ابن عباس مطولا.
وأخرجه البزار وأبو نعيم في الدلائل من طريق عباد بن عبد الله الأسدى عن على قال «لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اصنع لي رجل شاة على صاع من طعام. وأعد قعبا من لبن.
ففعلت. ثم قال لي : اجمع لي بنى عبد المطلب فجمعتهم وهم يومئذ أربعون رجلا. فوضعت الطعام بينهم ، فأكلوا حتى شبعوا وإن فيهم لمن يأكل الجذعة ويشرب العس ، ثم جئت بالعس فشربوا حتى رووا» وأما بقيته فمتفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال «لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فنادى : يا صباحاه فاجتمعوا إليه فقال : يا بنى عبد مناف ، يا بنى عبد المطلب ، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقونني؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا. قال : فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب : تبا لك؟ ألهذا جمعتنا فنزلت هذه السورة تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ».

وأنت الشّهير بخفض الجناح فلا تك في رفعه أجدلا «1»

ينهاه عن التكبر بعد التواضع. فإن قلت : المتبعون للرسول هم المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون للرسول ، فما قوله لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قلت : فيه وجهان : أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك ، وأن يريد بالمؤمنين المصدّقين بألسنتهم ، وهم صنفان : صنف صدّق واتبع رسول الله فيما جاء به ، وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب ، ثم إمّا أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح. والمعنى : من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم ، يعنى : أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 217 إلى 220]

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)

وَتَوَكَّلْ على الله يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم. والتوكل : تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره. وقالوا : المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله ، فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة ثم سأل غيره خلاصه ، لم يخرج من حد التوكل ، لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله. وفي مصاحف أهل المدينة والشام : فتوكل ، وبه قرأ نافع وابن عامر ، وله محملان في العطف : أن يعطف على فَقُلْ. أو فَلا تَدْعُ. عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته. ثم أتبع كونه رحيما على رسوله ما هو من أسباب الرحمة : وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد ، وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ، ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ويستبطن سر أمرهم ، وكيف يعبدون الله ، وكيف يعملون لآخرتهم ، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل ، طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة. والمراد بالساجدين : المصلون. وقيل : معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة. وتقلبه في الساجدين : تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمّهم.

(1). شبه بطائر يرق لأفراخه ويخفض إليها جناحه رحمة لها ، فاستعار خفض الجناح لذلك على سبيل التمثيل، ورشحه بقوله : «فلا تك في رفعه أجدلا» أى شبيها بالأجدل ، وهو الصقر في القسوة والجفوة. أو في التكبر والترفع ويجوز أن خفض الجناح : كناية عما يلزمه من الرقة والرحمة واللين ، ورفعه : كناية عن القسوة والجفوة ، وبين الخفض والرفع طباق التضاد.

وعن مقاتل : أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله ، هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال : لا يحضرني ، فتلا له هذه الآية. ويحتمل أنه : لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقوله الْعَلِيمُ بما تنويه وتعمله. وقيل : هو تقلب بصره فيمن يصلى خلفه ، من قوله صلى الله عليه وسلم : «أتموا الركوع والسجود ، فو الله إنى لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم «1»». وقرئ : ويقلبك.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 221 إلى 223]

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ(223)

كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ هم الكهنة والمتنبئة ، كشق ، وسطيح ، ومسيلمة ، وطليحة يُلْقُونَ السَّمْعَ هم الشياطين ، كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملإ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ فيما يوحون به إليهم ، لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وقيل : يلقون إلى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة. وقيل : الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم. أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس ، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم ، وترى أكثر ما يحكمون به باطلا وزورا. وفي الحديث : «الكلمة يتخطفها الجنىّ فيقرّها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» «2» والقرّ : الصبّ. فإن قلت : كيف دخل حرف الجرّ على «من» المتضمنة لمعنى الاستفهام والاستفهام له صدر الكلام؟ ألا ترى إلى قولك : أعلى زيد مررت؟ ولا تقول : على أزيد مررت؟ قلت : ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معا : معنى الاسم ، ومعنى الحرف ، وإنما معناه : أن الأصل أمن ، فحذف حرف الاستفهام واستمرّ الاستعمال على حذفه ، كما حذف من «هل» والأصل : أهل. قال : أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم»

(1). متفق عليه من حديث قتادة عن أنس بمعناه. واللفظ المذكور عند النسائي واتفقا عليه من حديث أبى هريرة بلفظ «هل ترون قبلتي هاهنا : فو الله ما يخفى على ركوعكم ولا سجودكم ، وإنى لأراكم من وراء ظهري». [.....]
(2). متفق عليه من حديث عائشة أتم منه.
(3) سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم
لزيد الخيل الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وسائل : فعل أمر بمعنى اسألهم وراجعهم في السؤال ، لتتلقن حقيقة الحال ، ويربوع : أبو حى ، والباء بمعنى عن ، أى : سلهم عن قوتنا ، ويروى :
بشدتنا ، بفتح الشين. يقال : شد على قرنه في الحرب : حمل عليه ، أى سلهم عن صولتنا عليهم ، وجعل البصريون الباء بعد السؤال للسببية ، لا بمعنى عن ، والأصل في الاستفهام الهمزة ، ولذلك كان لها تمام التصدير في الكلام ، وأصل «هل» بمعنى «قد» ، «و من» لمن يفعل ، «و ما» لما لا يفعل. «و متى» للزمان ، وهكذا بقية الأدوات موضوعة لمعان غير الاستفهام ، فليست عريقة فيه ، بل الهمزة مقدرة قبلها ، ولذلك تظهر في بعض الأحيان كما في البيت ، ويدخل عليها حروف الجر ، ويضاف إليها غيرها : لكن لكثرة الاستعمال فيه صارت الهمزة نسيا منسيا في حيز الإهمال ، والاستفهام هنا للتقرير ، «و هل» بمعنى «قد» ، وأنكر ذلك ابن هشام. ونقل عن السيرافي أن الرواية : أم هل ، فأم بمعنى «بل» «و هل» للاستفهام : قال : وعلى صحة الأولى فهل مؤكدة للهمزة شذوذا اه ويروى : فهل رأونا. ويجوز أن معناه : سلهم فقد رأونا. والسفح : السطح أو أصل الجبل المنسطح. والقاع المستوى من الأرض. والأكم - بالفتح - : واحده أكمة ، وجمعه أكم بالضم ، وهي التلول المرتفعة.

فإذا أدخلت حرف الجرّ على «من» فقدّر الهمزة قبل حرف الجرّ في ضميرك ، كأنك تقول : أعلى من تنزّل الشياطين ، كقولك : أعلى زيد مررت. فإن قلت : يُلْقُونَ ما محله؟ قلت : يجوز أن يكون في محل النصب على الحال ، أى : تنزل ملقين السمع ، وفي محل الجرّ صفة لكل أفاك ، لأنه في معنى الجمع ، وأن لا يكون له محل بأن يستأنف ، كأن قائلا قال : لم تنزل على الأفاكين؟ فقيل : يفعلون كيت وكيت. فإن قلت : كيف قيل وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك؟ قلت : الأفاكون هم الذين يكثرون الإفك ، ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك ، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى ، وأكثرهم مفتر عليه. فإن قلت : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ ، وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ ، هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ لم فرق بينهنّ وهنّ أخوات؟ قلت : أريد التفريق بينهنّ بآيات ليست في معناهنّ ، ليرجع إلى المجيء بهنّ وتطرية ذكر ما فيهنّ كرّة بعد كرّة : فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله

[سورة الشعراء (26) : الآيات 225 إلى 226]

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (226)

وَالشُّعَراءُ مبتدأ. ويَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ خبره : ومعناه : أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب ، والنسيب بالحرم والغزل «1» والابتهار ، ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم - إلا الغاوون والسفهاء والشطار. وقيل : الغاوون: الراوون. وقيل : الشياطين ،

(1). قوله «و النسيب بالحرم والغزل» النسيب : أى التشبيب. والغزل : محادثة النساء ومراودتهن. والابتهار : ادعاء الشيء كذبا ، كذا في الصحاح في مواضع. (ع)

وقيل : هم شعراء قريش : عبد الله بن الزبعرى ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومي ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبو عزة الجمحىّ. ومن ثقيف : أمية ابن أبى الصلت. قالوا : نحن نقول مثل قول محمد - وكانوا يهجونه ، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم - وقرأ عيسى بن عمر : والشعراء ، بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر. قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حبّ النصب. قرأ : حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ وسُورَةٌ أَنْزَلْناها «1» وقرئ : يتبعهم ، على التخفيف. ويتبعهم ، بسكون العين تشبيها «لبعه بعضد». ذكر الوادي والهيوم : فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلق في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحهم على حاتم ، وأن يبهتوا البرىّ «2» ، ويفسقوا التقى. وعن الفرزدق : أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله : فبتن بجانبىّ مصرّعات وبت أفض أغلاق الختام «3»

فقال : قد وجب عليك الحدّ ، فقال : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحدّ بقوله : وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ.

[سورة الشعراء (26) : آية 227]

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعرا قالوه في توحيد الله والثناء عليه ، والحكمة والموعظة ، والزهد والآداب الحسنة ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة ،

(1). قوله «و سورة أنزلناها» لعل بعدها سقطا تقديره : بالنصب. (ع)
(2). قوله «و أن يبهتوا البرى» أى يتهموا. (ع)
(3) خرجن إلى لم يطمئن قبلي وهن أصح من بيض النعام
فبتن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام
للفرزدق ، يقول : خرج النسوة إلى من خدورهن حال كونهن لم يطمئن ، أى لم يزل بكارتهن أحد قبلي ، وأكد ذلك بقوله : وهن أصح من بيض النعام الذي يصان عادة عن الكسر ، لئلا تذهب زينته ، فبتن مطروحات عن يمينى وشمالي ، وبت أفض : أفتح وأزيل بكارتهن الشبيهة بأغلاق الختام لسدها الفروج ، والأغلاق جمع غلق كسبب ، بمعنى الأقفال. والختام : ما يسد به فم الزجاجة ونحوها، فاضافتها إليه بيانية. أو من إضافة المسميات إلى الاسم كأعواد السواك. ويجوز أن الختام بمعنى المختوم وهو الفرج ، ويمكن أن يراد بالأغلاق : جوانب البكارة المشتبكة بالفرج وشبه البكارات أو جوانبها بالأغلاق على طريق التصريح ، ولما سمع سليمان بن عبد الملك ذلك ، قال : قد وجب عليك الحمد ، فقال : قد درأه الله عنى بقوله : وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ فخلى سبيله.

وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة ، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم. قال الله تعالى لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وعن عمرو بن عبيد : أن رجلا من العلوية قال له : إن صدري ليجيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه فيما لا بأس به؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام. وقيل : المراد

وتفسير الظلم بالكفر تعليل «4» ، ولأن تخاف فتبلغ الأمن : خير من أن تأمن فتبلغ الخوف.

وقرأ ابن عباس : أى منفلت ينفلتون. ومعناها : إن الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب اللّه ،

(1). أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن ملك عن أبيه قال «لما نزلت وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ أتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقلت : يا رسول اللّه ، ما ذا ترى في الشعر؟ فقال :
إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه. والذي نفس محمد بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل» قلت : وأخرجه من هذا الوجه وقال ابن سعد في الطبقات : أخبرنا عبد الوهاب أخبرنا ابن عوف عن ابن سيرين «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لكعب بن مالك : هيه : فأنشده. فقال : «لهو أشد عليهم من وقع النبل» ولمسلم عن عائشة مرفوعا «اهجوا قريشا فانه أشد عليها من رشق النبل» وللترمذي والنسائي من حديث ثابت عن أنس في أثناء حديث : فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم : «خل عنهم يا عمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل».
(2). متفق عليه من حديث البزار. ولفظ النسائي : قال لحسان : اهج المشركين ، فان روح القدس معك» وللحاكم وابن مردويه من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم. قال يوم الأحزاب : «من يحمى أعراض المسلمين؟ فقال حسان : أنا. قال : فقم اهجهم ، فان روح القدس سيعينك».
(3). أخرجه ابن أبى حاتم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن المحسر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت «كتب أبى وصية فذكرها وفي آخرها : وإن تجر وتظلم فانى لا أعلم الغيب. وسيعلم الذين ظلموا - الآية» ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أبى بكر عن الواقدي بأسانيد متعددة مطولا.
(4). قوله «و تفسير الظلم بالكفر تعليل» لعله من علله بالشيء ، أى : لهاء به ، كما يعلل الصبى بشيء من الطعام يجتزأ به عن اللبن، كما في الصحاح. (ع)

وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو النجاة : اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها ، وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا ، واللّه أعلم بالصواب.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام»«1»

سورة النمل

مكية ، وهي ثلاث وتسعون آية ، وقيل أربع وتسعون [نزلت بعد الشعراء]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النمل (27) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ (1) هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3)

طس قرئ بالتفخيم والإمالة ، وتِلْكَ إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين : إما اللوح ، وإبانته : أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة. وإما السورة.

وإما القرآن ، وإبانتهما : أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع ، وأنّ إعجازهما ظاهر مكشوف ، وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين : على سبيل التفخيم لها والتعظيم ، لأنّ المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه. فإن قلت : لم نكر الكتاب المبين؟ قلت : ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له ، كقوله تعالى فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ. فإن قلت : ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن؟ قلت : كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك : هذا فعل السخي والجواد الكريم ، لأنّ القرآن هو المنزل المبارك المصدّق لما بين يديه ، فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح ، فكأنه قيل : تلك الآيات آيات المنزل المبارك آي كتاب مبين.

(1). رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب.

وقرأ ابن أبى عبلة : وكتاب مبين بالرفع على تقدير : وآيات كتاب مبين ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. فإن قلت : ما الفرق بين هذا وبين قوله : الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين؟ قلت : لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدّم والتأخر ، وذلك على ضربين : ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب ، وضرب فيه ترجح ، فالأول نحو قوله تعالى وَقُولُوا حِطَّةٌ ، وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً ومنه ما نحن بصدده. والثاني : نحو قوله تعالى شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ، هُدىً وَبُشْرى في محل النصب أو الرفع ، فالنصب على الحال ، أى : هادية ومبشرة ، والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة ، والرفع على ثلاثة أوجه ، على : هي هدى وبشرى ، وعلى البدل من الآيات ، وعلى أن يكون خبرا بعد خبر ، أى : جمعت أنها آيات ، وأنها هدى وبشرى.

والمعنى في كونها هدى للمؤمنين : أنها زائدة في هداهم. قال اللّه تعالى فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً. فإن قلت وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ كيف يتصل بما قبله؟ قلت : يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ، ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية ، كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : هم الموقنون بالآخرة ، وهو الوجه. ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرّر فيها المبتدأ الذي هو هُمْ حتى صار معناها : وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق «1».

(1). قال محمود : «كرر الضمير حتى صار معنى الكلام : ولا يوقن بالاخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح ، لأن خوف الآخرة يحملهم على تحمل المشاق» قال أحمد : قد تقدم في غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر ، كما مر له في قوله تعالى هُمْ يُنْشِرُونَ أن معناه : لا ينشر إلا هم ، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس ببين ، وقد بينا لمجيء الضمير في سورة اقترب وجها سوى الحصر. وأما وجه تكراره هاهنا - واللّه أعلم - فهو أنه لما كان أصل الكلام : وهم يوقنون بالآخرة ، ثم قدم المجرور على عامله عناية به فوقع فاصلا بين المبتدإ والخبر ، فأريد أن يلي المبتدأ خبره وقد حال المجرور بينهما ، فطري ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور. حيث بقي على حاله مقدما ، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعد ما يوجب التطرية ، فأقرب منها أن الشاعر قال :

سل ذو عجل ذا وألحقنا بذا ال الشحم إنا قد مللناه بخل

والأصل : وألحقنا بذا الشحم ، فوقع منتصف الرجز أو منتهاه ، على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبنى الشاعر على أنه لا بد عند المنتصف أو المنتهى من وقيفة ما ، فقدر بتلك الوقفة بعد أن بين المعرف وآلة التعريف فطراها ثانية ، فهذه النظرية لم

[سورة النمل (27) : الآيات 4 إلى 5]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5)

فإن قلت : كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته ، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ؟ قلت : بين الإسنادين فرق ، وذلك أنّ إسناده إلى الشيطان حقيقة ، وإسناده إلى الله عز وجل «1» مجاز ، وله طريقان في علم البيان. أحدهما : أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة. والثاني : أن يكون من المجاز الحكميّ ، فالطريق الأوّل : أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق ، وجعلوا إنعام الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرهم وإيثارهم الروح والترفه ، ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة ، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم. وإليه أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ والطريق الثاني : أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين ، فأسند إليه لأن المجاز الحكميّ يصححه بعض الملابسات. وقيل : هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها: زينها لهم الله فعمهوا عنها وضلوا ، ويعزى إلى الحسن. والعمه : التحير والتردّد ، كما يكون حال الضال عن الطريق. وعن بعض الأعراب : أنه دخل السوق وما أبصرها قط ، فقال : رأيت الناس عمهين ، أراد : متردّدين في أعمالهم وأشغالهم سُوءُ الْعَذابِ القتل والأسر يوم بدر. والْأَخْسَرُونَ أشدّ الناس خسرانا ، لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم ، فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله.

[سورة النمل (27) : آية 6]

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

(1). قال محمود : «إن قلت كيف أسند التزيين إلى ذاته وقد أسنده إلى الشيطان في قوله وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ قلت : إن بين الاسنادين فرقا ، فالاسناد إلى الله مجاز ، وإلى الشيطان حقيقة. وقد روى عن الحسن أن المراد زينا لهم أعمال البر فعمهوا عنها ولم يهتدوا إلى العمل بها» قال أحمد : وهذا الجواب مبنى على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح ، وامتناع أن يخلق الله تعالى للعبد إلا ما هو مصلحة ، فمن ثم جعل إسناد التزيين إلى الله تعالى مجازا ، وإلى الشيطان حقيقة ، ولو عكس الجواب لفاز بالصواب ، وتأمل ميله إلى التأويل الآخر : من أن المراد أعمال البر على بعده ، لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقض ، وأتى لهم ذلك وقد اتى الله بنيانهم من القواعد ، على أن التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ على أن غالب وروده في غير البر ، كقوله زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ ، زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا ، وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ومما يبعد حمله على أعمال البر : إضافة الأعمال إليهم في قوله أَعْمالَهُمْ وأعمال البر ليست مضافة إليهم ، لأنهم لم يعملوها قط ، فظاهر الاضافة يعطى ذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وقوله قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ فأطلق الايمان في المكانين عن إضافته إليهم لأنه لم يصدر منهم ، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم ، لأنه صدر منهم ، والله أعلم.

لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ لتؤتاه وتلقنه مِنْ عند أىّ حَكِيمٍ وأىّ عَلِيمٍ وهذا معنى مجيئهما نكرتين. وهذه الآية بساط وتمهيد ، لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه.

[سورة النمل (27) : آية 7]

إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7)

إِذْ منصوب بمضمر ، وهو : اذكر ، كأنه قال على أثر ذلك : خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى. ويجوز أن ينتصب بعليم. وروى أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ، وقد كنى الله عنها بالأهل ، فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع ، وهو قوله امْكُثُوا. الشهاب : الشعلة. والقبس : النار المقبوسة ، وأضاف الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبسا وغير قبس.

ومن قرأ بالتنوين : جعل القبس بدلا ، أو صفة لما فيه من معنى القبس. والخبر : ما يخبر به عن حال الطريق ، لأنه كان قد ضله. فإن قلت : سآتيكم منها بخبر ، ولعلى آتيكم منها بخبر : كالمتدافعين : لأنّ أحدهما ترجّ والآخر تيقن. قلت : قد يقول الراجي إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة. فإن قلت :

[سورة النمل (27) : آية 8]

فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (8)

أَنْ هي المفسرة : لأنّ النداء فيه معنى القول. والمعنى : قيل له بورك. فإن قلت : هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره : نودي بأنه بورك. والضمير ضمير الشأن؟ قلت : لا ، لأنه لا بدّ من «قد». فإن قلت : فعلى إضمارها؟ قلت : لا يصح ، لأنها علامة لا تحذف.

ومعنى بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها بورك من في مكان النار ، ومن حول مكانها. ومكانها : البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ وتدل عليه قراءة أبىّ. تباركت الأرض ومن حولها. وعنه : بوركت النار ، والذي بوركت له البقعة ، وبورك من فيها وحواليها حدوث أمر دينى فيها : وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه ، وربّ خير يتجدّد في بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها ، ويبث آثار يمنه في أباعدها ، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة. وقيل : المراد بالمبارك فيهم : موسى والملائكة الحاضرون. والظاهر أنه عامّ في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام ، ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ وحقت أن تكون كذلك ، فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ومهبط الوحى إليهم وكفاتهم أحياء وأمواتا. فإن قلت : فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه؟ قلت : هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك ، وإيذان بأنّ ذلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين ، تنبيها على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤون.

[سورة النمل (27) : آية 9]

يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

الهاء في إِنَّهُ يجوز أن يكون ضمير الشأن ، والشأن أَنَا اللَّهُ مبتدأ وخبر. والْعَزِيزُ الْحَكِيمُ صفتان للخبر. وأن يكون راجعا إلى ما دل عليه ما قبله ، يعنى : أنّ مكلمك أنا ، والله بيان لأنا. والعزيز الحكيم : صفتان للمبين ، وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة ، يريد : أنا القوىّ القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصاحية ، الفاعل كل ما أفعله تحكمة وتدبير.

[سورة النمل (27) : الآيات 10 إلى 11]

وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11)

فإن قلت : علام عطف قوله وَأَلْقِ عَصاكَ؟ قلت : على بورك ، لأن المعنى : نودي أن بورك من في النار ، وأن ألق عصاك : كلاهما تفسير لنؤدي. والمعنى : قيل له بورك من في النار ، وقيل له : ألق عصاك. والدليل على ذلك قوله تعالى وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ بعد قوله أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ على تكرير حرف التفسير ، كما تقول : كتبت إليك أن حج وأن اعتمر ، وإن شئت أن حج واعتمر. وقرأ الحسن : جأنّ على لغة من يجدّ في الهرب من التقاء الساكنين ، فيقول : شأبّة ودأبّة. ومنها قراءة عمرو بن عبيد : ولا الضألين وَلَمْ يُعَقِّبْ لم يرجع ، يقال : عقب المقاتل ، إذا كرّ بعد الفرار. قال : فما عقّبوا إذ قيل هل من معقّب ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا «1» وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به ، ويدل عليه إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ وإِلَّا بمعنى «لكن» لأنه لما أطلق نفى الخوف عن الرسل ، كان ذلك مظنة لطروّ الشبهة ، فاستدرك ذلك. والمعنى : ولكن من ظلم منهم أى فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء ، كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى بوكزة القبطي ، ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى ، وهو من التعريضات التي يلطف

[سورة النمل (27) : آية 12]

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ(12)
وفِي تِسْعِ آياتٍ كلام مستأنف ، وحرف الجرّ فيه يتعلق بمحذوف. والمعنى : اذهب في تسع آيات إِلى فِرْعَوْنَ ونحوه : فقلت إلى الطّعام فقال منهم فريق نحسد الإنس الطّعاما «2»

ويجوز أن يكون المعنى : وألق عصاك ، وأدخل يدك : في تسع آيات ، أى : في جملة تسع آيات وعدادهنّ. ولقائل أن يقول : كانت الآيات إحدى عشرة : ثنتان منها اليد والعصا ، والتسع : الفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب في بواديهم ، والنقصان في مزارعهم.

[سورة النمل (27) : آية 13]

فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (13)

المبصرة : الظاهرة البينة. جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمّليها ، لأنهم لابسوها وكانوا بسبب منها بنظرهم وتفكرهم فيها. ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار : كل ناظر فيها من كافة أولى العقل ، وأن يراد إبصار فرعون وملئه ، لقوله وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ أو جعلت كأنها تبصر فتهدى ، لأنّ العمى لا تقدر على الاهتداء ، فضلا أن تهدى غيرها. ومنه قولهم : كلمة عيناء ،

(1). يصف قوما بالجبن ، وإنهم إن قيل : هل من معقب وراجع على عقبه للحرب فما رجعوا إليها ، ولا نزلوا يوم الحرب منزلا من منازلها ، أى : لم يقدموا مرة على العدو. وروى : إذ قيل ، أى : حين ذلك. [.....]
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 2 فراجعه إن شئت اه مصححه.

وكلمة عوراء ، لأن الكلمة الحسنة ترشد ، والسيئة تغوى. ونحوه قوله تعالى لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ فوصفها بالبصارة ، كما وصفها بالإبصار. وقرأ علىّ بن الحسين رضى الله عنهما وقتادة : مبصرة ، وهي نحو : مجبنة ومبخلة ومجفرة «1» ، أى : مكانا يكثر فيه التبصر.

[سورة النمل (27) : آية 14]

وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

الواو في وَاسْتَيْقَنَتْها واو الحال ، وقد بعدها مضمرة ، والعلو : الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى ، كقوله تعالى فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ وقرئ : عليا ، وعليا بالضم والكسر ، كما قرئ عتيا ، وعتيا. وفائدة ذكر الأنفس : أنهم جحدوها بألسنتهم ، واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم. والاستيقان أبلغ من الإيقان ، وقد قوبل بين المبصرة والمبين ، وأى ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله ، ثم كابر بتسميتها سحرا بينا مكشوفا لا شبهة فيه.

[سورة النمل (27) : آية 15]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15)

عِلْماً طائفة من العلم «2» أو علما سنيا غزيرا. فإن قلت : أليس هذا موضع الفاء دون الواو ، كقولك : أعطيته فشكر ، ومنعته فصبر؟ قلت : بلى ، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه ، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد ، كأنه قال : ولقد آتيناهما علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه «3» والفضيلة وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا.

(1). قوله «و مجفرة» في الصحاح «جفر الفحل عن الضراب» : إذا انقطع عنه. ومنه قيل : الصوم مجفرة ، أى قاطع للنكاح. (ع)

(2). قال محمود : «معناه طائفة من العلم» قال أحمد : التبعيض والتقليل من التنكير ، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر ، فكذلك يرد للتعظيم من شأنه كما مر آنفا في قوله تعالى وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ولم يقبل الحكيم العليم. والغرض من التنكير التفخيم، كأنه قال : من لدن حكيم عليم ، فظاهر قوله وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه ، كأنه قال : علما أى علم ، وهو كذلك ، فان علمهما كان مما يستعظم ويستغرب ، ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات الذي خصهما الله تعالى به وكل علم بالاضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل ، والله أعلم.
(3). قال محمود : «بجلا نعمة الله عليهما من حيث قولهما فَضَّلَنا وتواضعا بقولهما عَلى كَثِيرٍ ولم يقولا : على عباده ، اعترافا بأن غيرهما يفضلهما ، حذرا من الترفع.

والكثير المفضل عليه : من لم يؤت علما. أو من لم يؤت مثل علمهما. وفيه : أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير. وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم. وأجزل القسم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله ، كما قال وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ ، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «ورثة الأنبياء «1»» إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة ، لأنهم القوّام بما بعثوا من أجله. وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم ، منها : أن يحمدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم. وفيها التذكير بالتواضع ، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر : كل الناس أفقه من عمر «2».

[سورة النمل (27) : آية 16]

وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)
ورث منه النبوّة والملك دون سائر بنيه - وكانوا تسعة عشر - وكان داود أكثر تعبدا ، وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ تشهيرا لنعمة الله ، وتنويها بها ، واعترافا بمكانها ، ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير ، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور. والمنطق : كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف ، المفيد وغير المفيد.

وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح المنطق ، وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم ، وقالت العرب : نطقت الحمامة ، وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته ، والذي علمه سليمان من منطق الطير : هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه «3» وأغراضه. ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول؟ قالوا : الله ونبيه أعلم : قال يقول : أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا.

وصاح طاوس ، فقال يقول : كما تدين تدان. وصاح هدهد ، فقال يقول : استغفروا الله يا مذنبين.

(1). أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان من حديث أبى الدرداء ، من حديث رواه «من سلك طريقا يلتمس فيه علما وفيه : إن العلماء ورثة الأنبياء» وله طرق عند الطبراني. وفي الباب عن البراء وابن عمرو ابن العاص أخرجهما أبو نعيم في كتاب فضل العالم العفيف على الجاهل الشريف. وعن ابن مسعود أخرجه ابن حمزة السهمي في تاريخ جرجان. وعن جابر أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة أحمد بن محمد الثلجى. وفي إسناده الضحاك بن حجزة. وهو متهم بوضع الحديث
(2). تقدم في سورة النساء
(3). قوله «هو ما يفهم بعضه من بعض معانيه» عبارة النسفي : والمنطق : كل ما يصوت من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض اه (ع)

وصاح طيطوى ، فقال يقول : كل حىّ ميت ، وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال يقول : قدّموا خيرا تجدوه. وصاحت رخمة ، فقال تقول : سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه.

وصاح قمرى ، فأخبر أنه يقول : سبحان ربى الأعلى. وقال : الحدأ يقول : كل شيء هالك إلا الله. والقطاة تقول: من سكت سلم. والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه : والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين. والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول : في البعد من الناس أنس. والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس. وأراد بقوله مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كثرة ما أوتى ، كما تقول : فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شيء ، تريد : كثرة قصاده ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه. ومثله قوله وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْ ءٍ. إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر «1»» أى : أقول هذا القول شكرا ولا أقوله فخرا. فإن قلت : كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يريد نفسه وأباه. والثاني : أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع - وكان ملكا مطاعا - فكلم أهل طاعته على صفته وحاله التي كان عليها ، وليس التكبر من لوازم ذلك ،

[سورة النمل (27) : آية 17]

وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)

روى أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة : خمسة وعشرون للجنّ ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة منكوحة. وسبعمائة سرية ، وقد نسجت له الجنّ بساطا من ذهب وإبريسم فرسخا في فرسخ ، وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب ، فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة ، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة ، وحولهم الناس وحول الناس الجنّ والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس ،

(1). تقدم في سورة يوسف
(2). قوله «و إظهار آيينه» قيل : مراتبه وبهاؤه. وفي نسخة : أبهته ، فليحرر. (ع)
(3). أخرجه البخاري من رواية هشام بن عروة عن أبيه في قصة الفتح قال فأسلم أبو سفيان. فلما سار قال للعباس احبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين ، فحبسه العباس ، فجعلت الكتائب تمر مع النبي صلى الله عليه وسلم كتيبة بعد كتيبة» وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما.

وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر. ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ، ويأمر الرخاء تسيره ، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض : إنى قد زدت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك ، فيحكى أنه مر بحرّاث فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ، فألقته الريح في أذنه ، فنزل ومشى إلى الحرّاث وقال : إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ، ثم قال : لتسبيحة واحدة يقبلها الله ، خير مما أوتى آل داود يُوزَعُونَ يحبس أولهم على آخرهم ، أى : توقف سلاف العسكر «1» حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ، وذلك للكثرة العظيمة.

[سورة النمل (27) : آية 18]

حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(18)

قيل : هو واد بالشام كثير النمل. فان قلت : لم عدّى أَتَوْا بعلى؟ قلت : يتوجه على معنيين أحدهما أن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء ، كما قال أبو الطيب : ولشدّ ما قربت عليك الأنجم «2»

لما كان قربا من فوق. والثاني : أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره ، من قولهم : أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي ، لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم ، وقرئ نملة يا أيها النمل ، بضم الميم وبضم النون والميم ، وكان الأصل : النمل ، بوزن الرجل ، والنمل الذي عليه الاستعمال : تخفيف عنه ، كقولهم «السبع» في السبع. قيل : كانت تمشى وهي عرجاء تتكاوس «3» ، فنادت : يا أيها النمل : الآية ، فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال. وقيل : كان اسمها طاخية. وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس ،

(1). قوله «سلاف العسكر» أى متقدموهم. أفاده الصحاح. (ع)
(2) فلشد ما جاوزت قدرك صاعدا ولشد ما قربت عليك الأنجم
لأبى الطيب المتنبي ، طلب منه رجل المدح ، فأبى وقال ذلك ، واللام للتأكيد ، وشد على صورة المبنى للمجهول للتعجب ، وأصله شدد كحسن ، فنقل ضم الدال إلى الشين وأدغم ، كما هو قياس بناء التعجب ، أى : ما أشد مجاوزتك لقدرك ، يعنى : كثرت مجاوزتك لمقدارك ، حال كونك صاعدا فيما ليس لك من الرفعة ، وقال : عليك ، دون :
إليك ، لأن قرب الأنجم من جهة العلو ، أى : كثر عندك قرب النجوم إليك من فوق ، ثم يحتمل أن النجوم حقيقة فقد بنى على الصعود المعنوي ما ينبنى على الصعود الحسى ، للمبالغة في تشبيه الأول بالثاني. ويحتمل أنها مستعارة لشعره الذي هو النجوم في الحسن ، وعزة الوصول إليه على طريق التصريحية ، ففيه شبه التورية.
(3). قوله «تتكاوس» في الصحاح : كوسته على رأسه تكويسا ، أى : قلبته ، وكاس هو يكوس : إذا فعل ذلك. وكاس البعير : إذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب. (ع)

فقال : سلوا عما شئتم ، وكان أبو حنيفة رحمه اللّه حاضرا - وهو غلام حدث - . فقال : سلوه عن نملة سليمان ، أكانت ذكرا أم أنثى؟ فسألوه فأفحم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى ، فقيل له : من أين عرفت؟ قال : من كتاب اللّه، وهو قوله قالَتْ نَمْلَةٌ ولو كانت ذكرا لقال : قال نملة ، «1» وذلك أنّ النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى ، فيميز بينهما بعلامة ، نحو قولهم : حمامة ذكر ، وحمامه أنثى ، وهو وهي. وقرئ : مسكنكم ولا يحطمنكم ، بتخفيف النون ، وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها. وأصله : يحتطمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولا لهم كما يكون في أولى العقل : أجرى خطابهم مجرى خطابهم. فإن قلت : لا يحطمنكم ما هو؟ قلت : يحتمل أن يكون جوابا للأمر ، وأن يكون نهيا بدلا من الأمر ، والذي جوّز أن يكون بدلا منه : أنه في معنى : لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم ، على طريقة : لا أرينك هاهنا ، أراد : لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ ، ونحوه : عجبت من نفسي ومن إشفاقها.

[سورة النمل (27) : آية 19]

فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

ومعنى فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً تبسم شارعا في الضحك وآخذا فيه ، يعنى أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك ، وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام. وأما ما روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه «2» فالغرض المبالغة في وصف ما وجد منه من الضحك النبوي ،

---

(1). قال محمود «لما دخل قتادة الكوفة التفت عليه الناس ، فقال : سلوا عما شئتم ، فقال أبو حنيفة - وكان شابا - : سلوه عن النملة التي كلمت سليمان ، أذكر كانت أم أنثى؟ فسألوه فأفحم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى فقيل :
كيف لك ذلك؟ قال : لأن اللّه عز وجل قال قالَتْ نَمْلَةٌ ، ولو كانت ذكرا لقال : قال نملة» قال أحمد : لا أدرى العجب منه أم من أبى حنيفة أن يثبت ذلك عنه ، وذلك أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس ، يقال : نملة ذكر ونملة أنثى ، كما يقولون حمامة ذكر وحمامة أنثى ، وشاة ذكر وشاة أنثى ، فلفظها مؤنث.
ومعناه محتمل ، فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها ، وإن كانت واقعة على ذكر. بل هذا هو الفصيح المستعمل. ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : «لا تضحى بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعنى الإناث من الأنعام خاصة ، فحينئذ قوله تعالى قالَتْ نَمْلَةٌ روعي فيه تأنيث اللفظ. وأما المعنى فيحتمل على حد سواء ، وإنما أطلت في هذا وإن كان لا يتمشى عليه حكم ، لأنه نسبه إلى الامام أبى حنيفة على بصيرته باللغة ، ثم جعل هذا الجواب معجبا لنعمان على غزارة علمه وتبصره بالمنقولات ، ثم قرر الكلام على ما هو عليه مصونا له ، فيا للعجب العجاب ، واللّه الموفق للصواب. [.....]
(2). وقعت في هذه الجملة عدة أحاديث. منها حديث ابن مسعود «جاء رجل من اليهود. فقال : يا محمد ، إن اللّه يمسك السماوات على أصبع الحديث. وفيه فضحك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه» متفق عليه. ومنها حديثه مرفوعا «إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها - الحديث. وفيه : قول الرجل : أتسخر بى وأنت الملك؟ قال : ولقد رأيت النبي صلى اللّه عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه أيضا. ومنها حديث أبى ذر رضى اللّه عنه «يؤتى برجل يوم القيامة. فيقال اعرض عليه صغار ذنوبه - الحديث. وفيه : فلقد رأيت النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى آخره» أخرجه مسلم. ومنها حديث أبى سعيد - رفعه - «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة - الحديث. وفيه : فنظر إلينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه ومنها حديث جابر «دخل أبو بكر والقوم جلوس على الباب - فذكر الحديث وفيه : فقال عمر : لو رأيت بنت خارجة وهي تسألني النفقة فقمت فوجأت عنقها. قال : فضحك النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه مسلم. ومنها حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما «كنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم في غزوة فأصاب الناس مخمصة - الحديث. وفيه : فلم يبق في الجيش وعاء إلا مليء وبقي مقله. فضحك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه ابن حبان والحاكم. ومنها حديث سلمة بن الأكوع «قدمنا الحديبية - الحديث. وفيه :
قلت يا رسول اللّه ، خلنى أنتخب من القوم مائة رجل ، فأتبع القوم ، فلا أبقى منهم أحدا إلا قتلته ، فضحك النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه» وهو حديث طويل. وفيه هذه اللفظة في موضع آخر أخرجه مسلم. ومنها حديث زيد بن أرقم «أتى على رضى اللّه عنه - وهو باليمن - بثلاثة وقعوا على امرأة في طهر واحد - الحديث.
وفيه : فذكر ذلك للنبي صلى اللّه عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم.
ومنها حديث أم أيمن «قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالليل ، فبال في فخارة. فقمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أشعر فلما أصبح أمرنى أن أهريقها فقلت : إنى شربتها ، فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه الحاكم. ومنها حديث صهيب في أكلة التمر وهو أرمد. فقال «إنما آكله من شق عينى الصحيحة. قال : فضحك النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار بتمامه. وبعضه لابن ماجة والحاكم. ومنها حديث ابن عباس «كان عبد اللّه ابن رواحة مضطجعا إلى جنب امرأته. فقام إلى جارية له فوقع عليها - الحديث. وفيه : الشعر. وقول المرأة :
آمنت باللّه وكذبت البصر. قال : فغدا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخبره فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار وإسناده ضعيف.

وإلا فبدوّ النواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب ، وقرأ ابن السميقع : ضحكا ، فان قلت : ما أضحكه من قولها؟ قلت : شيئان ، إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم ، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى ، وذلك قولها وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ تعنى أنهم لو شعروا لم يفعلوا. وسروره بما آتاه اللّه

(1). قوله «ما همس به بعض الحكل» في الصحاح «الحكل» : ما لا يسمع له صوت. (ع)
(2). قوله «و على استيفاقه لزيادة العمل» في الصحاح «استوفقت الله» : سألته التوفيق. (ع)

وروى أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء ، فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهنّ ، ثم دعا بالدعوة. ومعنى وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ واجعلنى من أهل الجنة.

[سورة النمل (27) : الآيات 20 إلى 21]

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (21)

أَمْ هي المنقطعة : نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره ، فقال ما لِيَ لا أَرَى على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له. ونحوه قولهم : إنها لإبل أم شاء ، وذكر من قصة الهدهد أنّ سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره «1» ، فوافى الحرم وأقام به ما شاء ، وكان يقرّب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا ، فوافى صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها ، فنزل ليتغدّى ويصلى فلم يجدوا الماء ، وكان الهدهد قناقنه «2» ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء ، فتفقده لذلك ، وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا ، فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء ، وذكر له صاحبه ملك بلقيس ، وأنّ تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر ، وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب : علىّ به ، فارتفعت فنظرت ، فإذا هو مقبل فقصدته ، فناشدها الله وقال : بحق الذي قوّاك وأقدرك علىّ إلا رحمتينى ، فتركته وقالت : ثكلتك أمك ، إنّ نبى الله قد حلف ليعذبنك ، قال : وما استثنى؟ قالت : بلى قال : أو ليأتينى بعذر مبين ، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرّها علىّ الأرض تواضعا له ، فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه ، فقال : يا نبى الله ، اذكر وقوفك بين يدي الله ، فارتعد سليمان وعفا عنه ، ثم سأله. تعذيبه : أن يؤدّب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه. وقيل : كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه.

(1). قوله «تجهز للحج بحشره» في الصحاح : حشرت الناس أحشرهم حشرا : جمعتهم. ومنه : يوم الحشر. (ع)
(2). قوله «و كان الهدهد قناقنه» القناقن - بالضم - : الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القنى. والقنى : جمع قناة. أفاده الصحاح في موضعين. (ع)

وقيل : أن يطلى بالقطران ويشمس. وقيل : أن يلقى للنمل تأكله. وقيل : إيداعه القفص.

وقيل : التفريق بينه وبين إلفه. وقيل : لألزمنه صحبة الأضداد. وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد. وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه. فإن قلت : من أين حل له تعذيب الهدهد؟

قلت : يجوز أن يبيح له الله ذلك. لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة ، كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع : وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة : جاز أن يباح له ما يستصلح به. وقرئ : ليأتينى. وليأتينن. والسلطان : الحجة والعذر. فإن قلت : قد حلف على أحد ثلاثة أشياء : فحلفه على فعليه لا مقال فيه ، ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد؟ ومن أين درى أنه يأتى بسلطان ، حتى يقول والله ليأتينى بسلطان؟ قلت : لما نظم الثلاثة «بأو» في الحكم الذي هو الحلف : آل كلامه إلى قولك : ليكونن أحد الأمور ، يعنى : إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما ، وليس

[سورة النمل (27) : آية 22]

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22)

فَمَكَثَ قرئ بفتح الكاف وضمها غَيْرَ بَعِيدٍ غير زمان بعيد ، كقوله : عن قريب.

ووصف مكثه بقصر المدّة للدلالة على إسراعه خوفا من سليمان ، وليعلم كيف كان الطير مسخرا له ، ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوّته وعلى قدرة الله تعالى أَحَطْتُ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق : ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له في علمه ، وتنبيها على أنّ في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به، لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة، والإحاطة بالشيء علما : أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم. قالوا : وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه. سبأ : قرئ بالصرف ومنعه. وقد روى بسكون الباء. وعن ابن كثير في رواية : سبا ، بالألف كقولهم : ذهبوا أيدى سبا. وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ، ومن جعله اسما للحىّ أو الأب الأكبر صرف. قال :

من سبإ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما «1»

وقال : الواردون وتيم في ذرى سباء قد عضّ أعناقهم جلد الجواميس «2»

ثم سميت مدينة مأرب بسبإ ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ، كما سميت معافر بمعافر بن أدّ. ويحتمل أن يراد المدينة والقوم. والنبأ : الخبر الذي له شأن. وقوله مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ من جنس الكلام الذي سماه المحدّثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق «3» باللفظ ، بشرط أن يجيء مطبوعا. أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ، ولقد جاء هاهنا زائدا على الصحة فحسن وبدع لفظا ومعنى. ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإ بخبر ، لكان المعنى صحيحا ، وهو كما جاء أصح ، لما في النبإ ، من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

[سورة النمل (27) : آية 23]

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (23)

المرأة بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ، وقد ولده أربعون ملكا ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت على الملك ، وكانت هي وقومها مجوسا يعبدون الشمس. والضمير في تَمْلِكُهُمْ راجع إلى سبإ ، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر ، وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها. وقيل في وصف عرشها : كان ثمانين ذراعا في ثمانين وسمكه ثمانين. وقيل ثلاثين مكان ثمانين ، وكان من ذهب وفضة مكللا بأنواع الجواهر ، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودرّ وزمرّد ، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق. فإن قلت : كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان؟ قلت : يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان ، فاستعظم لها ذلك العرش. ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء ،

---

(1). يمدح رجلا بأنه من قبيلة سبأ ، وهو في الأصل اسم لابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ثم سميت به القبيلة ومأرب : مدينتها. وقيل : قصر لملكهم ، وهو مفعول الحاضرين ممنوع من الصرف. وإذ ظرف. ومن دون بمعنى أمام. والعرم : السد العظيم ، يحبس السيل عن المدينة.

(2). أى الواردون هم ، وتيم : اسم قبيلة في أعالى أرض سبأ. والمراد بجلد الجواميس : الحبال المفتولة منه لتغسل بها الأسرى في أعناقهم ، فشبهت ما يصح منه العض لصلابتها على طريق المكنية ، والعض تخييل ، ويصح استعارته للقرص على طريق التصريحية ، وسبأ - في الأصل - : لقب رجل من قحطان اسمه عبد شمس ، لأنه أول من سبى كان له عشرة أولاد ، فذهب ستة إلى اليمن : حمير ، وكندة ، والأسد ، وأشعر ، وقشعم ، وبجيلة. وذهب أربعة إلى الشام : لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان. وبها سميت قبائلهم المشهورة.

(3). قوله «الذي يتعلق» لعله : التي تتعلق. (ع)

كما يكون لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم ويستخدمهم. ومن نوكى القصاص «1» من يقف على قوله وَلَها عَرْشٌ ثم يبتدئ عَظِيمٌ وَجَدْتُها يريد : أمر عظيم ، أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، فرّ من استعظام الهدهد عرشها ، فوقع في عظيمة وهي مسخ كتاب اللّه. فإن قلت : كيف قال وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مع قول سليمان وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كأنه سوّى بينهما؟ قلت : بينهما فرق بين ، لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من اللّه ، وهو تعليم منطق الطير ، فرجع أوّلا إلى ما أوتى من النبوّة والحكمة وأسباب الدين ، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا ، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد. فإن قلت : كيف خفى على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة ، وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ قلت : لعل اللّه عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها ، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب.

[سورة النمل (27) : الآيات 24 إلى 26]

وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (24) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

فإن قلت : من أين للهدهد التهدى إلى معرفة اللّه ، ووجوب السجود له ، وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ قلت : لا يبعد أن يلهمه اللّه ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها ، ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان ، خصوصا في زمن نبيّ سخرت له الطيور وعلم منطقها ، وجعل ذلك معجزة له. من قرأ بالتشديد أراد : فصدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن. ويجوز أن تكون «لا» مزيدة ، ويكون المعنى : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. ومن قرأ بالتخفيف ، فهو ألا يسجدوا. ألا للتنبيه ، ويا حرف النداء ، ومناداه محذوف ، كما حذفه من قال : ألا يا أسلمي يا دار ميّ على البلى «2»

---

(1). قوله «و من نوكى القصاص» النوكى : جمع أنوك ، وهو الأحمق. (ع)
(2) ألا يا أسلمي يا دار مى على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر
لذي الرمة. وألا استفتاحية للتنبيه ، فلا معنى ليا إلا النداء. والمنادى بها محذوف ، تقديره : يا دارمى أسلمي ، فاستغنى عنه بما بعده ، وحذفه اهتماما بطلب السلامة لها. وفي تكرير ندائها : نوع تفجع. ومى : مرخم مية.
وترخيم المضاف إليه : ضرورة حسنها سبق النداء. وعلى : بمعنى مع ، أى : اسلمي ولو كنت بالية ، لأنه إن لم تبق الدار كفتني الآثار. ومنهلا : منصبا ، والجرعاء : مؤنث الأجراع ، وهو الموضع المختلط ترابه بالحصى. والقطر : المطر ، يدعو لها بالخصب.

وفي حرف عبد اللّه وهي قراءة الأعمش : هلا ، وهلا : بقلب الهمزتين هاء. وعن عبد اللّه : هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب. وفي قراءة أبيّ : ألا تسجدون للّه الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون وسمى المخبوء بالمصدر : وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه عز وعلا من غيوبه. وقرئ : الخب ، على تخفيف الهمزة بالحذف. والخبا ، على تخفيفها بالقلب ، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار. ووجهها : أن تخرّج على لغة من يقول في الوقف : هذا الخبو ، رأيت الخبا ، ومررت بالخبى. ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، لا على لغة من يقول : الكمأة والحمأة ، لأنها ضعيفة مسترذلة. وقرئ : يخفون ويعلنون، بالياء والتاء. وقيل : من أحطت إلى العظيم «1» : هو كلام الهدهد. وقيل : كلام رب العزة. وفي إخراج الخبء : أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض ، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض جلت قدرته ولطف علمه ، ولا يكاد تخفى على ذى الفراسة النظار بنور اللّه مخائل كل مختص بصناعة أو فنّ من العلم في روائه «2» ومنطقه وشمائله ، ولهذا ورد : ما عمل عبد عملا إلا ألقى اللّه عليه رداء عمله. فإن قلت : أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا أم في إحداهما؟

قلت ، هي واجبة فيهما جميعا ، لأنّ مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك. وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما اللّه على أنّ سجدات القرآن أربع عشرة ، وإنما اختلفا في سجدة ص : فهي عند أبى حنيفة سجدة تلاوة. وعند الشافعي : سجدة شكر. وفي سجدتي سورة الحج وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد ، فغير مرجوع إليه. فإن قلت : هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ قلت : نعم إذا خفف وقف على فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ثم ابتدأ أَلَّا يَسْجُدُوا ، وإن شاء وقف على «ألا يا» ثم ابتدأ «اسجدوا» وإذا شدّد لم يقف إلا على الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. فإن

ووصف عرش الله بالعظم : تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السماوات والأرض. وقرئ : العظيم ، بالرفع.

(1). قوله «و قيل من أحطت إلى العظيم» في اللباب : أن الخلاف في : ألا يسجدوا - إلى - العظيم ، ومال إليه في التقريب اه من هامش (ع)
(2). قوله «في روائه» بالضم ، أى : منظره. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة النمل (27) : الآيات 27 إلى 28]

قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ(28)

سَنَنْظُرُ من النظر الذي هو التأمل والتصفح. وأراد : أصدقت أم كذبت ، إلا أن كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ أبلغ ، لأنه إذا كان معروفا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذبا لا محالة ، وإذا كان كاذبا اتهم بالكذب فيم أخبر به فلم يوثق به ، «1» تَوَلَّ عَنْهُمْ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ، ليكون ما يقولونه بمسمع منك. ويَرْجِعُونَ من قوله تعالى يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ فيقال : دخل عليها من كوّة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوّة.

فإن قلت : لم قال : فألقه إليهم ، على لفظ الجمع؟ قلت : لأنه قال : وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، فقال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ، اهتماما منه بأمر الدين ، واشتغالا به عن غيره.

وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

[سورة النمل (27) : الآيات 29 إلى 31]

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (30) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)

كَرِيمٌ حسن مضمونه وما فيه ، أو وصفته بالكرم ، لأنه من عند ملك كريم أو مختوم.

قال صلى الله عليه وسلم : «كرم الكتاب ختمه «2»» وكان صلى الله عليه وسلم يكتب إلى العجم ، فقيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه خاتم ، فاصطنع خاتما «3». وعن ابن المقفع : من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به. وقيل : مصدّر ببسم الله الرحمن الرحيم : هو استئناف وتبيين لما ألقى إليها ، كأنها لما قالت : إنى ألقى إلىّ كتاب كريم ، قيل لها : ممن هو؟ وما هو؟

فقالت : إنه من سليمان وإنه : كيت وكيت. وقرأ عبد الله : وإنه من سليمان وإنه. عطفا على : إنى. وقرئ : أنه من سليمان وأنه ، بالفتح على أنه بدل من كتاب ، كأنه قيل : ألقى إلىّ أنه من سليمان. ويجوز أن تريد : لأنه من سليمان ولأنه ، كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان ، وتصديره

(1). قال محمود : «معناه أصدقت أم كذبت ، إلا أن عبارة الآية أبلغ ، لأنه إذا كان معروفا بالكذب اتهم في جملة إخباره فلم يوثق به» قال أحمد : وهذا مما نبهت عليه في سورة الشعراء من العدول عن الفعل الذي هو : أم كذبت ، وعن مجرد صفته في قوله : أم كنت كاذبا ، إلى جعله واحدا من الفئة الموسومة بالكذب ، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد ، والله أعلم.
(2). أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية محمد بن مروان. وهو السدى الصغير عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس. وأخرجه القضاعي في مسند البيهقي. [.....]
(3). متفق عليه من رواية قتادة عن أنس قال : أراد أن يكتب ... فذكره.

باسم الله. وقرأ أبىّ : أن من سليمان وأن بسم الله ، على أن المفسرة. وأن في أَلَّا تَعْلُوا مفسرة أيضا. لا تعلوا : لا تتكبروا كما يفعل الملوك. وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما بالغين معجمة من الغلو : وهو مجاوزة الحد. يروى أنّ نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فلا تعلوا علىّ وائتوني مسلمين ، وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملا لا يطيلون ولا يكثرون ، وطبع الكتاب

[سورة النمل (27) : آية 32]

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)

الفتوى : الجواب في الحادثة ، اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى في السن. والمراد بالفتوى هاهنا : الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأى والتدبير ، وقصدت بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم : استعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها قاطِعَةً أَمْراً فاصلة. وفي قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : قاضية أى لا أبت أمرا إلا بمحضركم. وقيل : كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا : كل واحد على عشرة آلاف.

[سورة النمل (27) : آية 33]

قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (33)

أرادوا بالقوة : قوّة الأجساد وقوّة الآلات والعدد. وبالبأس : النجدة والبلاء في الحرب وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ أى هو موكول إليك ، ونحن مطيعون لك ، فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك.

كأنهم أشاروا عليها بالقتال. أو أرادوا : نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة ، وأنت ذات الرأى والتدبير ، فانظرى ما ذا ترين : نتبع رأيك.

[سورة النمل (27) : الآيات 34 إلى 36]

قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36)

لما أحست منهم الميل إلى المحاربة ، رأت من الرأى الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن ، ورتبت الجواب، فزيفت أولا ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه ب إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً عنوة وقهرا أَفْسَدُوها أى خرّبوها - ومن ثمة قالوا للفساد : الخربة - ، وأذلوا أعزتها ، وأهانوا أشرافها ، وقتلوا وأسروا ، فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ أرادت : وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير ، لأنها كانت في بيت الملك القديم ، فسمعت نحو ذلك ورأت ، ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأى السديد.

وقيل : هو تصديق من الله لقولها ، وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم. ومن استباح حراما فقد كفر ، فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ أى مرسلة رسلا بهدية أصانعه بها عن ملكي فَناظِرَةٌ ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلك ، فروى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري ، وحليهنّ الأساور والأطواق. والقرطة «1» راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر ، وخمسمائة جارية على رماك «2» في زى الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة ، وتاجا مكللا بالدرّ والياقوت المرتفع والمسك والعنبر ، وحقا فيه درّة عذراء ، وجزعة معوجة الثقب ، وبعثت رجلين من أشراف قومها : المنذر بن عمرو ، وآخر ذا رأى وعقل ، وقالت : إن كان نبيا ميز بين الغلمان والجواري ، وثقب الدرّة ثقبا مستويا ، وسلك في الخرزة خيطا ، ثم قالت للمنذر : إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك ، فلا يهولنك ، وإن رأيته بشا لطيفا فهو نبىّ ، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان ، فأمر الجنّ فضربوا لبن الذهب والفضة ، وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ ، وجعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب والفضة ، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن ، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار ، ثم قعد على سريره

(1). قوله «و القرطة» واحدها : قرط. (ع)
(2). قوله «على رماك» هي إناث الخيل. (ع)

وقال : أين الحقّ؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم : إن فيه كذا وكذا ، ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها ، فجعل رزقها في الشجرة. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها ، فجعل رزقها في الفواكه. ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها ، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ، ثم رد الهدية وقال للمنذر : أرجع إليهم ، فقالت : هو نبىّ وما لنا به طاقة ، فشخصت إليه في اثنى عشر ألف قيل ، تحت كل قيل ألوف. وفي قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : فلما جاءوا. أَتُمِدُّونَنِ وقرئ بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة وبالإدغام ، كقوله أَتُحاجُّونِّي وبنون واحدة : أتمدوني. الهدية : اسم المهدى ، كما أن العطية اسم المعطى ، فتضاف إلى المهدى والمهدى إليه ، تقول هذه هدية فلان ، تريد : هي التي أهداها أو أهديت إليه ، والمضاف إليه هاهنا هو المهدى إليه. والمعنى : أن ما عندي خير مما عندكم ، وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع ، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه ، فكيف يرضى مثلي بأن يمدّ بمال ويصانع به بَلْ أَنْتُمْ قوم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فلذلك تَفْرَحُونَ بما تزادون ويهدى إليكم ، لأن ذلك مبلغ همتكم وحالى خلاف حالكم ، وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية. فإن قلت : ما الفرق بين قولك : أتمدني بمال وأنا أغنى منك ، وبين أن تقوله بالفاء؟ قلت : إذا قلته بالواو ، فقد جعلت مخاطبى عالما بزيادتى عليه في الغنى واليسار ، وهو مع ذلك يمدني بالمال. وإذا قلته بالفاء ، فقد جعلته مخاطبى عالما بزيادتى عليه في الغنى واليسار ، وهو مع ذلك يمدني بالمال. وإذا قلته بالفاء ، فقد جعلته ممن خفيت عليه حالى ، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده ، كأنى أقول له : أنكر عليك ما فعلت ، فإنى غنى عنه. وعليه ورد قوله فَما آتانِيَ اللَّهُ. فإن قلت : فما وجه الإضراب؟ قلت : لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره ، أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه : وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح ، إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها. ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدى ، ويكون المعنى : بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك ، بأنكم قدرتم على إهداء مثلها.

ويحتمل أن يكون عبارة عن الردّ ، كأنه قال : بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

[سورة النمل (27) : آية 37]

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ (37)

ارْجِعْ خطاب للرسول. وقيل : للهدهد محملا كتابا آخر لا قِبَلَ لا طاقة.

وحقيقة القبل : المقاومة والمقابلة ، أى : لا يقدرون أن يقابلوهم. وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : لا قبل لهم بهم. الضمير في منها لسبأ. والذل : أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزّ والملك.

والصغار : أن يقعوا في أسر واستعباد ، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكا.

[سورة النمل (27) : آية 38]

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38)

يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام ، فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها. وغلقت الأبواب ووكلت به حرسا يحفظونه ، ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها ، فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده ، مع اطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى ما يشهد لنبوّة سليمان عليه السلام ويصدقها. وعن قتادة : أراد أن يأخذه قبل أن تسلم ، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحلّ له أخذ مالها. وقيل. أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ، ثم ينظر أتثبته أم تنكره؟ اختبارا لعقلها.

[سورة النمل (27) : آية 39]

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39)

وقرئ : عفرية. والعفر ، والعفريت ، والعفرية ، والعفراة ، والعفارية من الرجال : الخبيث المنكر ، الذي يعفر أقرانه. ومن الشياطين : الخبيث المارد. وقالوا : كان اسمه ذكوان لَقَوِيٌّ على حمله أَمِينٌ آتى به كما هو لا أختزل منه شيئا ولا أبد له.

[سورة النمل (27) : آية 40]

قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ رجل كان عنده اسم الله الأعظم ، وهو يا حى يا قيوم ، وقيل : يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت. وقيل : يا ذا الجلال والإكرام ، وعن الحسن رضى الله. عنه : الله. والرحمن. وقيل هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام ، وكان صدّيقا عالما. وقيل : اسمه أسطوم. وقيل : هو جبريل. وقيل: ملك أيد الله به سليمان.

وقيل : هو سليمان نفسه ، كأنه استبطأ العفريت فقال له : أنا أريك ما هو أسرع مما تقول.

وعن ابن لهيعة : بلغني أنه الخضر عليه السلام : علم من الكتاب : من الكتاب المنزل ، وهو علم الوحى والشرائع. وقيل : هو اللوح. والذي عنده علم منه : جبريل عليه السلام. وآتيك - في الموضعين - يجوز أن يكون فعلا واسم فاعل. الطرف : تحريكك أجفانك إذا نظرت ، فوضع موضع النظر. ولما كان الناظر موصوفا بإرسال الطرف في نحو قوله : وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر «1»

وصف بردّ الطرف ، ووصف الطرف بالارتداد. ومعنى قوله قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ أنك ترسل طرفك إلى شيء ، فقبل أن تردّه أبصرت العرش بين يديك : ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام : مدّ عينيك حتى ينتهى طرفك. فمدّ عينيه فنظر نحو اليمن. ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ، ثم نبغ «2» عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة الله ، قبل أن يردّ طرفه. ويجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدّة المجيء به ، كما تقول لصاحبك : افعل كذا في لحظة ، وفي ردّة طرف ، والتفت ترني ، وما أشبه ذلك : تريد السرعة. يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأنه يحط به عنها عبء الواجب ، ويصونها عن سمة الكفران ، وترتبط به النعمة ويستمد المزيد. وقيل : الشكر ، قيد للنعمة الموجودة ، وصيد للنعمة المفقودة. وفي كلام بعض المتقدمين : إن كفران النعمة بوار ، وقلما أقشعت «3» نافرة فرجعت في نصابها ، فاستدع شاردها بالشكر ، واستدم راهنها بكرم الجوار. واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقارا غَنِيٌّ عن الشكر كَرِيمٌ بالإنعام على من يكفر نعمته ، والذي قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكرا لربه ، جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر ، كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر.

[سورة النمل (27) : الآيات 41 إلى 43]

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ(43)

(1) وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر
لأعرابية ، نظرها أعرابى فخاطبها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها ، كأنه يراودها عن نفسها ، فأجابته بذلك وقيل : هو لشاعر حماسى. وشبه إطلاق البصر نحو المناظر الجميلة بإرسال الرائد أمام الركب يتعرف لهم مكان الخصب ، على طريق التصريحية ، ورائدا ترشيح ، لأنه يلائم الإرسال. ويوما : ظرف له. والمناظر : مواقع النظر ، واستدل على إتعابها إياه بقوله : رأيت الذي لا تملكه كله ولا تصبر عن بعضه ، فكانت عينك سببا لوقوع قلبك في حيرة الهوى وحرقة الجوى.
(2). قوله «ثم نبغ عند مجلس سليمان» في الصحاح «نبغ الشي ء» : ظهر. (ع)
(3). قوله «و قلما أقشعت» أى : أقلعت ، أفاده الصحاح. (ع)

نَكِّرُوا اجعلوه متنكرا متغيرا عن هيئته وشكله ، كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه.

قالوا : وسعوه وجعلوا مقدّمه مؤخره ، وأعلاه أسفله. وقرئ : ننظر ، بالجزم على الجواب ، وبالرفع على الاستئناف أَتَهْتَدِي لمعرفته ، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه ، أو للدين والايمان بنبوّة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البينة ، من تقدّم عرشها وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس. هكذا ثلاث كلمات : حرف التنبيه ، وكاف التشبيه ، واسم الإشارة. لم يقل : أهذا عرشك ، ولكن : أمثل هذا عرشك ، لئلا يكون تلقينا قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ولم تقل : هو هو ، ولا ليس به ، وذلك من رجاحة عقلها ، حيث لم تقع في المحتمل «1» وَأُوتِينَا الْعِلْمَ من كلام سليمان وملئه : فإن قلت : علام عطف هذا الكلام ، وبم اتصل؟ قلت : لما كان المقام - الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابت بما أجابت به - مقاما أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم وَأُوتِينَا الْعِلْمَ نحو أن يقولوا عند قولها كأنه هو : قد أصابت في جوابها وطبقت المفصل «2» ، وهي عاقلة لبيبة ، وقد رزقت الإسلام ، وعلمت قدرة الله وصحة النبوّة بالآيات التي تقدّمت عند وفدة المنذر ، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها - عطفوا على ذلك قولهم : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ، ولم نزل على دين الإسلام شكرا لله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها وَصَدَّها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهر انى الكفرة ، ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولا بقولها كَأَنَّهُ هُوَ والمعنى : وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوّة سليمان عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة ،

(1). قال محمود : «لم يقل أهذا عرشك ، لئلا يكون تلقينا ، قالت. كأنه هو ولم تقل هو هو ، ولا ليس بهو وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل ، قال أحمد : وفي قولها كَأَنَّهُ هُوَ وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال ، بأن تقول : هكذا هو ، نكتة حسنة. ولعل قائلا يقول : كلا العبارتين تشبيه ، إذ كاف التشبيه فيهما جميعا ، وإن كانت في إحداهما داخلة على اسم الاشارة ، وفي الأخرى داخلة على المضمر ، وكلاهما - أعنى اسم الاشارة والمضمر - واقع على الذات المشبهة ، وحينئذ تستوي العبارتان في المعنى ، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقته للسؤال ، فلا بد في اختيار كَأَنَّهُ هُوَ من حكمة فنقول : حكمته والله أعلم : أن كَأَنَّهُ هُوَ عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين ، فكاد يقول : هو هو ، وتلك حال بلقيس. وأما هكذا هو ، فعبارة جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير ، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها والله أعلم. وقول الزمخشري : ولا ليس بهو ، إن كان من قوله فوهم ، والصواب : ولا ليس به ، والله سبحانه وتعالى أعلم.
(2). قوله «و طبقت المفصل» لعله : وطابقت. (ع)

تعنى : ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام ، ثم قال الله تعالى : وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل. وقيل : وصدها الله - أو سليمان - عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل.

وقرئ : أنها ، بالفتح على أنه بدل من فاعل صد. أو بمعنى لأنها.

[سورة النمل (27) : آية 44]

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (44)

الصرح : القصر. وقيل : صحن الدار. وقرأ ابن كثير : سأقيها ، بالهمزة. ووجهه أنه سمع : سؤقا ، فأجرى عليه الواحد. والممرد : المملس ، وروى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ، ووضع سريره في صدره ، فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس ، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لأمره ، وتحققا لنبوته ، وثباتا على الدين. وزعموا أنّ الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم ، لأنها كانت بنت جنية. وقيل : خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجن والإنس ، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشدّ وأفظع ، فقالوا له : إن في عقلها شيئا ، وهي شعراء الساقين ، ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش ، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها ، فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما لا أنها شعراء ، ثم صرف بصره وناداهاإِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ.

وقيل : هي السبب في اتخاذ النورة : أمر بها الشياطين فاتخذوها ، واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرّها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان «1» ، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ، وولدت له. وقيل : بل زوجها ذا تبع ملك همدان ، وسلطه على اليمن ، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن

(1). قوله «فبنوا لها سيلحين وغمدان» في الصحاح «سيلحون» : قرية. وفيه في فصل «نصب» : أن للعرب في نصيبين ونحوه كبيرين وفلسطين وسيلحين وباسمين وقنسرين : مذهبين ، أحدهما : لزوم الياء وإعراب ما لا ينصرف. والثاني : إعراب الجمع بالياء والنون نصبا وجرا ، وبالواو والنون رفعا. وفي فصل «غمد» : غمدان : قصر باليمن. وفي فصل «صنع» المصانع : الحصون. (ع)

[سورة النمل (27) : الآيات 45 إلى 46]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)

وقرئ : أن اعبدوا ، بالضم على إتباع النون الباء فَرِيقانِ فريق مؤمن وفريق كافر.

وقيل أريد بالفريقين صالح عليه السلام وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد يَخْتَصِمُونَ يقول كل فريق : الحق معى. السيئة : العقوبة ، والحسنة : التوبة ، فإن قلت : ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟ قلت : كانوا يقولون لجهلهم : إن العقوبة التي يعدها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه ، تبنا حينئذ واستغفرنا - مقدّرين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت - وإن لم تقع ، فنحن على ما نحن عليه ، فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم ، ثم قال لهم : هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب؟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ تنبيها لهم على الخطأ فيما قالوه وتجهيلا فيما اعتقدوه.

[سورة النمل (27) : آية 47]

قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)

وكان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره ، فإن مر سانحا «1» تيمن ، وإن مر بارحا تشاءم ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته : أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة. ومنه قالوا : طائر الله لا طائرك ، أى : قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر ، لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن ، فلما قالوا : اطيرنا بكم ، أى : تشاءمنا وكانوا قد قحطوا قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أى سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله ، وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. ويجوز أن يريد : عملكم مكتوب عند الله ، فمنه نزل بكم ما نزل. عقوبة لكم وفتنة. ومنه قوله طائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ. وقرئ : تطيرنا بكم ، على الأصل. ومعنى : تطير به : تشاءم به.

وتطير منه : نفر منه تُفْتَنُونَ تختبرون. أو تعذبون. أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة.

[سورة النمل (27) : الآيات 48 إلى 53]

وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (48) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (53)

(1). قوله «فان مرّ سانحا تيمن ... الخ» السانح : ما ولاك ميامنه من ظنى أو طائر أو غيرهما ، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك. والبارح : ما ولاك مياسره بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك ، كذا في الصحاح. (ع)

الْمَدِينَةِ الحجر. وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة ، فكأنه قيل : تسعة أنفس. والفرق بين الرهط والنفر : أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة ، أو من السبعة إلى العشرة.

والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم عن وهب : الهذيل بن عبد رب. غنم بن غنم. رباب بن مهرج. مصدع بن مهرج. عمير بن كردبة. عاصم بن مخرمة. سبيط بن صدقة. سمعان بن صفى.

قدار بن سالف : وهم الذين سعوا في عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام ، وكانوا من أبناء أشرافهم وَلا يُصْلِحُونَ يعنى أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح تَقاسَمُوا يحتمل أن يكون أمرا وخبرا في محل الحال بإضمار قد ، أى : قالوا متقاسمين : وقرئ : تقسموا. وقرئ : لتبيتنه ، بالتاء والياء والنون ، فتقاسموا - مع النون والتاء - يصح فيه الوجهان. ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبرا.

والتقاسم ، والتقسم : كالتظاهر ، والتظهر : التحالف. والبيات : مباغتة العدو ليلا «1». وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال : ليس من آيين الملوك «2» استراق الظفر ، وقرئ : مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك. ومهلك بضم الميم من أهلك. ويحتمل المصدر والزمان والمكان ، فإن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه «3»؟ قلت كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحا وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله ،

(1). قوله «و البيات مباغتة العدو ليلا» في الصحاح «بيت العدو» أى : أوقع بهم ليلا ، والاسم : البيات. (ع)
(2). قوله «ليس من آيين الملوك» تقدم آنفا أنه قيل : آيين الملك : مراتبه وبهاؤه ، كما وجد بهامش. (ع)
(3). قال محمود : «إن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟
قلت : كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحا وبيتوا أهله وجمعوا بين البياتين جميعا لا أحدهما كانوا صادقين ، وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم ، ألا تراهم قصدوا قتل نبى اللّه ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق حيلة يتفصون بها عن الكذب» قال أحمد : وحيلة الزمخشري لتصحيح قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل أقرب من حيلتهم التي سماها اللّه تعالى مكرا ، لأن غرضه من تمهيد حيلتهم أن يستشهد على صحة القاعدة المذكورة في موافقة قوم لوط عليها ، إذ استقبحوا الكذب بعقولهم لا بالشرع. وأنى يتم له ذلك أو لهم ، وهم كاذبون صريح الكذب في قولهم ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وذلك أنهم فعلوا الأمرين ، ومن فعل الأمرين فجحد فعل أحدهما لم يكن في فريته مرية ، وإنما كانت الحيلة تتم لو فعلوا أمرا فادعي عليهم فعل أمرين ، فجحدوا المجموع. ومن ثم لم تختلف العلماء في أن من حلف لا أضرب زيدا ، فضرب زيدا وعمرا : كان حانثا ، بخلاف الحالف لا أضرب زيدا وعمرا فضرب عمرا ، ولا آكل رغيفين فأكل أحدهما ، فان مثل هذا محل خلاف العلماء في الحنث وعدمه ، فإذا تمهد أن هؤلاء كاذبون صراحا في قولهم ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وأنه لا حيلة لهم في الخلاص من الكذب ، فلا يخلو أمرهم أن يكونوا عقلاء فهم لا يتواطئون على اعتقاد الصدق بهذه الحيلة ، مع القطع بأنها ليست حيلة ، ولا شبهة لقرب جحدهم من الصدق ، فيبطل ما قال الزمخشري لاثبات قاعدة دينه على زعمه ، إذ قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل من قواعد عقائد القدرية ، بموافقة قوم غير عقلاء على صحتها ، فحسبه ما رضى به لدينه ، والسلام.

فذكروا أحدهما : كانوا صادقين ، لأنهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم. ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبى اللّه ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب «1». مكرهم : ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر اللّه : إهلاكهم من حيث لا يشعرون. شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. روى أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلى فيه ، فقالوا : زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فخرجوا إلى الشعب وقالوا : إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم ، فبعث اللّه صخرة من الهضب «2» حيالهم ، فبادروا ، فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب. فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم ، وعذب اللّه كلا منهم في مكانه ، ونجى صالحا ومن معه. وقيل : جاءوا بالليل شاهري سيوفهم ، وقد أرسل اللّه الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة : يرون الحجارة ولا يرون راميا أَنَّا دَمَّرْناهُمْ استئناف. ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة ، أو خبر مبتدإ محذوف تقديره : هي تدميرهم. أو نصبه على معنى : لأنا. أو على أنه خبر كان ، أى : كان عاقبة مكرهم الدمار خاوِيَةً حال عمل فيها ما دل عليه تلك. وقرأ عيسى بن عمر : خاوية ، بالرفع على خبر المبتدإ المحذوف.

[سورة النمل (27) : الآيات 54 إلى 55]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

(1). قوله «حيلة يتفصون بها عن الكذب» في الصحاح «فصا الإنسان» : إذا تخلص من البلية والضيق ، وتفصيت من الديون : إذا خرجت منها وتخلصت. (ع) [.....]
(2). قوله «صخرة من الهضب حيالهم» أى من المطر المتتابع مطرة بعد مطرة ، وقعد حياله : أى إزاءه.
وأصله الواو ، أفاده الصحاح. (ع)

وَاذكر لُوطاً أو أرسلنا لوطا لدلالة وَلَقَدْ أَرْسَلْنا عليه. وإِذْ بدل على الأول ظرف على الثاني وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ من بصر القلب ، أى : تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها ، وأن اللّه إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ،

[سورة النمل (27) : الآيات 56 إلى 58]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

وقرأ الأعمش : جواب قومه ، بالرفع. والمشهورة أحسن يَتَطَهَّرُونَ يتنزهون عن القاذورات كلها ، فينكرون هذا العمل القذر ، ويغيظنا إنكارهم. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو استهزاء قَدَّرْناها قدّرنا كونها مِنَ الْغابِرِينَ كقوله قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ فالتقدير واقع على الغبور في المعنى.

(1) ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى وذرني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر
لأبى نواس. وألا استفتاحية للتنبيه ، فكأنه قال : تنبيه فاسقني. وقل لي هي الخمر : أى اجهر باسمها. وقوله : إذا أمكن الجهر : احترس - وباح الشيء : ظهر ، وباح به : أظهره ، أى : أظهر اسم من تحب كما تبوح باسم الخمر. ويروى وبح باسم ما تأتى ، أى : ما تفعل. ودعني : أى اتركني : ضمنه معنى باعدنى فعداه بمن ، كناية عن نهيه عن ذكر الكنى : جمع كنية : وهو ما دل على الشيء دلالة خفية ، وشبه العبارة الخفية بالستر الحائل تصريحا.

[سورة النمل (27) : الآيات 59 إلى 60]

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)
أمر رسوله صلى اللّه عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا اللّه عزّ وجل وصلوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة ، وفي مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن. وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين. وقيل : هو خطاب للوط عليه السلام ، وأن يحمد اللّه على هلاك كفار قومه ، ويسلم على من اصطفاه اللّه ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم. معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه ، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت «1» وتهكم بحالهم ، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة اللّه ، ولا يؤثر عاقل شيئا على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة ، فقيل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه ، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثا ، لينبهوا على الخطإ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا أنّ الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد. ونحوه ما حكاه عن فرعون أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجرى تحته.

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عدّدها في موضع آخر ثم قال : هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء. وقرئ : يشركون بالياء والتاء. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أنه كان إذا قرأها يقول «بل اللّه خير وأبقى وأجل وأكرم «2»».

(1). قال محمود : «معلوم أن لا خير فيما أشركوه حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه ، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت» قال أحمد : كلام مرضى بعد أن تضع خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مكان قوله «خالق كل خير» فانه تخصيص قدرى : أو إشراك خفى. والتوحيد الأبلج : ما قلناه ، والله سبحانه وتعالى أعلم.
(2). كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد. وأخرجه البيهقي في الشعب في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبى جعفر قال «كان على بن الحسين يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا ختم القرآن - فذكر حديثا طويلا - وفيه والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون؟ بل الله خير وأجل وأبقى وأكرم وأعظم مما يشركون».

[سورة النمل (27) : آية 60]

أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)

فإن قلت : ما الفرق بين أم وأم في أَمَّا يُشْرِكُونَ وأَمَّنْ خَلَقَ؟ قلت : تلك متصلة ، لأنّ المعنى : أيهما خير. وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ، لما قال الله تعالى : آلله خير أم الآلهة؟

قال : بل أمّن خلق السماوات والأرض خير؟ تقريرا لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء. وقرأ الأعمش : أمن ، بالتخفيف. ووجهه أن يجعل بدلا من الله ، كأنه قال : أمّن خلق السماوات والأرض خير أم ما تشركون؟ فإن قلت : أى نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا؟ قلت : تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته ، والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد. لا يقدر عليه إلا هو وحده. ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها ومعنى الكينونة : الانبغاء. أراد أن تأتى ذلك محال من غيره ، وكذلك قوله بَلْ هُمْ بعد الخطاب : أبلغ في تخطئة رأيهم. والحديقة : البستان عليه حائط : من الإحداق وهو الإحاطة. وقيل ذاتَ ، لأنّ المعنى : جماعة حدائق ذات بهجة ، كما يقال : النساء ذهبت. والبهجة : الحسن ، لأنّ الناظر يبتهج به أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ أغيره يقرن به ويجعل شريكا له. وقرئ : أإلها مع الله ، بمعنى : أتدعون ، أو أتشركون. ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدّة ، وتخرج الثانية بين بين يَعْدِلُونَ به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد.

[سورة النمل (27) : آية 61]

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (61)

أَمَّنْ جَعَلَ وما بعده بدل من أَمَّنْ خَلَقَ فكان حكمهما حكم قَراراً دحاها وسوّاها بالاستقرار عليها حاجِزاً كقوله : برزخا.

[سورة النمل (27) : آية 62]

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (62)

الضرورة : الحالة المحوجة إلى اللجإ. والاضطرار : افتعال منها. يقال : اضطرّه إلى كذا.

والفاعل والمفعول : مضطر. والمضطر الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجإ والتضرع إلى الله. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو المجهود. وعن السدّى : الذي لا حول له ولا قوة. وقيل : المذنب إذا استغفر. فإن قلت : قد عم المضطرين بقوله يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وكم من مضطرّ يدعوه فلا يجاب»؟

قلت ، الإجابة موقوفة على أن يكون المدعوّ به مصلحة ، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطا فيه المصلحة. وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقا ، يصلح لكله ولبعضه ، فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل ، وقد قام الدليل على البعض وهو الذي أجابته مصلحة ، فبطل التناول على العموم خُلَفاءَ الْأَرْضِ خلفاء فيها ، وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن. أو أراد بالخلافة الملك والتسلط. وقرئ : يذكرون ، بالياء مع

[سورة النمل (27) : آية 63]

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(63)

يَهْدِيكُمْ بالنجوم في السماء ، والعلامات في الأرض : إذا جنّ الليل عليكم مسافرين في البر والبحر.

[سورة النمل (27) : آية 64]

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (64)
فإن قلت : كيف قيل لهم أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وهم منكرون للإعادة؟ قلت : قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر في الإنكار مِنَ السَّماءِ الماء وَمن الْأَرْضِ النبات إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنّ مع الله إلها ، فأين دليلكم عليه؟

[سورة النمل (27) : آية 65]

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

(1). قال محمود «إن قلت فكم من مضطر لإيجاب؟ قلت : الاجابة موقوفة على كون المدعو به مصلحة ، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطا فيه المصلحة» قال أحمد : الصواب أن الاجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة ، وإنما تقف الاجابة على المصلحة عند القدرية ، لايجابهم على الله تعالى رعاية المصالح ، فقول الزمخشري : لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطا فيه المصلحة : فاسد فان المشيئة شرط في إجابة الدعاء اتفاقا ، ومع ذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول الداعي : اللهم اغفر لي إن شئت.

فإن قلت : لم رفع اسم الله ، والله يتعالى أن يكون ممن في السماوات والأرض؟ قلت : جاء على لغة بنى تميم ، حيث يقولون : ما في الدار أحد إلا حمار ، يريدون : ما فيها إلا حمار ، كأنّ أحدا لم يذكر. ومنه قوله : عشيّة ما تغنى الرّماح مكانها ولا النّبل إلّا المشرفي المصمّم «1» وقولهم : ما أتانى زيد إلا عمرو ، وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه. فإن قلت : ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي؟ قلت : دعت إليه نكتة سرية «2». حيث أخرج المستثنى مخرج قوله : إلا اليعافير ، بعد قوله : ليس بها أنيس ، ليؤول المعنى إلى قولك : إن كان الله ممن في السماوات والأرض ، فهم يعلمون الغيب ، يعنى : أنّ علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم ، كما أنّ معنى ما في البيت «3» : إن كانت اليعافير أنيسا ففيها أنيس ، بتا للقول بخلوّها عن الأنيس. فإن قلت : هلا زعمت أنّ الله ممن في السماوات والأرض ، كما يقول المتكلمون : الله في كل مكان ، على معنى أنّ علمه في الأماكن كلها ، فكأن ذاته فيها حتى لا تحمله على مذهب بنى تميم؟ قلت : يأبى ذلك أن كونه في السماوات والأرض مجاز ، وكونهم فيهن حقيقة ، وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازا غير صحيحة ، على أنّ قولك : من في السماوات والأرض ، وجمعك بينه وبينهم في إطلاق اسم واحد : فيه إيهام تسوية ، والإيهامات مزالة عنه وعن صفاته تعالى. ألا ترى كيف قال صلى الله عليه وسلم لمن قال : ومن يعصهما فقد غوى : «بئس خطيب القوم أنت «4»» وعن عائشة رضى الله عنها : من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية «5» ، والله تعالى يقول : قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وعن بعضهم :

(1). النبل : السهام العربية. والمشرفي : السيف ، نسبة لمشارف اليمن. والمصمم : الماضي النافذ لصلابته ، وكانت عادة المتحاربين التناضل بالسهام عند التباعد ، فإذا تقاربوا تحاربوا بالرماح ، فإذا التقوا تضاربوا بالسيوف.
وذكر النبل بعد الرماح لدفع توهم بعد العدو ، فكأن النبل يغنى عن غيره ، فالبيت كناية عن شدة الأمر واختلاط الصفين. وضمير مكانها للحرب أو للسيوف ، والاستثناء منقطع بعد النفي ، ويجب نصبه عند الحجازيين. ويجوز رفعه كما هنا عند التميميين : إما على البدل ، أو على توهم أن المستثنى منه غير مذكور ، وأن العامل مفرغ لما بعد «إلا».
(2). قوله «دعت إليه نكتة سرية» لعله بزنة فعيلة ، فيكون بمعنى شريفة. (ع)
(3). قوله : «معنى ما في البيت» هو قول الشاعر :
وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس (ع)
(4). أخرجه مسلم من حديث عدى بن حاتم.
(5). متفق عليه من حديثها في أثناء حديث.

أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحدا ، لئلا يأمن أحد من عبيده مكره. وقيل : نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة أَيَّانَ بمعنى متى ، ولو سمى به : لكان فعالا ، من آن يئين ولا نصرف. وقرئ : إيان ، بكسر الهمزة.

[سورة النمل (27) : آية 66]

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (66)

وقرئ : بل أدّرك. بل ادّراك. بل ادّارك. بل تدارك. بل أأدرك ، بهمزتين. بل آأدرك ، بألف بينهما. بل أدرك ، بالتخفيف والنقل. بل ادّرك ، بفتح اللام وتشديد الدال. وأصله : بل أدّرك؟ على الاستفهام. بلى أدرك. بلى أأدرك. أم تدارك. أم أدرك ، فهذه ثنتا عشرة قراءة. وادّارك : أصله تدارك ، فأدغمت التاء في الدال. وادّرك : افتعل. ومعنى أدرك علمهم : انتهى وتكامل. وادّرك : تتابع واستحكم. وهو على وجهين ، أحدهما : أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيه ، قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته ، وهم شاكون جاهلون، وهو قوله بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ : يريد المشركين ممن في السماوات والأرض ، لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع ، كما يقال : بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم. فإن قلت : إن الآية سيقت لاختصاص الله بعلم الغيب ، وأن العباد لا علم لهم بشيء منه وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به ، فكيف لاءم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة؟

قلت : لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب ، ولا يشعرون بالبعث الكائن ووقته الذي يكون فيه ، وكان هذا بيانا لعجزهم ووصفا لقصور علمهم : وصل به أن عندهم عجزا أبلغ منه ، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بدّ أن يكون - وهو وقت جزاء أعمالهم - : لا يكون ، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به. والوجه الثاني : أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكم بهم ، كما تقول لأجهل الناس : ما أعلمك! على سبيل الهزؤ ، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوك ، فضلا أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته : وفي : أدرك علمهم ، وادارك علمهم : وجه آخر ، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى ، من قولك : أدركت الثمرة ، لأن تلك غايتها التي عندها تعدم : وقد فسره الحسن رضى الله عنه باضمحل علمهم وتدارك ، من تدارك بنو فلان : إذا تتابعوا في الهلاك فإن قلت ، فما وجه قراءة من قرأ : بل أأدرك على الاستفهام؟ قلت : هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ : أم أدرك. وأم تدارك ، لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة. فإن قلت : فمن قرأ : بلى أدرك ، وبلى أأدرك؟ قلت : لما جاء ببلى ، بعد قوله وَما يَشْعُرُونَ كان معناه : بلى يشعرون ، ثم فسر الشعور بقوله : أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفى العلم ، فكأنه قال : شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها ، فيرجع إلى نفى الشعور على أبلغ ما يكون. وأما من قرأ : بلى أأدرك؟ على الاستفهام فمعناه : بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها ، وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها ، لأنّ العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن فِي الْآخِرَةِ في شأن الآخرة ومعناها فإن قلت ، هذه الاضرابات الثلاث ما معناها؟ قلت : ما هي إلا تنزيل لأحوالهم : وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة. ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض : كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل، ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى ، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يخطر بباله حقا ولا باطلا.

ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عدّاه بمن دون عن ، لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون.

[سورة النمل (27) : الآيات 67 إلى 68]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)

العامل في إذا ما دلّ عليه أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ وهو نخرج ، لأنّ بين يدي عمل اسم الفاعل «1» فيه عقابا وهي همزة الاستفهام ، وإن ولام الابتداء وواحدة منها كافية ، فكيف إذا اجتمعن؟

والمراد : الإخراج من الأرض. أو من حال الفناء إلى الحياة ، وتكرير حرف الاستفهام بإدخاله على «إذا» و«إن» جميعا إنكار على إنكار ، وجحود عقيب جحود ، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والضمير في إِنَّا لهم ولآبائهم ، لأنّ كونهم ترابا قد تناولهم وآباءهم. فإن قلت : قدّم في هذه الآية هذا على نَحْنُ وَآباؤُنا وفي آية أخرى قدّم نَحْنُ وَآباؤُنا على هذا؟ قلت.

التقديم دليل على أن المقدّم هو الغرض المتعمد بالذكر ، وإن الكلام إنما سيق لأجله ، ففي إحدى الآيتين دلّ على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام ، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد.

(1). قوله «اسم الفاعل فيه عقابا» لعله اسم المفعول وعقابا جمع عقبة. أفاده الصحاح. وعبارة النسفي : لأن اسم الفاعل والمفعول - بعد همزة الاستفهام أو أن أو لام الابتداء - لا يعمل فيما قبله ، فكيف إذا اجتمعن. (ع)

[سورة النمل (27) : الآيات 69 إلى 70]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70)

لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة ، لأنّ تأنيثها غير حقيقى ، ولأنّ المعنى : كيف كان آخر أمرهم؟ وأراد بالمجرمين : الكافرين ، وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجرام ليكون لطفا للمسلمين في ترك الجرائم وتخوّف عاقبتها ألا ترى إلى قوله فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ وقوله : مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا. وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ لأنهم لم يتبعوك ، ولم يسلموا فيسلموا وهم قومه قريش ، كقوله تعالى فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً. فِي ضَيْقٍ في حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك ، ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس. يقال : ضاق الشيء ضيقا وضيقا ، بالفتح والكسر. وقد قرئ بهما. والضيق أيضا : تخفيف الضيق. قال الله تعالى ضَيِّقاً حَرَجاً قرئ مخففا ومثقلا ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم.

[سورة النمل (27) : الآيات 71 إلى 72]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (71) قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)

استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم عَسى أَنْ يَكُونَ ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو : دنا لكم وأزف لكم ، ومعناه : وتبعكم ولحقكم ، وقد عدى. بمن قال : فلمّا ردفنا من عمير وصحبه تولّوا سراعا والمنيّة تعنق «1»

يعنى : دنونا من عمير ، وقرأ الأعرج : ردف لكم ، بوزن ذهب ، وهما لغتان ، والكسر أفصح. وعسى ولعل وسوف - في وعد الملوك ووعيدهم - يدل على صدق الأمر وجدّه وما لا مجال للشكّ بعده ، وإنما يعنون بذلك : إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام ، لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أنّ عدوّهم لا يفوتهم ، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

(1). ردف كتبع يتعدى بنفسه ، وضمن هنا معنى الدنو فعدى بمن ، وأعنق الفرس : سار سيرا سريعا سهلا.
والعنق : اسم منه يقول : فلما دنونا من عمير وأصحابه للحرب أدبروا مسرعين ، والحال أن الموت يسرع خلفهم من جهتنا. شبه المنية بالأسد على طريق المكنية ، فأثبت لها العنق تخييلا ، كأنهم كانوا تبعوهم برمي النبال. ويجوز أنه استعار المنية لنفسه وقومه على طريق التصريح ، أى : ونحن نسرع خلفهم ، فذكر العنق تجريد ، لأنه يلائم المشبه.

[سورة النمل (27) : آية 73]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (73)

الفضل والفاضلة : الإفضال. ولفلان فواضل في قومه وفضول. ومعناه : أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة ، وأنه لا يعاجلهم بها ، وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه ، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب : وهم قريش.

[سورة النمل (27) : آية 74]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (74)

قرئ تكنّ. يقال : كننت الشيء وأكننته : إذا سترته وأخفيته ، يعنى : أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومكايدهم ، وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه.

[سورة النمل (27) : آية 75]

وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (75)

سمى الشيء الذي يغيب ويخفى : غائبة وخافية ، فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العافية والعاقبة.

ونظائرهما : النطيحة ، والرمية ، والذبيحة : في أنها أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة ، كالراوية في قولهم : ويل للشاعر من رواية السوء ، كأنه قال : وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه اللّه وأحاط به وأثبته في اللوح. المبين : الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

[سورة النمل (27) : الآيات 76 إلى 77]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزابا ، ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضا ، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا ، يريد اليهود والنصارى لِلْمُؤْمِنِينَ لمن أنصف منهم وآمن ، أى : من بنى إسرائيل. أو منهم ومن غيرهم.

[سورة النمل (27) : آية 78]

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78)

بَيْنَهُمْ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به. فإن قلت : ما معنى يقضى بحكمه؟ ولا يقال : زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه؟ قلت : معناه بما يحكم به وهو عدله ، لأنه لا يقضى إلا بالعدل ، فسمى المحكوم به حكما. أو أراد بحكمته - وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه - : جمع حكمة. وَهُوَ الْعَزِيزُ فلا يردّ قضاؤه الْعَلِيمُ بمن يقضى له وبمن يقضى عليه ، أو العزيز في انتقامه من المبطلين ، العليم بالفصل بينهم وبين المحقين.

[سورة النمل (27) : الآيات 79 إلى 81]

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

أمره بالتوكل على اللّه وقلة المبالاة بأعداء الدين ، وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشكّ والظنّ. وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع اللّه وبنصرته.

وأن مثله لا يخذل. فإن قلت : إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى يشبه أن يكون تعليلا آخر للتوكل ، فما وجه ذلك؟ قلت : ؟ وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسببا عما كان يغيظ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من جهة المشركين وأهل الكتاب : من ترك اتباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة ، فلاءم ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله ، بأن اتباعهم أمر قد يئس منه ، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم ، وشبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات اللّه - فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم وكان سماعهم كلا سماع - : كانت حالهم - لانتفاء جدوى السماع - : كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع وكذلك تشبيههم بالصمّ الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ، وأن يجعلهم هداة بصراء إلا اللّه عز وجل. فإن قلت : ما معنى قوله إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ؟ قلت : هو تأكيد لحال

كقولك : سقاه عن العيمة «1» أى : أبعده عنها بالسقى ، وأبعده عن الضلال بالهدى إِنْ تُسْمِعُ أى ما يجدى إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته ، أى : يصدقون بها فَهُمْ مُسْلِمُونَ أى مخلصون من قوله بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ يعنى : جعله سالما لله خالصا له.

[سورة النمل (27) : آية 82]

وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (82)

سمى معنى القول ومؤداه بالقول ، وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ، ووقوعه : حصوله. والمراد : مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة. ودابة الأرض : الجساسة.

(1). قوله «سقاه عن العيمة» هي شهوة اللبن كما في الصحاح. (ع)

جاء في الحديث : أنّ طولها ستون ذراعا ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب «1».

وروى : لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان. وعن ابن جريج في وصفها : رأس ثور ، وعين خنزير ، وأذن فيل ، وقرن إبل ، وعنق نعامة ، وصدر أسد ، ولون نمر ، وخاصرة هرّ ، وذنب كبش ، وخف بعير. وما بين المفصلين : اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام.

وروى : لا تخرج إلا رأسها ، ورأسها يبلغ أعنان السماء «2» ، أو يبلغ السحاب. وعن أبى هريرة : فيها من كل لون ، وما بين قرنيها فرسخ للراكب. وعن الحسن رضى الله عنه : لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام. وعن على رضى الله عنه : أنها تخرج ثلاثة أيام ، والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سئل : من أين تخرج الدابة؟ فقال «من أعظم المساجد حرمة على الله «3»» يعنى المسجد الحرام. وروى : أنها تخرج ثلاث خرجات : تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن ، ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرا طويلا ، فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله ، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ، فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة. وقيل : تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسان ذلق «4» فتقول أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ يعنى أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي ، لأنّ خروجها من الآيات ، وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين. وعن السدى : تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام. وعن ابن عمر رضى الله عنه : تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المشرق ، ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك. وروى : تخرج من أجياد «5».

وروى : بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل ، وينشق الصفا مما يلي المسعى ، فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتضرب المؤمن في مسجده ، أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام ،

(1). أخرجه الثعلبي من حديث حذيفة دون قوله «و هي الجساسة» وسيأتى بعضه للحاكم وغيره في الذي بعده. [.....]
(2). قوله «و رأسها يبلغ أعنان السماء» في الصحاح «أعنان السماء» : صفائحها وما اعترض من أقطارها ، كأنه جمع عنن. والعامة تقول : عنان السماء. (ع)
(3). أخرجه الطبري من طريق ربعي عن حذيفة بن اليمان : «ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقلت يا رسول الله ، من أين تخرج؟ فقال : من أعظم المساجد حرمة على الله ... الحديث» وروى الحاكم والبيهقي في الشعب وإسحاق في مسنده وابن مردويه من حديث أبى الطفيل عن حذيفة عن أسيد رفعه قال «يكون للدابة ثلاث خرجات - إلى أن قال : بينما الناس في أعظم المساجد حرمة وخيرها وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام ... الحديث وفيه : ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب. ولا يفوتها هارب» وفي الباب عن ابن عباس : أخرجه ابن مردويه مطولا.
(4). قوله «بلسان ذلق» أى طلق ، كما في الصحاح. (ع)
(5). قوله «تخرج من أجياد» جبل بمكة ، سمى بذلك لموضع خيل تبع ، وسمى «قعيقعان» لموضع سلاحه. (ع)

فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه أو فتترك وجهه كأنه كوكب درّى ، وتكتب بين عينيه : مؤمن : وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه ، فتفشو النكتة حتى يسودّ لها وجهه وتكتب بين عينيه:

[سورة النمل (27) : آية 83]

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

فَهُمْ يُوزَعُونَ يحبس أوّ لهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار. وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه ، كما وصفت جنود سليمان بذلك. وكذلك قوله فَوْجاً فإن الفوج الجماعة الكثيرة. ومنه قوله تعالى يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أبو جهل والوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة : يساقون بين يدي أهل مكة ، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار. فإن قلت : أى فرق بين من الأولى والثانية؟ قلت : الأولى للتبعيض ، والثانية للتبيين ، كقوله مِنَ الْأَوْثانِ.

[سورة النمل (27) : الآيات 84 إلى 85]

حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (85)

الواو للحال ، كأنه قال : أكذبتم بها بادىء الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب. أو للعطف ، أى : أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحققها وتبصرها ، فإن المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه ، ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بها للتبكيت لا غير. وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب ، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا قد صدّقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب. ومثاله أن تقول لراعيك - وقد عرفته رويعي سوء - : أتأكل نعمى ، أم ما ذا تعمل بها؟ فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صحّ عندك من أكله وفساده ، وترمى بقولك : أم ما ذا تعمل بها ، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل ، لتبهته «1» وتعلمه علمك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها ، وأنه لا يقدر أن يدعى الحفظ والإصلاح ، لما شهر من خلاف ذلك. أو أراد : أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله ، أم ما ذا كنتم تعملون من غير ذلك؟ يعنى أنه لم يكن لهم عمل غيره ، كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية ، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة : يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكبون فيها ، وذلك قوله وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم. وهو التكذيب بآيات الله ، فيشغلهم عن النطق والاعتذار ، كقوله تعالى هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ.

[سورة النمل (27) : آية 86]

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

جعل الإبصار للنهار وهو لأهله. فإن قلت : ما للتقابل لم يراع في قوله لِيَسْكُنُوا ومُبْصِراً حيث كان أحدهما علة والآخر حالا؟ قلت : هو مراعى من حيث المعنى ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف ، لأن معنى مبصرا : ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب.

[سورة النمل (27) : آية 87]

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (87)

فإن قلت : لم قيل فَفَزِعَ دون فيفزع؟ قلت : لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، واقع على أهل السماوات والأرض ، لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به. والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ إلا من ثبت اللّه قلبه من الملائكة ، قالوا : هم جبريل ، وميكائيل، وإسرافيل ، وملك الموت - عليهم السلام. وقيل : الشهداء. وعن الضحاك : الحور ، وخزنة النار ، وحملة العرش. وعن جابر : منهم موسى عليه السلام ، لأنه صعق مرّة. ومثله قوله تعالى وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ. وقرئ : أتوه. وأتاه. ودخرين ، فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ.

(1). قوله «لتبهته» أى تدهشه وتحيره (ع)

والداخر والدخر : الصاغر. وقيل : مع الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية. ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

[سورة النمل (27) : الآيات 88 إلى 90]

وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (88) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

جامِدَةً من جمد في مكانه إذا لم يبرح. تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب ، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفه ثابتة في مكان واحد وَهِيَ تَمُرُّ مرّا حثيثا كما يمر السحاب. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد : إذا تحرّكت لا تكاد تتبين حركتها ، كما قال النابغة في صفة جيش : بأرعن مثل الطّود تحسب أنّهم وقوف لحاج والرّكاب تهملج «1»

صُنْعَ اللَّهِ من المصادر المؤكدة ، كقوله وَعَدَ اللَّهُ. وصِبْغَةَ اللَّهِ إلا أن مؤكدة محذوف ، وهو الناصب ليوم ينفخ ، والمعنى : ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أثاب اللّه المحسنين وعاقب المجرمين ، ثم قال : صنع اللّه ، يريد به : الإثابة والمعاقبة. وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب ، حيث قال : صنع اللّه الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ يعنى أنّ مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب : من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها ، وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه ، فيكافئهم على حسب ذلك. ثم لخص ذلك بقوله مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ إلى آخر الآيتين ، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام ، وحسن نظمه وترتيبه ، ومكانة إضماده ، ورصانة تفسيره ، «2» وأخذ بعضه بحجزة بعض ، كأنما أفرغ إفراغا واحدا ولأمر مّا أعجز القوى وأخرس الشقاشق «3». ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام ،

(1). للنابغة. والأرعن : الجبل العالي. والطود : الجبل العظيم ، فاستعار الأرعن للجيش ، ثم شبهه بالطود ليفيد المبالغة في الكثرة. والحاج : اسم جمع واحده حاجة. والركاب : المطي لا واحد له من لفظه. والهملجة : السير الرهو السهل ، فارسى معرب. والهملاج : السريع. يقول : حاربنا العدو بجيش عظيم ، تظنهم واقفين لحاجة لكثرتهم ، والحال أن ركابهم تسرع السير.

(2). قوله «و مكانة إضماده ورصانة تفسيره» الذي في الصحاح «ضمد الجرح ، يضمده ضمدا» : شده بعصابة وفيه «الرصين» المحكم الثابت. وقد رصن - بالضم - رصانة. (ع)

(3). قوله «و أخرس الشقاشق» في الصحاح «شقشق الفحل شقشقة» : هدر. وإذا قالوا للخطيب : ذو شقشقة ، فإنما يشبه بالفحل. (ع)

جاء كالشاهد بصحته والمنادى على سداده ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان.

ألا ترى إلى قوله : صُنْعَ اللَّهِ ، وصِبْغَةَ اللَّهِ ، ووَعَدَ اللَّهُ ، وفِطْرَتَ اللَّهِ : بعد ما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم، كيف تلاها بقوله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ، لا يخلف اللّه الميعاد لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ وقرئ : تفعلون ، على الخطاب. فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها يريد الإضعاف وأنّ العمل يتقضى والثواب يدوم ، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد. وقيل : فله خير منها ، أى : له خير حاصل من جهتها وهو الجنة. وعن ابن عباس ، الحسنة كلمة الشهادة. وقرئ : يَوْمَئِذٍ مفتوحا مع الإضافة ، لأنه أضيف إلى غير متمكن. ومنصوبا مع تنوين فزع. فإن قلت : ما الفرق بين الفزعين؟ قلت : الفزع الأوّل : هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدّة تقع وهول يفجأ ، من رعب وهيبة ، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به ، كما يدخل الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب «1» وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتولية.

وأمّا الثاني : فالخوف من العذاب. فإن قلت : فمن قرأ مِنْ فَزَعٍ بالتنوين ما معناه؟ قلت : يحتمل معنيين. من فزع واحد وهو خوف العقاب ، وأمّا ما يلحق الإنسان من التهيب والرعب لما يرى من الأهوال والعظائم ، فلا يخلون منه ، لأنّ البشرية تقتضي ذلك. وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه. ومن فزع شديد مفرط الشدّة لا يكتنهه الوصف : وهو خوف النار. أمن : يعدى بالجار وبنفسه ، كقوله تعالى أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ. وقيل : السيئة : الإشراك. يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة ، فكأنه قيل : فكبوا في النار ، كقوله تعالى فَكُبْكِبُوا فِيها ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذانا بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين هَلْ تُجْزَوْنَ يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

[سورة النمل (27) : الآيات 91 إلى 93]

إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

أمر رسوله بأن يقول أُمِرْتُ أن أخص الله وحده بالعبادة ، ولا أتخذ له شريكا كما فعلت قريش ، وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ من التلاوة أو التلوّ كقوله وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ. والبلدة : مكة حرسها الله تعالى : اختصها من بين سائر.

(1). قوله «و قلب وجاب» في الصحاح «وجب القلب وجيبا» : اضطرب. (ع)

البلاد بإضافة اسمه إليها ، لأنها أحبّ بلاده إليه ، وأكرمها عليه ، وأعظمها عنده. وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج في مهاجره ، فلما بلغ الحزورة «1» استقبلها بوجهه الكريم فقال : «إنى أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله. ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت» «2» وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب ، دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه. ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها ، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ، ووصفها بأنها محرّمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضادّ لربه وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ لا يختلى خلاها ، ولا يعضد شجرها «3» ، ولا ينفر صيدها. واللاجئ إليها آمن. وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما. وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء «4» : اللهم بارك لنا في سكناها ، وآمنا فيها شرّ كل ذى شرّ ، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك. وقرئ : التي حرّمها. واتل عليهم هذا القرآن : عن أبىّ وأن أتل : عن ابن مسعود. فَمَنِ اهْتَدى باتباعه إياى فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفى الأنداد عنه ، والدخول في الملة الحنيفية ، واتباع ما أنزل علىّ من الوحى ، فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إلىّ وَمَنْ ضَلَّ ولم يتبعني فلا علىّ ، وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول إلا البلاغ.

(1). قوله «فلما بلغ الحزورة» هي تل صغير كما في الصحاح. (ع)
(2). أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وابن أبى شيبة والدارمي وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل. كلهم من رواية الزهري عن أبى سلمة عن عبد الله بن عدى بن الخيار قال «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا على الحزورة وهو يقول : والله إنك لخير أرض الله إلى الله وأحب أرض الله إلى الله. ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت» هكذا رواه عقيل ويونس وشعيب وصالح بن كيسان عنه. ورواه ابن أخى الزهري عن عمه عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عدى بن الخيار : أخرجه الطبراني. وصححه الدارقطني لوجهين. ورواه النسائي وإسحاق والبزار والبيهقي في الدلائل من رواية معمر عن الزهري عن أبى سلمة عن أبى هريرة. ولفظه للبيهقي «و لولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت» قال البزار : تفرديه معمر هكذا. وقال البيهقي : وهم فيه معمر وقال الترمذي : رواه محمد بن عمر بن أبى سلمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة. وقول الزهري عن أبى سلمة عن عبد الله بن عدى أصح. وقال البيهقي أيضا : ورواية محمد بن عمرو وهم. وفي الباب عن ابن عباس. أخرجه الترمذي من رواية ابن خثيم عن سعيد بن جبير وأبى الطفيل جميعا فيه نحو «ما أطيبك من بلد وأحبك إلىّ. ولولا أن قومي أخرجونى منك ما سكنت غيرك».
(3). قوله «لا يختلى خلاها ... الخ» : أى لا يجز حشيشها ، ولا يقطع شجرها. (ع)
(4). قال محمود : «المراد بالبلدة مكة وإضافة اسم الله تعالى إليها لتشريفها وذكر تحريمها ، لأنه أخص أوصافها وأسنده إلى ذاته تأكيدا لشرفها ثم قال : وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، فجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخول هذه البلدة المعظمة. وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا قد ملك هذه البلدة المكرمة وملك إليها كل شيء إنه لعظيم الشأن» قال أحمد : وتحت قوله وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ : فائدة أخرى سوى ذلك ، وهي أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفا لها ، أتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه ، قطعا لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها ، وتنبيها على أن الاضافة الأولى إنما قصد بها التشريف ، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة ، والله أعلم.

ثم أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوّة التي لا توازيها نعمة ، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته التي تلجئهم إلى المعرفة ، والإقرار بأنها آيات الله. وذلك حين لا تنفعهم المعرفة. يعنى في الآخرة. عن الحسن وعن الكلبي : الدخان ، وانشقاق القمر. وما حلّ بهم من نقمات الله في الدنيا. وقيل : هو كقوله سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ الآية وكل عمل يعملونه ، فالله عالم به غير غافل عنه لأنّ ، الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات «1» ، وهو من وراء جزاء العاملين. قرئ : تعملون ، بالتاء والياء.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. «من قرأ طس سليمان : كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ، ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلا الله» «2».

---

(1). قال محمود : «لأن العالم بالذات لا يجوز عليه الغفلة» قال أحمد : قد سبق له جحد صفة العلم ، وإيهام أن سلبها داخل في تنزيه الله تعالى ، لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لا بعلم ، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى ، لأن علمه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، بل هو علم قديم أزلى عام التعليق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات ، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. [.....]
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه.

سورة القصص

مكية ، [إلا من آية 52 إلى غاية آية 55 فمدنية ، وآية 85 فبالجحفة أثناء الهجرة] وآياتها 88 [نزلت بعد النمل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القصص (28) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ مفعول نتلو ، أى : نتلو عليك بعض خبرهما بِالْحَقِّ محقين ، كقوله تنبت بالدهن لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن ، لأنّ التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

[سورة القصص (28) : آية 4]

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

إِنَّ فِرْعَوْنَ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل ، كأن قائلا قال : وكيف كان نبؤهما فقال : إنّ فرعون عَلا فِي الْأَرْضِ يعنى أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحدّ في الظلم والعسف شِيَعاً فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه ، لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه. قال الأعشى :

وبلدة يرهب الجوّاب دلجتها حتّي تراه عليها يبتغى الشّيعا «1»

(1) وبلدة يرهب الجواب دلجتها حتى تراه عليها يبتغى الشيعا
كلفت مجهولها نفسي وشايعنى همى عليها إذا ما آلها لمعا
بذات لوث عفرناة إذا عثرت فالتعس أولى لها من أن يقال لعا
للأعشى ، أى : ورب مفازة يخاف الجواب : أى كثير السير ، من جبت الأرض : قطعتها بالسير. والدلجة ، من دلج وأدلج بوزن افتعل ، وأدلج بوزن أكرم : إذا سار ليلا والدلجة : ساعة من الليل ، أى : يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلا حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها ، كلفت نفسي سير المجهول منها ، وعاوننى عزمي على سيرها وقت لمعان آلها ، وهو السراب الذي يرى عند شدة الحر كأنه ماء ، مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل ، ثم قال مع ناقة صاحبة قوة ، ويطلق اللوث على الضعف أيضا ، فهو من الأضداد ، عفرناة : غليظة ، ويقال للعاثر : لعا لك ، دعاء له بالانتعاش. وتعسا له : دعاء عليه بالسقوط ، يريد أنها لا تعثر ، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها.

أو يشيع بعضهم بعضا في طاعته. أو أصنافا في استخدامه يتسخر صنفا في بناء وصنفا في حرث وصنفا في حفر ، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية. أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ، وهم بنو إسرائيل والقبط. والطائفة المستضعفة : بنو إسرائيل. وسبب ذبح الأبناء : أنّ كاهنا قال له : يولد مولود في بنى إسرائيل يذهب ملكك على يده. وفيه دليل بين على ثخانة حمق فرعون ، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن ، وإن كذب فما وجه القتل؟ ويَسْتَضْعِفُ حال من الضمير في وَجَعَلَ أو صفة لشيعا. أو كلام مستأنف. ويُذَبِّحُ بدل من يستضعف.

وقوله إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ بيان أنّ القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب ، لأنه فعل لا طائل تحته ، صدق الكاهن أو كذب.

[سورة القصص (28) : الآيات 5 إلى 6]

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (6)

فإن قلت : علام عطف قوله وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ وعطفه على نَتْلُوا ويَسْتَضْعِفُ غير سديد؟ قلت : هي جملة معطوفة على قوله إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ لأنها نظيرة «تلك» في وقوعها تفسيرا لنبأ موسى وفرعون ، واقتصاصا له. وَنُرِيدُ : حكاية حال ماضية. ويجوز أن يكون حالا من يستضعف ، أى يستضعفهم فرعون ، ونحن نريد أن نمنّ عليهم. فإن قلت : كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم؟ وإذا أراد الله شيئا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر ، قلت : لما كانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع ، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم أَئِمَّةً مقدّمين في الدين والدنيا ، يطأ الناس أعقابهم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : قادة يقتدى بهم في الخير. وعن مجاهد رضى الله عنه : دعاة إلى الخير ، وعن قتادة رضى الله عنه : ولاة ، كقوله تعالى وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً. الْوارِثِينَ يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم. مكن له : إذا جعل له مكانا يقعد عليه أو يرقد ، فوطأه ومهده ونظيره : أرّض له. ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام : أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم ولا تغث «1» عليهم ، كما كانت في أيام الجبابرة ، وينفذ أمرهم ، ويطلق أيديهم ويسلطهم.

(1). قوله «و لا تغث عليهم» أى : ولا تفسد وتردؤ. أفاده الصحاح. (ع)

وقرئ : ويرى فرعون وهامان وجنودهما ، أى : يرون مِنْهُمْ ما حذروه : من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم.

[سورة القصص (28) : آية 7]

وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)

اليم : البحر. قيل : هو نيل مصر. فإن قلت : ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر؟ قلت : أما الأوّل فالخوف عليه من القتل ، لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني ، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان ، وغير ذلك من المخاوف. فإن قلت : ما الفرق بين الخوف والحزن؟ قلت : الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع. والحزن : غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به ، فنهيت عنهما جميعا ، وأو منت بالوحي إليها ، ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة وسرورا : وهو ردّه إليها وجعله من المرسلين. وروى : أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد. وروى : أنها حين أقربت وضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فقالت لها : لينفعني حبك اليوم ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ، ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله فاحفظيه ، فلما خرجت جاء عيون فرعون ، فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور «1» ، لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها ، فطلبوا فلم يلقوا شيئا ، فخرجوا وهي لا تدرى مكانه ، فسمعت بكاءه من التنور ، فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما ، فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فألقته في اليم. وقد روى أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردي «2» مطلى بالقار من داخله.

[سورة القصص (28) : آية 8]

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (8)

(1). قوله «و وضعته في تنور مسجور» في الصحاح «التنور» : الذي يخبر فيه. وفيه أيضا. سجرت التنور سجرا ، إذا حميته. (ع)
(2). قوله «تابوت من بردي مطلى بالقار» في الصحاح «البردي» بالفتح : نبات معروف ، فلينظر. (ع)

اللام في لِيَكُونَ هي لام كى التي معناها التعليل ، كقولك : جئتك لتكرمنى سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة ، لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوّا وحزنا ، ولكن : المحبة والتبني ، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله ، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء ، والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك : ضربته ليتأدّب. وتحريره : أن هذه اللام حكمها حكم الأسد ، حيث استعيرت لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد. وقرئ : وحزنا وهما لغتان : كالعدم والعدم كانُوا خاطِئِينَ في كل شيء ، فليس خطؤهم في تربية عدّوهم ببدع منهم. أو كانوا مذنبين مجرمين ، فعاقبهم الله بأن ربى عدوّهم - ومن هو سبب هلاكهم - على أيديهم. وقرئ : خاطين ، تخفيف خاطئين ، أو خاطين الصواب إلى الخطأ.

[سورة القصص (28) : آية 9]

وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (9)

روى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه ، فلم يقدروا عليه ، فعالجوا كسره فأعياهم ، فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورا ، فعالجته ففتحته ، فإذا بصبىّ نوره بين عينيه وهو يمصّ إبهامه لبنا فأحبوه ، وكانت لفرعون بنت برصاء ، وقالت له الأطباء : لا تبرأ إلا من ، قبل البحر ، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه ، فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت «1». وقيل لما نظرت إلى وجهه برأت ، فقالت : إن هذه لنسمة مباركة، فهذا أحد ما عطفهم عليه ، فقال الغواة من قومه : هو الصبى الذي نحذر منه ، فأذن لنا في قتله ، فهمّ بذلك فقالت آسية قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ فقال فرعون : لك لا لي. وروى في حديث : «لو قال هو قرّة عين لي كما هو لك، لهداه الله كما هداها «2»» وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، أى : لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ، ولأسلم كما أسلمت : هذا - إن صح الحديث - تأويله ، والله أعلم بصحته.

وروى أنها قالت له : لعله من قوم آخرين ليس من بنى إسرائيل. قرّة عين : خبر مبتدإ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ ولا تَقْتُلُوهُ خبرا ، ولو نصب لكان أقوى. وقراءة ابن مسعود رضى الله عنه دليل على أنه خبر ، قرأ : لا تقتلوه قرّة عين لي ولك ، بتقديم لا تَقْتُلُوهُ.

(1). قوله «فبرأت» في الصحاح : برئت من المرض برءا بالضم. وأهل الحجاز يقولون : برأت من المرض برءا بالفتح. وأصبح فلان بارئا من مرضه (ع)

(2). هذا طرف من حديث الفتون الطويل. وقد ذكرنا في طه أن النسائي أخرجه من حديث ابن عباس وفيه فأتت فرعون فقالت : قرة عين لي ولك فقال فرعون : يكون لك فأما أنا فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يحلف به ، لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن الله حرمه ذلك».

عَسى أَنْ يَنْفَعَنا فإنّ فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله ، وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء ، ولعلها توسمت في سيماه النجابة المؤذنة بكونه نفاعا.

أو نتبناه ، فإنه أهل للتبنى ، ولأن يكون ولدا لبعض الملوك. فإن قلت : وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ حال ، فما ذو حالها؟ قلت : ذو حالها آل فرعون. وتقدير الكلام : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه. وقوله : إن فرعون ... الآية : جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه ، مؤكدة لمعنى خطئهم. وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم.

[سورة القصص (28) : الآيات 10 إلى 11]

وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (11)

فارِغاً صفرا من العقل. والمعنى : أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش. ونحوه قوله تعالى وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ أى جوّف لا عقول فيها ومنه بيت حسان :

ألا أبلغ أبا سفيان عنّى فأنت مجوّف نخب هواء «1»

وذلك أنّ القلوب مراكز العقول. ألا ترى إلى قوله فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ويدل عليه قراءة من قرأ : فرغا. وقرئ : قرعا ، أى خاليا من قولهم : أعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء «2». وفرغا ، من قولهم : دماؤهم بينهم فرغ ، أى هدر ، يعنى : بطل قلبها وذهب ، وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها لَتُبْدِي بِهِ لتصحر «3» به. والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته ، وأنه ولدها لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها بإلهام الصبر ، كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ من المصدقين بوعد الله ،

(1). تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات في الجزء الثاني صفحة 563 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2). قوله «من صفر الإناء وقرع الفناء» صفر الإناء : خلوه ، مصدر : صفر الشيء بالكسر ، أى : خلا.
وقرع الفناء : خلوه من الغاشية ، مصدر قرع بالكسر ، أى : خلا. (ع)

(3). قوله «لتصحر به» في الصحاح : أصحر الرجل ، أى : خرج إلى الصحراء والمراد هنا تجهر به ولا تكتم أمره (ع)

وهو قوله إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ويجوز : وأصبح فؤادها فارغا من الهم ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت ، لولا أنا طامنا قلبها وسكنّا قلقه الذي حدث به من شدّة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد اللّه لا بتبني فرعون وتعطفه. وقرئ : مؤسى ، بالهمزة : جعلت الضمة في جارة الواو - وهي الميم - كأنها فيها ، فهمزت كما تهمز واو وجوه قُصِّيهِ اتبعى أثره وتتبعى خبره. وقرئ فبصرت بالكسر - يقال بصرت به عن جنب وعن جنابة ، بمعنى : عن بعد. وقرئ : عن جانب ، وعن جنب. والجنب : الجانب. يقال : قعد إلى جنبه وإلى جانبه ، أى : نظرت إليه مزورة متجانفة مخاتلة «1». وهم لا يحسون بأنها أخته ، وكان اسمها مريم.

[سورة القصص (28) : الآيات 12 إلى 13]

وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ (12) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (13)

التحريم : استعارة للمنع لأنّ من حرم عليه الشيء فقد منعه. ألا ترى إلى قولهم : محظور.

وحجر ، وذلك لأن اللّه منعه أن يرضع ثديا ، فكان لا يقبل ثدي مرضع قط ، حتى أهمهم ذلك.

والمراضع : جمع مرضع ، وهي المرأة التي ترضع. أو جمع مرضع ، وهو موضع الرضاع يعنى الثدي أو الرضاع مِنْ قَبْلُ من قبل قصصها أثره. روى أنها لما قالت وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ قال هامان : إنها لتعرفه وتعرف أهله ، فقالت : إنما أردت وهم للملك ناصحون «2» والنصح : إخلاص العمل من شائب الفساد ، فانطلقت إلى أمها بأمرهم ، فجاءت بها والصبىّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكى يطلب الرضاع ، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها ، فقال لها فرعون : ومن أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ قالت : إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أوتى بصبى إلا قبلني ، فدفعه إليها وأجرى عليها ، وذهبت به إلى بيتها ، وأنجز اللّه وعده في الردّ ، فعندها ثبت واستقرّ في علمها أن سيكون نبيا. وذلك قوله وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ يريد. وليثبت علمها ويتمكن. فإن قلت : كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟

(1). قوله «متجانفة مخاتلة» متجانفة : أى مائلة. ومخاتلة : أى مخادعة. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «إنهم اتهموها لما قالت وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ بمعرفة موسى عليه السلام ، فقالت إنما أردت وهم للملك فرعون ناصحون ، فخلصت من التهمة» قال أحمد : أوردت هذه التورية استحسانا لفطنتها ، ولكونها من بيت النبوة ، وأخت النبي ، فحقيق لها ذلك.

قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربىّ كانت تأخذه على وجه الاستباحة. وقوله وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ داخل تحت علمها. المعنى : لتعلم أن وعد اللّه حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون. ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى ، فجزعت وأصبح فؤادها فارغا يروى أنها حين ألقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها : يا أم موسى ، كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجرى ، ثم ذهبت فتوليت قتله ، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه قالت : وقع في يد العدوّ ، فنسيت وعد اللّه. ويجوز أن يتعلق وَلكِنَّ بقوله وَلِتَعْلَمَ ومعناه : أن الرّد إنما كان لهذا الغرض الديني ، وهو علمها بصدق وعد اللّه. ولكنّ الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلى الذي ما سواه تبع له : من قرّة العين وذهاب الحزن.

[سورة القصص (28) : آية 14]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)

وَاسْتَوى واعتدل وتمّ استحكامه ، وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه ، كما قال لقيط :

واستحملوا أمركم للّه درّكمو شزر المريرة لا قحما ولا ضرعا «1»

وذلك أربعون سنة : ويروى : أنه لم يبعث نبىّ إلا على رأس أربعين سنة «2». العلم. التوراة.

والحكم : السنة. وحكمة الأنبياء : سنتهم. قال اللّه تعالى وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ.

(1). للقيط. وروى : واستحكموا. والشزر : القتل الشديد ، والشيء الشديد ، فهو مصدر أو وصف ، والمريرة من المرة وهي القوة. والمرير : الحبل المحكم الفتل. والقحم : الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف. والضرع : اللين الذليل ، من الضراعة وهي الذلة والخضوع ، يقول : قلدوا أمر خلافتكم رجلا محكم العزيمة قوى الهمة ، لا هرما مختل الرأى ولا ضعيفا ، ولله دركم : جملة اعتراضية ، أى : لله خيركم وصالح عملكم. وقيل : هذا البيت ملفق مما رواه أبو العباس المبرد في كامله ، ومنه :

فقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا

حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم الرأى لا قحما ولا ضرعا

ورحب الذراع : طويل الباع واسع الصدر ، أى : شجاع جواد ، واضطلع بكذا : قوى عليه واشتد ، من الضلاعة وهي القوة واحتمال الثقيل ، وشطرت الناقة شطرا : حلبت شطر لبنها وتركت شطره ، أى : نصفه وما هنا مستعار منه ، أى : جربت الدهر ومرت بى ضروبه من خير وشر ، فاكتسبت منه ما يصح به رائي. والأشطر : جمع شطر بدل من الدهر. ويجوز أن حلب يتعدى إلى مفعولين ولو بالتضمين. ومتبع الأول : اسم مفعول ، والثاني : اسم فاعل ، أى : تارة تابع ، وتارة متبوع. واستمرت مريرته : قوى عزمه واستحكم أمره على شزر ، أى قوة وصدق همة ،

(2). لم أجده. [.....]

وقيل : معناه أتيناه سيرة الحكماء العلماء ، وسمتهم قبل البعث ، فكان لا يفعل فعلا يستجهل فيه.

[سورة القصص (28) : الآيات 15 إلى 17]

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17)

المدينة : مصر. وقيل : مدينة منف من أرض مصر. وحين غفلتهم : ما بين العشاءين.

وقيل : وقت القائلة. وقيل : يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم. وقيل : لما شبّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم ، فأخافوه ، فلا يدخل قرية إلا على تغفل. وقرأ سيبويه : فاستعانه مِنْ شِيعَتِهِ ممن شايعه على دينه من بنى إسرائيل. وقيل : هو السامرىّ مِنْ عَدُوِّهِ من مخالفيه من القبط ، وهو فاتون ، وكان يتسخر الاسرائيلى لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون. والوكز : الدفع بأطراف الأصابع. وقيل : بجمع الكف. وقرأ ابن مسعود : فلكزه. باللام فَقَضى عَلَيْهِ فقتله. فإن قلت : لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلما لنفسه واستغفر منه؟ قلت : لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل ، فكان ذنبا يستغفر منه. عن ابن جريج : ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف ، تقديره : أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة لأتوبنّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ «1» وأن يكون استعطافا ، كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت علىّ من المغفرة ، فلن أكون - إن عصمتني - ظهيرا للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين : إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون. وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له. وعن ابن عباس : لم يستثن فابتلى به مرّة أخرى. يعنى : لم يقل : فَلَنْ أَكُونَ إن شاء الله. وهذا نحو قوله وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا وعن عطاء : أنّ رجلا قال له : إنّ أخى يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه. قال : فمن الرأس ، يعنى

(1). قوله تعالى قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ قال أحمد : لقد تبرأ من عظيم ، لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده. ويروى : أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ، فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة أو برى لهم قلما فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار.

من يكتب له؟ قال : خالد بن عبد الله القسري : قال فأين قول موسى؟ وتلا هذه الآية. وفي الحديث : «ينادى مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة ، حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما ، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم» «1» وقيل معناه. بما أنعمت علىّ من القوّة ، فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك.

ولا أدع قبطيا يغلب أحدا من بنى إسرائيل.

[سورة القصص (28) : الآيات 18 إلى 19]

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)

يَتَرَقَّبُ المكروه وهو الاستقادة منه ، أو الإخبار وما يقال فيه ، ووصف الإسرائيلى بالغىّ ، لأنه كان سبب قتل رجل ، وهو يقاتل اخر. وقرئ : يبطش ، بالضم. والذي هو عدوّ لهما : القبطي لأنه ليس على دينهما ، ولأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل. والجبار : الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن : وقيل : المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله ، ولما قال هذا : أفشى على موسى فانتشر الحديث في المدينة ورقى إلى فرعون ، وهموا بقتله.

[سورة القصص (28) : آية 20]

وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(20)

قيل : الرجل : مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، ويَسْعى يجوز ارتفاعه وصفا لرجل ، وانتصابه حالا عنه ، لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ وإذا جعل صلة لجاء ، لم يجز في يَسْعى إلا الوصف. والائتمار : التشاور. يقال : الرجلان يتآمران ويأتمران ، لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر. والمعنى : يتشاورون بسببك لَكَ بيان ، وليس بصلة الناصحين.

[سورة القصص (28) : آية 21]

فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

(1). ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة.

يَتَرَقَّبُ التعرّض له في الطريق. أو أن يلحق.

[سورة القصص (28) : آية 22]

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (22)

تِلْقاءَ مَدْيَنَ قصدها ونحوها. ومدين : قرية شعيب عليه السلام ، سميت بمدين بن إبراهيم ، ولم تكن في سلطان فرعون ، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان ، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه. وسَواءَ السَّبِيلِ وسطه ومعظم نهجه. وقيل : خرج حافيا لا يعيش إلا بورق الشجر ، فما وصل حتى سقط خف قدمه.

وقيل : جاءه ملك على فرس بيده عنزة ، فانطلق به إلى مدين.

[سورة القصص (28) : الآيات 23 إلى 28]

وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

ماءَ مَدْيَنَ ماءهم الذي يستقون منه ، وكان بئرا فيما روى. وروده : مجيئه والوصول إليه وَجَدَ عَلَيْهِ وجد فوق شفيره ومستقاه أُمَّةً جماعة كثيفة العدد مِنَ النَّاسِ من أناس مختلفين مِنْ دُونِهِمُ في مكان أسفل من مكانهم. والذود: الطرد والدفع وإنما كانتا تذودان ، لأنّ على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي. وقيل : كانتا تكرهان المزاحمة على الماء. وقيل : لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم ، وقيل : تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما ما خَطْبُكُما ما شأنكما. وحقيقته : ما مخطوبكما ، أى : مطلوبكما من الذياد ، فسمى المخطوب خطبا ، كما سمى المشئون شأنا في قولك : ما شأنك؟ يقال : شأنت شأنه ، أى : قصدت قصده. وقرئ لا نسقي. ويصدر. والرعاء ، بضم النون والياء والراء. والرعاء : اسم جمع كالرخال والثناء «1».

وأما الرعاء بالكسر فقياس ، كصيام وقيام كَبِيرٌ كبير السن فَسَقى لَهُما فسقى غنمهما لأجلهما. وروى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله إلا سبعة رجال. وقيل : عشرة. وقيل : أربعون. وقيل : مائه ، فأقله وحده. وروى أنه سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا : استق بها ، وكانت لا ينزعها إلا أربعون ، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة ، وروّى غنمهما وأصدرهما. وروى أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما. وقيل : كانت بئرا أخرى عليها الصخرة. وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف. والمعنى : أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمّة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم ، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة ، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع ، ولكنه رحمهما فأغاثهما ، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده ، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتى من البطش والقوّة وما لم يغفل عنه ، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ، ترغيب في الخير ، وانتهاز فرصه ، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم. فإن قلت : لم ترك المفعول غير مذكور في قوله يَسْقُونَ وتَذُودانِ ولا نَسْقِي «2»؟ قلت : لأن الغرض هو الفعل لا المفعول. ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقي ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلا ، وكذلك قولهما لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ المقصود فيه السقي لا المسقى. فإن قلت : كيف طابق جوابهما سؤاله قلت : سألهما عن سبب الذود فقالتا : السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال «3» ومزاحمتهم ، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا ، وما لنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به : أبلتا إليه عذرهما «4» في توليهما السقي بأنفسهما. فإن قلت : كيف ساغ لنبىّ الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لا بنتيه بسقى الماشية؟

(1). قوله «لا نسقي ويصدر والرعاء بضم النون والياء والراء ... الخ» يفيد أن القراءة المشهورة بفتح النون والياء وكسر الراء. والرخال : واحده رخل ، وهي الأنثى من ولد الضأن. والثناء : عقال البعير ونحوه من حبل مثنى ، كذا في الصحاح. (ع)

(2). قوله «و تذودان ولا نسقي» لعل بعده سقطا تقديره : فسقى لهما ، وعبارة النسفي : لا نسقي ، و : فسقى. (ع)

(3). قوله «لا نقدر على مساجلة الرجال» في الصحاح : «السجل» الدلو إذا كان فيه ماء. والمساجلة : المفاخرة بأن تصنع مثل صنعه في جرى أو سقى ، وأصله من الدلو اه. (ع)

(4). قوله «أبلتا إليه عذرهما» لعله تحريف ، وأصله : أبدتا ، كعبارة النسفي. (ع)

قلت : الأمر في نفسه ليس بمحظور ، فالدين لا يأباه. وأما المروءة ، فالناس مختلفون في ذلك ، والعادات متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر ، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة إِنِّي لأى شيء أَنْزَلْتَ إِلَيَّ قليل أو كثير ، غث أو سمين ل فَقِيرٌ «1» وإنما عدى فقير باللام ، لأنه ضمن معنى سائل وطالب. قيل : ذكر ذلك وإن خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال ، ما سأل الله إلا أكلة. ويحتمل أن يريد : إنى فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلىّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة : قال ذلك رضا بالبدل السنى ، وفرحا به ، وشكرا له، وكان الظل ظل سمرة عَلَى اسْتِحْياءٍ في موضع الحال ، أى : مستحيية متخفرة «2». وقيل. قد استترت بكم درعها. روى أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان «3» قال لهما : ما أعجلكما؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا ، فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه لي ، فتبعها موسى فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته ، فقال لها : امشى خلفي وانعتى لي الطريق ، فلما قص عليه قصته قال له. لا تخف فلا سلطان لفرعون بأرضنا. فإن قلت : كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة ، وأن يمشى معها وهي أجنبية؟ قلت : أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرّا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى في الأخبار ، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه. وأما مما شاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال ، مع ذلك الاحتياط والتورّع. فإن قلت : كيف صح له أخذ الأجر على البرّ والمعروف؟ قلت : يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف. وقيل إطعام شعيب وإحسانه لا على سبيل أخذ الأجر ، ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدإ. كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوّة من أولاد يعقوب؟ ومثله حقيق بأن يضيّف ويكرم خصوصا في دار نبىّ من أنبياء الله ، وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلبا

(1). قوله «غث أو سمين لفقير» أى مهزول كما في الصحاح. والمراد : ردىء أو جيد. (ع)
(2). قوله «أى مستحيية متخفرة» الخفر : شدة الحياء. ومنه جارية خفرة ومتخفرة ، كذا في الصحاح. (ع)
(3). قوله «و أغنامها حفل بطان» في الصحاح : ضرع حافل ، أى ممتلئ لبنا. وفيه : بطن بالكسر يبطن بطنا : عظم بطنه من الشبع. (ع)
(4). قوله «لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبا» في الصحاح «طلاع الشي ء» : ملؤه. (ع)

كبراهما : كانت تسمى صفراء ، والصغرى : صفيراء. وصفراء : هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره ، وهي التي تزوجها. وعن ابن عباس : أن شعيبا أحفظته الغيرة «1» فقال : وما علمك بقوّته وأمانته؟ فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو ، وأنه صوّب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه. وقولها إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل ، والحكمة أن تقول استأجره لقوّته وأمانته «2». فإن قلت : كيف جعل خير من استأجرت اسما لإنّ ، والقوى الأمين خبرا؟ قلت : هو مثل قوله : ألا إنّ خير النّاس حيّا وهالكا أسير ثقيف عندهم في السّلاسل «3»

(1). قوله «أن شعيبا أحفظته الغيرة» أى أغضبته ، كما في الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ، لأنه إذا اجتمعت القوة والأمانة في القائم بأمرك فقد فرع بالك ، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي ساقته سياق المثل والحكم عن أن تقول : فانه قوى أمين» قال أحمد : وهو أيضا أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للحشمة ، وخصوصا إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه ، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله تعالى عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى ، ففي مضمون هذه الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قويا أمينا يستعين به على ما كان بصدده رضى الله عنه. وهذا الإبهام - من ابنة شعيب صلوات الله عليه وسلامه - قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام ، ولكن شتان ما بين الحياء المجبول والمستعمل ، ليس التكحل في العينين كالكحل ، حيث قالت لسيدها : ما جزاء من أراد بأملك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، وهي تعنى ما جزاء يوسف بما أرادنى من السوء إلا أن تسجنه أو تعذبه عذابا أليما ، ولكنها أو همت زوجها الحياء والخفر أن تنطق بالعصمة منسوبا إليها الخنا ، إيذانا بأن هذا الحياء منها الذي يمنعها أن تنطق بهذا الأمر ، يمنعها من مراودة يوسف بطريق الأحرى والأولى ، والله أعلم.
(3) ألا إن خير الناس حيا وميتا أسير ثقيف عندهم في السلاسل
لعمري إن عمرتم السجن خالدا وأوطأتموه وطأة المتثاقل
لقد كان نهاضا بكل ملمة ومعطي اللهى غمرا كثير النوافل
لأبى الشغب العبسي ، يتحزن على خالد بن عبد الله القسري حين أسره يوسف بن عمرو. وخير الناس : أفعل تفضيل ، مضاف إلى المعرف بأل ، وهو اسم إن. وحيا وميتا ، وروى هالكا : حالان منه. وأسير : خبر إن مضاف إلى ثقيف علم القبيلة. والعلم أعرف من المحلى بأل ، فخبر إن المضاف إليه أعرف من اسمها المضاف للمحلى ، ولا مانع منه مع اتحادا لما صدق الذي هو مراد المخبر. وعندهم في السلاسل : حال أو خبر بعد خبر. ولعمري : قسم ، إن عمرتم : أى أدخلتم وأسكنتم خالدا السجن. وأوطأتموه ، أى : صيرتموه يطأ برجله الأرض كوطأة المتثاقل :
الحامل لشيء ثقيل ، لجعل القيد في رجليه ، فهو كناية عن ذلك لقد كان نهاضا جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف ، أى : كان سريع القيام بكل نازلة ثقيلة ، وكان معطي اللهى - بالفتح - : جمع لهاة ، كحصى وحصاة ، بمعنى اللحمة التي في أقصى الفم ، لكنها هنا بمعنى الفم نفسه. والأوجه أنه بالضم جمع لهوة ، كغرف : جمع غرفة بمعنى العطية من أى نوع كانت ، غمرا : أى عطاء كثيرا غامرا ، وكان كثير الزيادات في العطاء ، وأجرى «معطي» مجرى المرفوع للوزن.

في أن العناية هي سبب التقديم ، وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبرا اسما ، وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف. ومنه قولهم : أهون ما أعملت لسان ممخ «1». وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف ، في قوله عَسى أَنْ يَنْفَعَنا وأبو بكر في عمر. روى أنه أنكحه صفراء. وقوله هاتَيْنِ فيه دليل على أنه كانت له غيرهما تَأْجُرَنِي من أجرته إذا كنت له أجيرا ، كقولك : أبوته إذا كنت له أبا ، وثَمانِيَ حِجَجٍ ظرفه. أو من أجرته كذا ، إذا أثبته إياه. ومنه : تعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجركم الله ورحمكم «2». وثماني حجج : مفعول به ، ومعناه : رعية ثماني حجج فإن قلت : كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قلت : لم يكن ذلك عقدا للنكاح ، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم «3» عليه ، ولو كان عقدا لقال : قد أنكحتك ولم يقل : إنى أريد أن أنكحك. فإن قلت : فكيف صح أن يمهرها إجارة نفسه في رعية الغنم ، ولا بد من تسليم ما هو مال؟ ألا ترى إلى أبى حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة «4» وجوّز أن يتزوّجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ، لأنه في الأول : مسلم نفسه وليس بمال ، وفي الثاني : هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار ، قلت : الأمر على مذهب أبى حنيفة على ما ذكرت. وأما الشافعي : فقد جوّز التزوّج على الإجارة لبعض الأعمال والخدمة ،

(1). قوله «أهون ما أعملت لسان ممخ» في الصحاح : تمخيت من الشيء وأمخيت منه : إذا تبرأت منه اه ، فلعل ممخ : اسم فاعل من أمخيت. (ع) [.....]
(2). أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان من طريق أحمد بن الحسن بن إبراهيم بن الحسن بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسن بن علي عن آبائه إبراهيم بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عزى قال : «آجركم الله ورحمكم» وإذا هنأ قال : «بارك الله لكم وبارك عليكم» وله شاهد مرسل أخرجه ابن أبى شيبة من رواية ابن خالد الوالبي : أن النبي صلى الله عليه وسلم عزى رجلا فقال له : «يرحمه الله ويأجركم» وفي الضعفاء لابن حبان عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم عزى مسلما بذمي مات له ، فقال : «آجرك الله وأعظم أجرك» وفي إسناده إسماعيل بن يحيى التيمي. وهو ساقط
(3). قوله «و لكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه» لعله : ومواضعة (ع)
(4). قال محمود : «نقل من مذهب أبى حنيفة منع النكاح على مثل خدمته بعينه ، وجوازه على مثل خدمة عبده سنة ، وفرق بأنه في الأولى سلم نفسه وليس بمال ، وفي الثانية سلم عبده وهو مال. ونقل عن الشافعي جواز النكاح على المنافع المعلومة مطلقا» قال أحمد: ومذهب ملك على ثلاثة أقوال : المنع ، والكراهة ، والجواز.
والعجب من إجازة أبى حنيفة النكاح على منافع العبد ، بخلاف منافع الزوج ، مع أن الآية أجازت النكاح على منافع الزوج ولم تتعرض لغيره ، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه الزمخشري. أو تفريعا على أن لا دليل في شرع من قبلنا ، أو غير ذلك ، والله أعلم.

إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمرا معلوما ، ولعلّ ذلك كان جائزا في تلك الشريعة. ويجوز أن يكون المهر شيئا آخر ، وإنما أراد أن يكون راعى غنمه هذه المدّة ، وأراد أن ينكحه ابنته ، فذكر له المرادين ، وعلق الإنكاح بالرعية على معنى : إنى أفعل هذا إذا فعلت ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة. ويجوز أن يستأجره لرعية ثماني سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه ، ثم ينكحه ابنته به ، ويجعل قوله عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ عبارة عما جرى بينهما فَإِنْ أَتْمَمْتَ عمل عشر حجج فَمِنْ عِنْدِكَ فإتمامه من عندك. ومعناه : فهو من عندك لا من عندي ، يعنى : لا ألزمكه ولا أحتمه عليك ، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع ، وإلا فلا عليك وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ بإلزام أتمّ الأجلين وإيجابه. فإن قلت : ما حقيقة قولهم : شققت عليه ، وشق عليه الأمر؟ قلت : حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين ، تقول تارة : أطيقه ، وتارة : لا أطيقه. أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه ، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعى غنمه ، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين ، من المناقشة في مراعاة الأوقات ، والمداقة في استيفاء الأعمال ، وتكليف الرعاة أشغالا خارجة عن حدّ الشرط ، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس. ومنه الحديث «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكي ، فكان خير شريك لا يدارى ولا يشارى ولا يماري» «1» وقوله سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ يدل على ذلك ، يريد بالصلاح : حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب «2». ويجوز أن يريد الصلاح على العموم.

ويدخل تحته حسن المعاملة ، والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح : الاتكال على توفيقه فيه ومعونته ، لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله ، وإن شاء استعمل خلافه ذلِكَ مبتدأ ، وبَيْنِي وَبَيْنَكَ خبره ، وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب ، يريد. ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتنى عليه قائم بيننا جميعا ، لا نخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت علىّ ولا أنت عما شرطت على نفسك. ثم قال : أى أجل من الأجلين قضيت : أطولهما الذي هو العشر ، أو أقصرهما الذي هو الثمان فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ أى لا يعتدى علىّ في طلب الزيادة عليه. فإن قلت : تصوّر العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر ، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعا؟ قلت : معناه كما أنى إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانا لا شك فيه، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان. أراد بذلك تقرير أمر الخيار ، وأنه ثابت

(1). أخرجه أبو داود ، وابن ماجة من حديث السائب أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : كنت شريكي ، فكنت خير شريك. لا تدارى ولا تمارى.
(2). قوله «و وطأة الخلق ولين الجانب» في الصحاح : «شيء وطئ» : بين الوطاءة. (ع)

مستقرّ ، وأن الأجلين على السواء : إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء. وأما التتمة فموكولة إلى رأيى : إن شئت أتيت بها ، وإلا لم أجبر عليها. وقيل : معناه فلا أكون متعدّيا ، وهو في نفى العدوان عن نفسه ، كقولك : لا إثم علىّ ، ولا تبعة علىّ. وفي قراءة ابن مسعود : أى الأجلين ما قضيت. وقرئ : أيما ، بسكون الياء ، كقوله : تنظّرت نصرا والسّماكين أيهما علىّ من الغيث استهلّت مواطره «1»

وعن ابن قطيب : عدوان ، بالكسر. فإن قلت : ما الفرق بين موقعى «ما» المزيدة في القراءتين؟

قلت : وقعت في المستفيضة مؤكدة لإبهام ، أىّ : زائدة في شياعها : وفي الشاذة تأكيدا للقضاء ، كأنه قال : أى الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتي له. الوكيل : الذي وكل إليه الأمر ، ولما استعمل في موضع

(1). للفرزدق. ونصر : هو ابن سيار ملك العراقين. والسما كان : كوكبان : السماك الأعزل لا نجم أمامه ، والسماك الرامح أمامه نجوم ، وأيهما أصله مشدد فسكن للضرورة ، ثم يحتمل أنه نصب بدل مما قبله ، وأنه معمول لمحذوف : أى لا أعلم أيهما وهو موصول. ويجوز أنه استفهام ، وعليه فهو رفع على الابتداء ، والضمير فيه راجع لنصر والسماكين ، أى : ترقبت نصرا والسماكين أيهما استهلت مواطره على من الغيث ، وأهل السحاب واستهل : اشتد انصبابه. والمواطر : السحائب. والغيث : المطر. وفي قرن نصر بالسماكين : دلالة على تشبيهه بهما في الخير وعلى الاستفهام ، فهو من باب تجاهل العارف ، وكذلك على نفى العلم.

(2). قوله «و المهيمن والمقيت» أى : المقتدر ، أو الحافظ. (ع)

(3). قوله «إلا أن فيها تنينا» أى : ثعبانا. (ع)

ولما رجع إلى شعيب مسّ الغنم ، فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن ، فأخبره موسى ففرح وعلم أنّ لموسى والعصا شأنا ، وقال له : إنى وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كلّ أدرع ودرعاء»، فأوحى إليه في المنام : أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ، ففعل ، ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء ، فوفى له بشرطه

[سورة القصص (28) : الآيات 29 إلى 32]

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (32)

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الأجلين قضى موسى؟ فقال : أبعدهما وأبطأهما «2».

وروى أنه قال : قضى أوفاهما ، وتزوّج صغراهما. وهذا خلاف الرواية التي سبقت. الجذوة - باللغات الثلاث. وقرئ بهنّ جميعا - : العود الغليظ ، كانت في رأسه نار أو لم تكن ، قال كثير :

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذى غير خوّار ولا دعر «3»

(1). قوله «كل أدرع ودرعاء» لعله «كل أردع وردعاء» وفي الصحاح : به ردع من زعفران أو دم ، أى : لطخ وأثر. وردعته بالشيء فارتدع ، أى : لطخته به فتلطخ اه ، فالأردع : شبيه المتلطخ بلون آخر. ولفظ الخازن : أبلق وبلقاء. (ع)

(2). أخرجه الحاكم من طريق ابن عيينة عن إبراهيم بن يحيى عن عكرمة عن ابن عباس بهذا قلت. وإبراهيم مجهول. وقوله : وروى أنه قال قضى أوفاهما وتزوج من صغراهما : أخرجه الطبراني والبزار من طريق عويد بن أبى عمران الجونى عنه عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : أى الأجلين قضى موسى؟ قال : أوفاهما وأبرهما ، قال وسئل أى المرأتين تزوج؟ قال الصغرى منهما» وعويد ضعيف وفي ابن مردويه من حديث أبى هريرة رفعه «قال لي جبريل : إن سألك اليهودي : أى الأجلين قضى موسى؟ فقل أوفاهما وإن سألك أيهما تزوج؟ فقل الصغرى منهما» وفي إسناده سليمان الشاذكوني وهو ضعيف.

(3). لابن مقبل. والحواطب : الجواري يطلبن الحطب ، والالتماس - بحسب الأصل - : من اللمس.» ثم اتسع فيه. والجذل : الحطب الغليظ اليابس : والجذى : جمع جذوة بتثليث الجيم فيهما وهي العود الغليظ في رأسه نار أولا. والخوار : الضعيف. والخور معيب ، إلا في قولهم : ناقة خوارة ، أى كثيرة اللبن. ونخلة خوارة :
كثيرة الحمل. ودعر العود دعرا كتعب كثر دخانه ، فهو دعر كحذر. والدعر أيضا : السوس والفساد. والدعار :

الفسق والخبث ، وغير خوار : حال من جزل الجذى.

وقال : وألقى على قبس من النّار جذوة شديدا عليه حرها والتهابها «1» مِنْ الأولى والثانية لابتداء الغاية ، أى : أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة.

ومِنَ الشَّجَرَةِ بدل من قوله : من شاطئ الوادي ، بدل الاشتمال ، لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطئ ، كقوله تعالى لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ وقرئ : الْبُقْعَةِ بالضم والفتح.

والرَّهْبِ بفتحتين ، وضمتين ، وفتح وسكون ، وضم وسكون : وهو الخوف. فإن قلت : ما معنى قوله وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : أنّ موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية : فزع واضطرب ، فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء ، فقيل له : إنّ اتقاءك بيدك فيه غضاضة «2» عند الأعداء. فإذا ألقيتها فكما تنقلب «3» حية ، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح : اليد ، لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى ، فقد ضمّ جناحه إليه. والثاني : أن يراد بضم جناحه إليه : تجلده وضبطه نفسه. وتشدّده عند انقلاب العصاحية حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما. وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران. ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أنّ كاتبا له كان يكتب بين يديه ، فانفلتت منه فلتة ريح ، فخجل وانكسر ، فقام وضرب بقلمه الأرض ، فقال له عمر : خذ قلمك ، واضمم إليك جناحك ، وليفرخ روعك «4» ، فإنى ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي. ومعنى قوله مِنَ الرَّهْبِ من أجل الرهب ، أى : إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك : جعل الرهب الذي كان يصيبه سببا وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه. ومعنى : وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ ، وقوله اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ على أحد التفسيرين : واحد. ولكن خولف بين العبارتين ، وإنما كرّر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين ، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني : إخفاء الرهب.

(1). الجذوة في الأصل ، العود الغليظ في رأسه نار أولا ، ولكن خصها الوصف بما في رأسه نار ، ثم إنها استعارة تصريحية للرمح أو للسيف ، والحر والالتهاب : ترشيح لها. وشديد : خبر المبتدأ الذي بعده.
(2). قوله «فيه غضاضة» أى : ذلة ومنقصة ، كما في الصحاح. (ع)
(3). قوله «فكما تنقلب حية» أى : فعند ما تنقلب. (ع) [.....]
(4). قوله «و ليفرخ روعك» أى ليذهب فزعك. أفاده الصحاح. (ع)

فإن قلت : قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما إليه ، وذلك قوله وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ وقوله وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ فما التوفيق بينهما؟ قلت : المراد بالجناح المضموم. هو اليد اليمنى ، وبالمضموم إليه : اليد اليسرى وكلّ واحدة من يمنى اليدين ويسراهما : جناح. ومن بدع التفاسير : أنّ الرهب : الكم ، بلغة حمير وأنهم يقولون : أعطنى مما في رهبك ، وليت شعري كيف صحته في اللغة؟ وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضي عربيتهم؟ ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية؟ وكيف تطبيقه المفصل «1» كسائر كلمات التنزيل؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة «2» من صوف لا كمى لها فَذانِكَ قرئ مخففا ومشدّدا ، فالمخفف مثنى ذاك. والمشدّد مثنى ذلك ، بُرْهانانِ حجتان بينتان نيرتان. فإن قلت : لم سميت الحجة برهانا؟ قلت : لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء. برهرهة ، بتكرير العين واللام معا. والدليل على زيادة النون قولهم : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان. ونظيره تسميتهم إياها سلطانا من السليط وهو الزيت ، لإنارتها.

[سورة القصص (28) : الآيات 33 إلى 34]

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34)

يقال : ردأته : أعنته. والردء : اسم مايعان به ، فعل بمعنى مفعول كما أن الدفء اسم لما يدفأ به. قال سلامة بن جندل : وردئى كل أبيض مشرفي شحيذ الحدّ عضب ذى فلول «3»

وقرئ : ردا على التخفيف ، كما قرئ : الخب رِدْءاً يُصَدِّقُنِي بالرفع والجزم صفة وجواب ، نحو وَلِيًّا يَرِثُنِي سواء. فإن قلت : تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له : صدقت ، أو يقول

(1). قوله «و كيف تطبيقه المفصل» لعله تطبيقه على المفصل (ع)
(2). قوله «زرمانقة من صوف» في الحديث : أن موسى عليه السلام لما أتى فرعون أتاه وعليه زرمانقة ، يعنى : جبة صوف. قال أبو عبيد : أراها عبرانية ، كذا في الصحاح. (ع)
(3). لسلامة بن جندل. يقول : وردئى الذي أتوقى به المكاره كل سيف أبيض ، وعبر بكل ، لأن المراد بيان الجنس لا الشخص ، مشرفي : نسبة إلى مشارف اليمن قرى منها ، وقيل : من الشام ، شحيذ الحد : مرهفه ، من شحذ المدية : حددها. عضب : قاطع ، والفلول : جمع فل - بالفتح : وهو كسر في حد السيف وانثلام ، أى :
به فلول من قراع الكتائب.

وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا لقوله : صدقت ، فإنّ سحبان وباقلا «1» يستويان فيه ، أو يصل جناح كلامه بالبيان ، حتى يصدّقه الذي يخاف تكذيبه ، فأسند التصديق إلى هرون ، لأنه السبب فيه إسنادا مجازيا. ومعنى الإسناد المجازى : أن التصديق حقيقة في المصدّق ، فإسناده إليه حقيقة وليس في السبب تصديق، ولكن استعير له الإسناد لأنه لا بس التصديق بالتسبب كما لا بسه الفاعل بالمباشرة. والدليل على هذا الوجه قوله : إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وقراءة من قرأ : ردءا يصدقوني. وفيها تقوية للقراءة بجزم يصدقني.

[سورة القصص (28) : آية 35]

قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (35)

العضد : قوام اليد ، وبشدّتها تشتد. قال طرفة :

أبنى لبينى لستمو بيد إلّا يدا ليست لها عضد «2»

ويقال في دعاء الخير : شدّ الله عضدك. وفي ضده ، فت الله في عضدك. ومعنى سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ سنقويك به ونعينك ، فإمّا أن يكون ذلك لأن اليد تشتد بشدة العضد. والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور. وإمّا لأنّ الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد ، فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة سُلْطاناً غلبة وتسلطا. أو حجة واضحة بِآياتِنا متعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات ، أى اذهبا بآياتنا. أو بنجعل لكما سلطانا ، أى : نسلطكما بآياتنا. أو بلا يصلون ، أى : تمتنعون منهم بآياتنا. أو هو بيان للغالبون لا صلة ، لامتناع تقدم الصلة على الموصول. ولو تأخر : لم يكن إلا صلة له. ويجوز أن يكون قسما جوابه : لا يصلون ، مقدما عليه. أو من لغو القسم.

(1). قوله «فان سحبان وباقلا يستويان فيه» مثل في الفصاحة. وباقل : مثل في الفهاهة والعي. (ع)
(2) أبنى لبينى لستم بيد إلا يدا ليست لها عضد
أبنى لبينى لا أحقكم وجد الاله بكم كما أجد
لطرفة بن العبد. وقيل : لأوس بن حجر. والهمزة للنداء. ولبينى : اسم أمة كناية عن أنهم أرقاء. واليد استعارة تصريحية للأقوياء. أو تشبيه بليغ ، أى : لستم مثل يد من الأيدى في القوة ، إلا مثل يد لا عضد لها ، فهي صعبة. ويروى إلا يدا مخبولة العضد ، يقال : خبلت يده أشللتها ، ففي القافية الاقواء ، وفيه استتباع الذم بما يشبه المدح للمبالغة في الذم ، وكرر النداء لزيادة التعبير ، وحقه يحقه : خصمه يخصمه ، وأثبته ، وأوجبه أيضا ، أى : لا أثبتكم. أو لستم أهلا لمخاصمتى إياكم. ووجد عليه : غضب. ووجد به : حزن ، أى: غضب الله بسببكم كما أغضب أنا. أو كرهكم كما يكره الحزين ما يحزنه. وهذا دعاء عليهم بالإهلاك.

[سورة القصص (28) : آية 36]

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (36)

سِحْرٌ مُفْتَرىً سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله. أو سحر ظاهر افتراؤه. أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله فِي آبائِنَا حال منصوبة عن هذا ، أى : كائنا في زمانهم وأيامهم ، يريد : ما حدثنا بكونه فيهم ، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك ، وقد سمعوا وعلموا بنحوه. أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته. أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به. وهذا دليل على أنهم حجوا وبهتوا ، وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثلها.
[سورة القصص (28) : آية 37]

وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)

يقول : رَبِّي أَعْلَمُ منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم ، حيث جعله نبيا وبعثه بالهدى ، ووعده حسن العقبى : يعنى نفسه ، ولو كان كما تزعمون كاذبا ساحرا مفتريا لما أهله لذلك ، لأنه غنى حكيم لا يرسل الكاذبين ، ولا ينبئ الساحرين ، ولا يفلح عنده الظالمون. وعاقِبَةُ الدَّارِ هي العاقبة المحمودة. والدليل عليه قوله تعالى أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ وقوله وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ والمراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها وعقباها : أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت. فإن قلت : العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار ، لأنّ الدنيا إمّا أن تكون خاتمتها بخير أو بشر ، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلت : قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازا إلى الآخرة ، وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ، وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق ، ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف ، فإذا عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير. وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تحريف الفجار «1». وقرأ ابن كثير : قالَ مُوسى بغير واو ،

(1). قال محمود : «العاقبة هي العاقبة المحمودة ، والدليل عليه قوله عز وجل أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ وقوله وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ والمراد دار الدنيا وعاقبتها أن يختم للإنسان فيها بالرحمة والرضوان وتتلقاه الملائكة بالبشرى عند الموت. قال : فان قلت العاقبة المحمودة والمذمومة كلاهما يصح أن يسمى عاقبة لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها خيرا أو شرا ، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلت : لأن الله سبحانه وتعالى وضع الدنيا مجازا للآخرة وأراد لعباده فيها أن يعبدوه ولا يعملوا إلا الخير وما خلقهم إلا لأجله ، كما قال :
وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ فمن عمل في الدنيا على خلاف ذلك فقد حرف ، لأن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير ، وأما عاقبة الشر فلا اعتداد بها لأنها من تحريف الفجار» قال أحمد : وقد تقدم من قواعد أهل الحق ما يستضاء به في هذا المقام ، والقدر الذي يحتاج إلى تجديده هاهنا : أن استدلاله على أن عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هي المرادة له لا سواها بقوله تعالى وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ معارض بأمثاله في أدلة أهل السنة على عقائدهم ، مثل قوله وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ الآية. والمراد والله أعلم : ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقا كثيرا من الثقلين. ومن ذلك ما يروى عن الفاروق رضى الله عنه أنه قال : وإنكم آل المغبرة ذرء النار ، أى : خلقها ، فلئن دلت آية الذاريات ظاهرا على أن الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثوابا على عبادتهم له ، فقد دلت آية الأعراف على أنه خلق كثيرا من الثقلين لتكون عاقبتهم جهنم جزاء على كفرهم.
وحينئذ يتعين الجمع بين الآيتين ، وحمل عموم آية الذاريات على خصوص الآية الأخرى ، وإن المراد : وما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبادتي ، جمعا بين الأدلة ، فقد ثبت أن العاقبتين كلتيهما مرادة لله تعالى : هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك ، فوجه مجيء العاقبة المطلقة كثيرا وإرادة الخير بها : أن الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ما ورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم ، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الأليم ، وركب فيهم عقولا ترشدهم إلى عاقبة الخير ، ومكنهم منها ، وأزاح عللهم ووفر دواعيهم ، فكان من حقهم أن لا يعدلوا عن عاقبة الخير ولا يسلكوا غير طريقها ، وأن يتخذوها نصب أعينهم ، فأطلقت العاقبة والمراد بها الخير تفريعا على ذلك ، والله أعلم. والحاصل : أنها لما كانت هي المأمور بها والمحضوض عليها ، عوملت معاملة ما هو مراد وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق ، وقال لي بعضهم : ما يمنعك أن تقول لم يفهم كون العاقبة المطلقة هي عاقبة الخير من إطلاقها ، ولكن من إضافتها إلى ذويها باللام في الآي المذكورة ، كقوله مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ فأفهمت اللام أنها عاقبة الخير ، إذ هي لهم وعاقبة السوء عليهم لا لهم ، كما يقولون : الدائرة لفلان ، يعنون : دائرة الظفر والنصر. والدائرة على فلان ، يعنون :
دائرة الخذلان والسوء ، فقلت : لقد كان لي في ذلك مقال لولا ورود أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ولم يقل عليهم ، فاستعمال اللام مكان «على» دليل على إيفاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير ، والله أعلم.

على ما في مصاحف أهل مكة ، وهي قراءة حسنة ، لأنّ الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة : سحرا مفترى. ووجه الأخرى : أنهم قالوا ذلك ، وقال موسى عليه السلام هذا ، ليوازن الناظر بين القول والمقول ، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر :

وبضدّها تتبيّن الأشياء «1»

وقرئ تكون : بالياء والتاء.

[سورة القصص (28) : آية 38]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (38)

(1) من يظلم القرناء في تكليفهم أن يصبحوا وهم له أكفاء
ويذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتميز الأشياء
لأبى الطيب المتنبي ، بمدح هارون بن عبد العزيز ، أى : أنه تظلم أقرانه في تكليفهم أن يكونوا مساوين له ، وفي ذلك مشقة عليهم : كناية عن أنه لا يساويه أحد. وقوله : وبضدها إلى آخره : دليل على ما قبله. ويروى :

تتبين الأشياء ، والمعنى واحد ، أى : الأشياء تعرف بمعرفة معنى أضدادها.

روى أنه لما أمر ببناء الصرح ، جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير ، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق ، فكان الباني لا يقدر أن يقف على رأسه يبنى ، فبعث اللّه تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس ، فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع : وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ، ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ، ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك. ويروى في هذه القصة : أنّ فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة نحو السماء ، فأراد اللّه أن يفتنهم فردّت إليه وهي ملطوخة بالدم فقال : قد قتلت إله موسى ، فعندها بعث اللّه جبريل عليه السلام لهدمه ، واللّه أعلم بصحته. قصد بنفي علمه بإله غيره : نفى وجوده ، معناه : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي كما قال اللّه تعالى قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ معناه بما ليس فيهن ، وذلك لأنّ العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه ، فإذا كان الشيء معدوما لم يتعلق به موجود. فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده. وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده «1». ويجوز أن يكون على ظاهره ، وأنّ إلها غيره غير معلوم عنده ،

(1). قال محمود : «عبر عن نفى المعلوم بنفي العلم ، وإنما كان كذلك لأن العلم لا يتعلق بالمعلوم إلا على ما هو عليه إن موجودا فموجود وإن معدوما فمعدوم ، فمن ثم عبر عن نفى كونه موجودا بنفي كونه معلوما» قال أحمد :
لشدة ما بلغ منه الوهم ، لم يتأمل كيف سقوط السهم ، وإنما أتى من حيث أن اللّه تعالى عبر كثيرا عن نفى المعلوم بنفي العلم في مثل قوله : قل أتنبئون اللّه بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ، أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ، فلما اطرد ذلك عنده توهم أن هذا التعبير عن نفى المعلوم بنفي العلم يشمل كل علم ، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ما هو به ، وليس هو كذلك ، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا في علم اللّه تعالى لأمر يخص العلم القديم وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر ، فما لم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجودا ، إذ لو كان موجودا لتعلق به بخلاف علم الخلق ، فلا تلازم بين نفى الشيء ونفى العلم الحادث بوجوده ، ولا كذلك العلم القديم ، فان بين نفي معلومه ونفى تعلقه بوجوده تلازما سوغ التعبير المذكور ، ولكن المعلوم أن فرعون كان يدعى الالهية ويعامل علمه معاملة علم اللّه تعالى في أنه لا يعزب عنه شيء ، فمن ثم طغى وتكبر. وعبر بنفي علمه عن نفى المعلوم ، تدليسا على ملئه ، وتلبيسا على عقولهم السخيفة - واللّه أعلم - ويناسب تعاظمه هذا قوله فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ ولم يقل : فاطبخ لي آجرا ، وذلك من التعاظم ، كما قال تعالى - وله العظمة والكبرياء ، ومن ارتدى بردائهما قصمه - : وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ فذكر هذه العبارة الجامعة لأنواع الكفر على وجه الكبرياء تهاونا بها ، وذلك من تجبر الملوك - جل اللّه وعز - ومن تعاظم فرعون أيضا : نداؤه لوزيره باسمه ، وبحرف النداء وتوسيط ندائه خلال الأمر ، وبناؤه الصرح ورجاؤه الاطلاع : دليل على أنه لم يكن مصمما على الجحود. قال الزمخشري : وذلك مناقض لما أظهر من الجحد الجازم في قوله ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فاما أن يخفى هذا التناقض على قومه لغباوتهم وكآبة أذهانهم. وإما أن يتفطنوا لها ويخافوا نقمته فيصروا.
قال أحمد : ولقائل - واللّه أعلم - أن يحمل قوله ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي على الشك ، ونفى علمه خاصة ، وإجرائه مجرى سائر علوم الخلق في أنه لا يلزم من نفى تعلقه بوجود أمر نفى ذلك الأمر ، لجواز أن يكون موجودا عازبا عن علمه. وحينئذ لا يكون تناقضا ، ولو لم يكن حمله هذا هو الأصل لما سوغنا أن يرفع التناقض عن كلامه ، لأنه أحقر من ذلك.

ولكنه مظنون بدليل قوله وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ ، وإذا ظنّ موسى عليه السلام كاذبا في إثباته إلها غيره ولم يعلمه كاذبا ، فقد ظنّ أن في الوجود إلها غيره ، ولو لم يكن المخذول ظانا ظنا كاليقين ، بل عالما بصحة قول موسى عليه السلام لقول موسى له لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ لما تكلف ذلك البنيان العظيم ، ولما تعب في بنائه ما تعب ، لعله يطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام ، وإن كان جاهلا مفرط الجهل به وبصفاته ، حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان ، وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد في عليته ، وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض. ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملئه وغباوتهم : من أنهم راموا نيل أسباب السماوات بصرح يبنونه ، وليت شعري ، أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك سن عقولهم ، حيث صادفهم أغبى الناس وأخلاهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك؟ أم كان في نفسه بتلك الصفة؟ وإن صحّ ما حكي من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم ، فتهكم به بالفعل ، كما جاء التهكم بالقول في غير موضع من كتاب اللّه بنظرائه من الكفرة. ويجوز أن يفسر الظن على القول الأوّل باليقين، كقوله : فقلت لهم ظنوا بألفي مدجّج «1» ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين ، وقد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم.

(1) وكل تباريح المحب لقيتها سوى أنثى لم ألق حتفي بمرصدى
نصحت لعارض وأصحاب عارض ورهط بنى السوداء والقوم شهدى
فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارس المسرد
لدريد بن الصمة ، ينذر قومه بهجوم العدو. ودريد : هو معاوية بن الحرث بن بكر بن علقمة الجثمى : قتل مشركا يوم حنين ، أى : كل الشدائد التي يلقاها المحب من محبوبه لقيتها. والحتف : الهلاك. والمرصد ، والمرصاد : الطريق ، وفي إضافته لنفسه معنى لطيف ، أى : لم أسلك طريقا فيه حتف لي ، بل أسلك غيره فطر بقي لا ضرر فيه. ونصحه ونصح له : خلص وصفا. والشهد - بالتشديد : جمع شاهد. ودججه تدجيجا : غطاه تغطية. والدجة - بالتشديد - : الظلمة. والدج : المشي بتؤدة. والمدجج : التام السلاح. وقيل : هو بالفتح : الفرس ، وبالكسر :

الفارس. والسراة : السادة الأشراف بفتح السين ، وهي في الأصل : أعلى ظهر الحيوان ، فاستعيرت لهم ، وقد تضم ، فوزنها «فعلة» جمع سرى وزن فعيل على غير قياس ، إذ قياسه أفعلاء ، وهو في الأصل : النهر الصغير :
استعير للخير الرئيس ، والفارس : الدروع المعمولة بفارس. والسرد والتسريد : متابعة النسج ، يقول : أيقنوا بهجوم جيش عظيم. والألفان : كناية عن الكثرة ، أى : جيش كثير مغطى بالسلاح ، أشرافه في الدروع الفارسية المتتابعة النسج. والظرفية دالة على سبوغ الدروع لهم. ويروى المسود بالواو وليس بذاك.

أو لم تخف عليهم ، ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه ، وإنما قال فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ ولم يقل : اطبخ لي الآجر واتخذه ، لأنه أوّل من عمل الآجر ، فهو يعلمه الصنعة ، ولأن هذه العبارة أحسن طباقا لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة. وأمر هامان وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين منادى باسمه بيا فى وسط الكلام : دليل التعظيم «1» والتجبر. وعن عمر رضى الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر فقال : ما علمت أن أحدا بنى بالآجر غير فرعون. والطلوع والإطلاع : الصعود. يقال : طلع الجبل وأطلع : بمعنى.

[سورة القصص (28) : الآيات 39 إلى 40]

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)

الاستكبار بالحق : إنما هو لله تعالى ، وهو المتكبر على الحقيقة ، أى : المتبالغ في كبرياء الشأن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن ربه : «الكبرياء ردائي والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته في النار» «2». وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق يُرْجَعُونَ بالضم والفتح فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه. شبههم استحقارا لهم واستقلالا لعددهم «3»، وإن كانوا الكثر الكثير والجم الغفير ، بحصيات أخذهنّ آخذ في كفه فطرحهنّ في البحر. ونحو ذلك قوله وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً ، وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ وما هي إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره ، وأن كل مقدور وإن عظم وجل ، فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

[سورة القصص (28) : الآيات 41 إلى 42]

وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

فإن قلت : ما معنى قوله وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ؟ قلت : معناه : ودعوناهم أئمة

(1). قوله «دليل التعظيم» لعله التعظيم. (ع)
(2). أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه.
(3). عاد كلامه. قال : «و قوله تعالى فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ مقابلة لاستكباره بفعل عبر عنه بما صورته أخذ حصيات ممتهنات ، ثم نبذها ، أى : طرحها في اليم بهوان ، فذلك تمثيل لاستهانته به وإهلاكه بهذا النوع من الهلاك. والله أعلم.

دعاة إلى النار «1» ، وقلنا : إنهم أئمة دعاة إلى النار ، كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة. وهو من قولك : جعله بخيلا وفاسقا ، إذا دعاه وقال : إنه بخيل وفاسق «2». ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله : جعله بخيلا وفاسقا. ومنه قوله تعالى وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ومعنى دعوتهم إلى النار : دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة. ويجوز : خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر. ومعنى الخذلان : منع الألطاف ، وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه ، وهو المصمم على الكفر الذي لا تغنى عنه الآيات والنذر ، ومجراه مجرى الكناية ، لأنّ منع الألطاف يردف التصميم ، والغرض بذكره : التصميم نفسه ، فكأنه قيل : صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته.

فإن قلت : فأى فائدة في ترك المردوف إلى الرادفة؟ قلت : ذكر الرادفة يدل على وجود المردوف فيعلم وجود المردوف مع الدليل الشاهد بوجوده ، فيكون أقوى لإثباته من ذكره. ألا ترى أنك تقول : لو لا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبوت حكمه لما منعت منه الألطاف ، فبذكر منع الألطاف يحصل العلم بوجود التصميم على الكفر وزيادة ، وهو قيام الحجة على وجوده.

وينصر هذا الوجه قوله وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ كأنه قيل. وخذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة مخذولون ، كما قال وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً أى طردا وإبعادا عن الرحمة وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ أى من المطرودين المبعدين.

[سورة القصص (28) : آية 43]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)

بَصائِرَ نصب على الحال. والبصيرة : نور القلب الذي يستبصر به ، كما أن البصر نور العين الذي تبصر به ، يريد : آتيناه التوراة أنوارا للقلوب ، لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف حقا من باطل.

(1). قوله «و دعوناهم أئمة دعاة إلى النار» هذا التأويل وما يأتى بعده في قوله : ويجوز خذلناهم ... إلى آخره: مبنيان على أنه تعالى يجب عليه الصلاح ولا يجوز عليه خلق الشر ، وهذا مذهب المعتزلة. أما مذهب أهل السنة فهو أنه لا يجب عليه تعالى شيء ، ويجوز عليه خلق الشر كالخير. وقد حقق في التوحيد فلا داعى إلى تأويل الآية بمثل هذا التكلف. (ع) [.....]
(2). قال محمود : «معناه دعوناهم أئمة دعاة إلى النار ، كما تقول : جعلته بخيلا فاسقا إذا دعوته بذلك» قال أحمد : لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ وبين هذه الآية ، فمن حمل الجعل على التسمية فيما نحن فيه فرارا من اعتقاد أن دعاءهم إلى النار مخلوق للّه تعالى ، فهو بمثابة من حمله على التسمية في قوله تعالى «و جعلنا الليل والنهار آيتين» : فرارا من جعل الليل والنهار مخلوقين للّه تعالى ، فلا فرق بين نفى مخلوق واحد عن قدرته تعالى ونفى كل مخلوق ، نعوذ باللّه من ذلك.

وإرشادا ، لأنهم كانوا يخبطون في ضلال وَرَحْمَةً لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ إرادة أن يتذكروا. شبهت الإرادة بالترجى فاستعير لها.

ويجوز أن يراد به ترجى موسى عليه السلام «1» لتذكرهم ، كقوله تعالى لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ.

[سورة القصص (28) : آية 44]

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)

الْغَرْبِيِّ المكان الواقع في شق الغرب ، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له في الألواح. والأمر المقضى إلى موسى عليه السلام : الوحى الذي أوحى إليه ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وما كنت حاضرا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ، ولا كنت مِنَ جملة الشَّاهِدِينَ للوحى إليه ، أو على الوحى إليه ، وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات ، حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى عليه السلام في ميقاته. وكتبة التوراة له في الألواح ، وغير ذلك.

[سورة القصص (28) : آية 45]

وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45)

فإن قلت : كيف يتصل قوله وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً بهذا الكلام؟ ومن أى وجه يكون استدراكا له؟ قلت : اتصاله به وكونه استدراكا له ، من حيث أن معناه : ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحى إلى عهدك قرونا كثيرة فَتَطاوَلَ على آخرهم : وهو القرن الذي أنت فيهم الْعُمُرُ أى أمد انقطاع الوحى واندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وكسبناك «2» العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام ، كأنه قال : وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ، ولكنا أوحينا إليك. فذكر سبب الوحى الذي هو إطالة الفترة ، ودلّ به على المسبب على عادة الله عز وجل في اختصاراته ، فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده وَما كُنْتَ ثاوِياً أى مقيما فِي أَهْلِ مَدْيَنَ وهم شعيب والمؤمنون به تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا تقرؤها عليهم تعلما منهم ، يريد : الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه ،

(1). قال محمود : «معناه إرادة تذكرهم ، لأن الارادة تشبه الترجي ، فاستعير لها. أو يراد به ترجى موسى عليه السلام» قال أحمد : الوجه الثاني هو الصواب ، واحذر الأول فانه قدرى.
(2). قوله «و كسبناك العلم» كسب يتعدى إلى مفعولين ، فيقال : كسبت أهلى خيرا ، وكسبت الرجل مالا ، كما في الصحاح. (ع)

ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها.

[سورة القصص (28) : آية 46]

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(46)

إِذْ نادَيْنا يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه ، ولكِنْ علمناك رَحْمَةً وقرئ : رحمة ، بالرفع : أى هي رحمة ما أَتاهُمْ من نذير في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهي خمسمائة وخمسون سنة ، ونحوه قوله لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ.

[سورة القصص (28) : آية 47]

وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(47)

لَوْلا الأولى امتناعية وجوابها محذوف ، والثانية تحضيضية ، وإحدى الفاءين للعطف ، والأخرى جواب لولا ، لكونها في حكم الأمر ، من قبل أن الأمر باعث على الفعل ، والباعث والمحضض من واد واحد. والمعنى : ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدّموا من الشرك والمعاصي : هلا أرسلت إلينا رسولا ، محتجين علينا بذلك : لما أرسلنا إليهم ، يعنى : أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها ، كقوله لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ، لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ. فإن قلت : كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول ، لدخول حرف الامتناع عليها دونه؟ قلت : القول هو المقصود بأن يكون سببا لإرسال الرسل ، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها ، جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول ، فأدخلت عليها لولا ، وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية «1» ، ويؤول معناه إلى قولك : ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ،

(1). قال محمود : «لو لا الأولى امتناعية ، والثانية تحضيضية. والفاء الأولى عاطفة والثانية جواب لو لا.
والمعنى : لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا : لولا أرسلت إلينا رسولا ، محتجين بذلك لما أرسلت إليهم أحدا. فان قلت :
كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة سببا في الإرسال لا القول ، لدخول حرف الامتناع عليها دونه؟
قلت : العقوبة سبب القول ، وهي سبب السبب ، فجعلت سببا وعطف السبب الأصلى عليها بالفاء السببية» قال أحمد :
وذلك مثل قوله تعالى أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى والسر في جعل سبب السبب سببا ، وعطف السبب الأصلى عليه أمران ، أحدهما : أن مزيد العناية يوجب التقديم ، وهذا هو السر الذي أبداه سيبويه. الثاني أن في هذا النظم تنبيها على سببية كل واحد منهما : أما الأول فلاقترانه بحرف التعليل ، وهو «أن» وأما الثاني ، فلاقترانه بفاء السبب ، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ لا من قول القائل : أن تذكر إحداهما الأخرى إذا ضلت ، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالا على النحاة وعلى أهل السنة من المتكلمين ، فيقول : «لولا» عند أهل الفن تدل على امتناع جوابها لوجود ما بعدها ، وحينئذ يكون الواقع بعدها في الآية موجودا وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل ، وجوابها المحذوف غير واقع وهو عدم الإرسال ، لأنه ممتنع بالأولى. ومتى لم يقع عدم الإرسال كان الإرسال واقعا ضرورة ، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة ، لأنهم يقولون : لا ظلم قبل بعثه الرسل ، فلا تتصور العقوبة بتقدير عدم البعثة ، وذلك لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع ، فان لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة. ويشكل الجواب على النحاة ، لأنه يلزم أن لا يكون واقعا وهو عدم بعثة الرسل ، لكن الواقع بعدها يقتضى وقوعه ، ثم كان مورد هذا الاشكال يجيب عنه بتقدير محذوف. والأصل : ولولا كراهة أن تصيبهم مصيبة وحينئذ يزول الاشكال عن الطائفتين.
والتحقيق عندي في الجواب خلاف ذلك ، وإنما جاء الاشكال من حيث عدم تجويز النحاة لمعنى لولا أن يقولون :
أنها تدل على أن ما بعدها موجود وأن جوابها ممتنع به ، والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها ، عكس «لو» فان معناها لزوم جوابها لما بعدها ، ثم المانع قد يكون موجودا وقد يكون مفروضا ، والآية من قبيل فرض وجود المانع ، وكذلك اللزوم في «لو» قد يكون الشيء الواحد لازما لشيئين ، فلا يلزم نفيه من نفى أحد ملزوميه. وعلى هذا التحرير يزول الاشكال الوارد على «لو» في قوله : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، فتأمل هذا الفصل فتحته فوائد للمتأمل ، والله الموفق.

ولكن اختيرت هذه الطريقة لنكتة : وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلا على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين : لم يقولوا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم. وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى ، كقوله تعالى وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ. ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدى : جعل كل عمل معبرا عنه باجتراح الأيدى وتقديم الأيدى وإن كان من أعمال القلوب ، وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعا للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل.

[سورة القصص (28) : آية 48]

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (48)

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معاذيرهم وسدّ طريق احتجاجهم قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ، ومن قلب العصاحية وفلق البحر وغيرهما من الآيات ، فجاءوا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد ، كما قالوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، وما أشبه ذلك أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا يعنى أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم ، وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام بِما أُوتِيَ مُوسى وعن الحسن رحمه الله : قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام ، فمعناه على هذا : أو لم يكفر آباؤهم قالُوا في موسى وهرون سِحْرانِ تَظاهَرا أى تعاونا. وقرئ إظهارا على الإدغام. وسحران ، بمعنى : ذوا سحر. أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر. أو أرادوا نوعان من السحر بِكُلٍّ بكل واحد منهما.

فإن قلت : بم علقت قوله من قبل في هذا التفسير؟ قلت : بأ ولم يكفروا ، ولي أن أعلقه بأوتي ، فينقلب المعنى إلى أن أهل مكة الذين قالوا هذه المقالة كما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة ، وقالوا في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام : ساحران تظاهرا. أو في الكتابين : سحران تظاهرا ، وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فأخبروهم أنه نعته وصفته ، وأنه في كتابهم ، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود ، فقالوا عند ذلك : ساحران تظاهرا.

[سورة القصص (28) : آية 49]

قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (49)

هُوَ أَهْدى مِنْهُما مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل علىّ. هذا الشرط من نحو ما ذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته ، لأنّ امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشكّ. ويجوز أن يقصد بحرف الشكّ : التهكم بهم.

[سورة القصص (28) : آية 50]

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

فإن قلت : ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية ، وبينه في قوله : فلم يستجبه عند ذاك مجيب «1»

حيث عدّى بغير اللام؟ قلت : هذا الفعل يتعدّى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ، ويحذف الدعاء إذا عدّى إلى الداعي في الغالب ، فيقال ، استجاب الله دعاءه أو استجابة له ، ولا يكاد يقال : استجاب له دعاءه. وأما البيت فمعناه : فلم يستجب دعاءه ، على حذف المضاف. فإن قلت : فالاستجابة تقتضي دعاء ولا دعاء هاهنا. قلت : قوله فأتوا بكتاب أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه ، فكأنه قال : فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ، فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ،

(1). قوله «فلم يستجبه عند ذاك مجيب» صدره :
وداع دعا يا من يجيب إلى الندى
اه عليان.
قلت : وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 456 فراجعه إن شئت اه مصححه.

ثم قال وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ لا يتبع في دينه إلا هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ أى مطبوعا على قلبه ممنوع الألطاف إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي أى لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللاطف بهم عابث. وقوله بغير هدى في موضع الحال ، يعنى : مخذولا مخلى بينه وبين هواه.

[سورة القصص (28) : آية 51]

وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51)

قرئ وَصَّلْنا بالتشديد والتخفيف. والمعنى : أن القرآن أتاهم متتابعا متواصلا ، وعدا ووعيدا ، وقصصا وعبرا ، ومواعظ ونصائح : إرادة أن يتذكروا فيفلحوا. أو نزل عليهم نزولا متصلا بعضه في أثر بعض ، كقوله وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ.

[سورة القصص (28) : آية 52]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52)

نزلت في مؤمنى أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة : نزلت في عشرة أنا أحدهم. وقيل : في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل : اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من أرض الحبشة ، وثمانية من الشام.

والضمير في مِنْ قَبْلِهِ للقرآن.

[سورة القصص (28) : آية 53]

وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53)

فإن قلت : أى فرق بين الاستئنافين إنه وإنا؟ قلت : الأوّل تعليل للإيمان به ، لأن كونه حقا من الله حقيق بأن يؤمن به. والثاني : بيان لقوله آمَنَّا بِهِ لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده ، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم ، لأنّ آباءهم القدماء قرءوا في الكتب الأول ذكره وأبناءهم من بعدهم مِنْ قَبْلِهِ من قبل وجوده ونزوله مُسْلِمِينَ كائنين على دين الإسلام ، لأن الإسلام صفة كل موحد مصدّق للوحى.

[سورة القصص (28) : آية 54]

أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (54)

بِما صَبَرُوا بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن. أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله. أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. ونحوه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ بالطاعة المعصية المتقدمة. أو بالحلم الأذى.

[سورة القصص (28) : آية 55]

وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (55)

سَلامٌ عَلَيْكُمْ توديع ومتاركة. وعن الحسن رضى الله عنه : كلمة حلم من المؤمنين لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم فإن قلت : من خاطبوا بقولهم وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ؟ قلت : اللاغين الذين دل عليهم قوله وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ.

[سورة القصص (28) : آية 56]

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ، لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره وَلكِنَّ اللَّهَ يدخل في الإسلام مَنْ يَشاءُ وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه، وأن الألطاف تنفع فيه ، فيقرن به ألطافه حتى تدعوه إلى القبول وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ بالقابلين من الذين لا يقبلون. قال الزجاج :

أجمع المسلمون أنها نزلت في أبى طالب ، وذلك أن أبا طالب قال عند موته : يا معشر بنى هاشم ، أطيعوا محمدا وصدّقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك؟ قال : فما تريد يا ابن أخى؟ قال : أريد منك كلمة واحدة فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا : أن تقول لا إله إلا اللّه ، أشهد لك بها عند اللّه. قال : يا ابن أخى ، قد علمت إنك لصادق ، ولكنى أكره أن يقال : خرع عند الموت «1»، ولولا أن تكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة»

ومسبة بعدي ، لقلتها ، ولأقررت بها عينك عند الفراق ، لما أرى من شدّة وجدك ونصيحتك ، ولكنى سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف.

[سورة القصص (28) : آية 57]

وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (57)

قالت قريش «3» ، وقيل : إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك - وإنما نحن أكلة رأس ، أى : قليلون - أن يتخطفونا من أرضنا ، فألقمهم اللّه الحجر. بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته ، وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون ، وهم آمنون في حرمهم لا يخافون ، وبحرمة البيت هم قارّون بواد غير ذى زرع ،

---

(1). قوله «أكره أن يقال خرع عند الموت» في الصحاح : خرع الرجل - بالكسر - : ضعف ، فهو خرع. (ع)
(2). قوله «غضاضة» أى : مذلة ومنقصة. (ع)
(3). لم أجده ، وقصة وفاة أبى طالب في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن ابنه بغير هذا السياق أو أخصر منه.